

المدينة في الشعر الإنشائي

في عصر الملوكة

(422 هـ - 503 هـ)

رسالة تقدمت بها

داليا كريم جبار الحسيناوي

إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور نافع محمود خلف

2002م

1423هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾

صدق الله العظيم

(سورة ابراهيم / آية 35)

أشهد أن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ (المدينة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف
(422 هـ-503 هـ)) والمقدمة من قبل الطالبة (داليا كريم جبار) جرى تحت إشرافي في كلية
الآداب - جامعة بغداد ، وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

التوقيع :

الاسم : أ.د. نافع محمود خلف (المشرف)

التاريخ :

بناءً على التوصيات المتوفرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

التوقيع :

الاسم : أ.د. ايهم عباس حمودي القيسي

رئيس قسم اللغة العربية ورئيس لجنة

الدراسات العليا .

التاريخ

نشهدُ اننا أعضاء لجنة المناقشة اطلعنا على هذه الرسالة وقد ناقشنا الطالبة في محتوياتها
وفيما له علاقة بها ونعتقد بأنها جديرة بالقبول بدرجة () لنيل درجة الماجستير في اللغة
العربية وآدابها .

التوقيع :	التوقيع :
الاسم :	الاسم :
(مشفراً)	(عضواً)
التوقيع :	التوقيع :
الاسم :	الاسم :
(عضواً)	(رئيس اللجنة)

صدقت من قبل مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد

التوقيع :
الاسم : أ.د. قحطان سلمان الناصري
عميد كلية الآداب
التاريخ :

شكر وامتنان

لابد لي ان اقف هنا وقفة طويلة في ميدان الشاكرين ومرفأ الممتنين ،لما ورد عن الأثر الشهير (من لايشكر الناس لايشكر الله) .

فأتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير الى الاستاذ الدكتور نافع محمود خلف الذي أشرف على هذا الجهد العلمي المتواضع،لما بذله من معونة صادقة ومساعدة عظيمة،فقد فتح أمامي آفاق البحث العلمي ،ووسع خطاي على طريق المنهج العلمي الرصين فجراه الله عني خير الجزاء . وكذلك أدين بالفضل واتوجه بالدعاء بالسؤدد والحياة الرغيدة لأستاذي الفاضل الدكتور محمد مجيد السعيد لإعارته إياي بعضاً من الكتب التي اسهمت في إثراء الموضوع وتكامل جوانبه الموضوعية والفنية .

واتقدم بالشكر الجزيل الى الاستاذ الدكتور حبيب القيسي لتوجيهاته السديدة وسؤاله الدائم عن البحث والباحثة .

واتقدم بجزيل الشكر والفضل الى استاذي الدكتور محمد مولود المشهاني الذي زرع في نفسي بذرة الامل باختياره الموضوع لي.

ويسرني هنا ان ارفع آيات الامتان والشكر الابوي وعظيم العرفان الصادق إلى السيد رئيس قسم اللغة العربية، واساتذتي الافاضل العلماء الذين تتلمذتُ على أيديهم في السنة التحضيرية ،فلهم مني خالص مودتي وامتناني.

والشكر والتقدير الى موظفي المكتبات وهم كُثر أخص منهم اعضاء مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ومكتبة كلية الآداب ، ومكتبة قسم اللغة العربية في الكلية المذكورة والمكتبة المركزية في الوزيرية، واعضاء مكتبة المجمع العلمي العراقي، واعضاء مكتبة المتحف، ومكتبة جامعة صدام للعلوم الاسلامية ،والمكتبة الوطنية . فقد جعلوا بمؤازرتهم ومعونتهم الصادقة هاجساً يؤرقني ولا أظن اني أنساه ما حييت ابداً. ولا يفوتني ان أسجل شكري وتقديري لكل من استرشدت بجهودهم فلهم مني جزيل الشكر .

وشكري وامتناني الى اختي الحبيبة المهندسة تانيا كريم التي ما برحت تقدم لي المعونة تلو المعونة والمساعدة تلو المساعدة .

وأخيراً اتقدم بالشكر الجزيل والمحبة الصادقة الى الاستاذ حسام سليم الذي ساندني وشجعني بكلماته الصادقة التي اضاءت لي الطريق سائلة الله - عز وجل- أن يجمع الجميع في حفظه ورعايته .

الباحثة

الإهداء

إلى من غمراني بحبهما المتواصل ..

إلى من علماني الصدق والتفاني في القول والعمل ..

إلى من أستمد منهما الحب والعطاء ...

إلى أبي وأمي

إلى ينبوع الأمان والصدر الحنون .. جدتي الغالية أم زهير

إليكم أقدم ثمرة جهدي هذا حباً و عرفاناً ..

داليا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحثٌ يتناول دراسة المدينة الأندلسية نظراً لما تحتله المدينة من أهمية في الميادين كافة، الثقافية والاجتماعية والسياسية خاصة في تاريخ الأندلس وحضارتها لأن المدينة تعد رمزاً من رموز الوجود الإنساني. فجاء موضوع الدراسة يحمل عنوان (المدينة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف 422 هـ - 503 هـ)، فقد شهدت الأندلس في هذه الفترة تطوراً في المجال الفني والأدبي والعمراني .

وقد كشف البحث عن المكانة التي حظيت بها المدينة الأندلسية عند الشاعر الأندلسي التي شكلت في ذهنه رمزاً حضارياً وشاخساً تاريخياً للوجود العربي في تلك البقعة الأوروبية. جاء البحث في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، ففي التمهيد حاولت أن أقف على مكانة المدينة في التراث الفكري والفلسفي والاجتماعي. أما الفصل الأول فجاء ليحمل عنوان (ملامح المدينة عند الشاعر الأندلسي) وكشف عن وجود رؤيتين للمدينة الأندلسية، فهناك الرؤية الإيجابية التي نظرت إلى المدينة بعين فنية فاحصة صورت المدينة الأندلسية تصويراً يتسم بالراحة والأمان على وفق المعطيات الإيجابية التي اتسمت بها تلك المدينة من حيث المعيشة والعمران وحركة الحياة الاجتماعية، أما الرؤية الراضة التي وقفت موقفاً نقدياً أمام المدينة من حيث العمران وحركة الحياة السياسية والاجتماعية فيها. أما الفصل الثاني فكان تحت عنوان (المدينة الأندلسية في الأغراض الشعرية) وقد توصل هذا الفصل إلى أن المدينة الأندلسية كانت حاضرة في أغلب الأغراض الشعرية ومنها غرض الوصف الذي اتسع ليشمل وصف المدينة نفسها فضلاً عن وصف ملامح الطبيعة في المدينة الأندلسية، وكشف هذا الفصل أيضاً أن الغربة عن المدينة الأندلسية تحولت عند الشاعر إلى هاجس تأملي يحمل آمانيات العودة إلى الأندلس والشعور بالحنين إليها . وكانت المدينة الأندلسية حاضرة أيضاً في بقية الأغراض الشعرية الأخرى من رثاء وفخر ومديح وغزل. أما الفصل الثالث فقد أختص بدراسة (السمات الفنية لشعر المدينة الأندلسية) وقد كشف على أن ثمة علاقة روحية صميمية بين الشاعر ومدينته وخاصة تلك المدينة التي أثرت في بناء شخصيته الفنية والانسانية، فنجد أن الصورة الشعرية التي استعان بها الشاعر الأندلسي ما هي إلا صوراً مستوحاة من طبيعة المدينة الأندلسية نفسها بجمالها وعبقها . وتوصل البحث أيضاً إلى أن اللغة التي استعملها الشاعر الأندلسي كانت لغة بسيطة تتسم بجمال العبارة ووضوحها وحسن موسيقاها. وقد كشف البحث عن حقيقة أخرى هي أن المدينة الأندلسية التي سقطت بأيدي الأعداء أصبحت فيما بعد رمزاً للجهاد والفضيلة والمقاومة النبيلة ورمزاً للحب والحنين لأيام مضت وأن الشعر الذي بكى المدن الأندلسية كان شعراً صادقاً معبراً عن حقيقة عاشها الشاعر فكان بكاء المدينة الأندلسية وثيقة صادقة عبرت عن حالة الفقد والضياع والحسرة .

المحتويات

الصفحة	الموضوع
2-1	المقدمة.
7-3	التمهيد : ملامح المدينة عند الفلاسفة والمفكرين .
53-8	الفصل الاول: ملامح المدينة عند الشاعر الأندلسي .
10	المبحث الاول : مظاهر الحضارة والعمران .
21-10	اولاً : الأبنية والقصور .
25-21	ثانياً: المساجد والكنائس .
32-25	ثالثاً : الحمامات
53-33	المبحث الثاني : الشاعر الأندلسي والبعد الاجتماعي لمعطيات المدينة .
33	اولاً :الرؤية الشعرية الايجابية لمعطيات المدينة من حيث :
35-33	أ. الإقامة والمعيشة في المدينة الأندلسية .
38-35	ب. جمال المدينة ونظافتها .
38	ثانياً : الرؤية الشعرية الراضة لبعض المظاهر الاجتماعية في المدينة بسبب
43-38	أ. صعوبة الإقامة والمعيشة في المدينة الأندلسية .
46-43	ب. عدم العناية بنظافة المدينة وكثرة الحشرات .
53-46	ج.سوء تصرفات اهل المدينة وظلم بعض الحكام .
137-54	الفصل الثاني : صورة المدينة في الاغراض الشعرية .
55	المبحث الاول : المدينة والوصف .
58-55	اولاً : وصف المدينة الأندلسية .
75-59	ثانياً :وصف ملامح الطبيعة الأندلسية
66-59	أ. وصف بساتين المدينة ورياضها .
72-66	ب. وصف انهار المدينة وسواقيها وبركها.



75-72	ج. وصف جبال المدينة واوديتها .
76	المبحث الثاني : المدينة والاعراض الشعرية الاخرى .
95-76	اولاً : المدينة والرتاء .
117-96	ثانياً : المدينة والغربة والحنين .
124-118	ثالثاً : المدينة والفخر .
133-125	رابعاً : المدينة والمديح .
137-134	خامساً : المدينة والغزل .
185-138	الفصل الثالث : السمات الفنية لشعر المدينة الأندلسية .
140-138	المبحث الاول : الصورة الشعرية .
143-140	اولاً: التصوير بالتشبيه .
148-144	ثانياً :التصوير بالاستعارة .
151-148	ثالثاً: التصوير عن طريق الكناية .
155-152	المبحث الثاني : اللغة والاسلوب .
158-156	اولاً : اسلوب الاستفهام
161-158	ثانياً:اسلوب النداء .
162-161	ثالثاً: اسلوب التعجب .
163-162	رابعاً: اسلوب الطباق .
168-164	خامساً : اسلوب الاقتباس والتضمين .
169	المبحث الثالث : الموسيقى الشعرية .
169	اولاً : الموسيقى الخارجية.
174-169	أ. الوزن .
179-175	ب. القافية .
179	ثانياً: الموسيقى الداخلية :
182-179	أ. التكرار .

185-183	ب.الجناس .
187-186	الخاتمة .
200-188	المصادر والمراجع .
	ملخص الرسالة باللغة الانكليزية .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله وصحبه اجمعين .
وبعد ...

نال الأدب الأندلسي اهتمامي وشغفي منذ كنتُ في مراحل الدراسة الاولى ، لما في هذا الادب من سمات فنية وموضوعية خصبة خلفها لنا اولئك الاجداد العظام عبر ثمانية قرون من الزمن، مجدداً وحضارة .

ولما كان الأدب الأندلسي بحاجة إلى مزيد من الدراسات العلمية ، كان الخوض في موضوعٍ يمتاز بالجدة والابتكار الى جانب الطرافة التي تتأى عن التكرار أو محاولة إعادة ما دبجته يراع المفكرين والأدباء في الموضوعات والدراسات التي سبقت هذا البحث ، فجاء الموضوع يحمل عنوان (المدينة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف)، لما تحتله المدينة من اهمية في الميادين كافة ، الثقافية والاجتماعية والسياسية ، خاصة في تاريخ الأندلس وحضارتها لان المدينة تعد رمزاً من رموز الوجود الانساني .

ونظراً لما تمثله (المدينة) من قيمة أدبية جليلة ، واهمية تاريخية كبيرة فهي الارض والوطن والأم التي تحتضن ابناءها .. لذلك احتل هذا الموضوع في نفسي موضعاً خاصاً لما يحمله من طابع الاصاله والانتماء للوطن .

وبعد الاتكال على الله - سبحانه- شرعت في التقيب عن النصوص التي كان مدارها المدينة الأندلسية من الوجهاات المختلفة، قصة عمرانها وذكر اهليها وسقوطها... ولما كانت هذه الدراسة تطمح في المقام الاول الى تتبع (المدينة الأندلسية) في النص الشعري وتحليل هذا النص وتفسيره تفسيراً فنياً ، لذلك اعتمدت المنهج التحليلي واستعنتُ أيضاً بالمنهج التاريخي .

جاء البحث في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، ففي التمهيد حاولت ان اقف فيه على مكانة المدينة في التراث الفكري والفلسفي والاجتماعي .

في حين جاء الفصل الاول ، ليحمل عنوان (ملاحم المدينة عند الشاعر الأندلسي) ، واشتمل هذا الفصل مبحثين، فمظاهر الحضارة والعمران كان اولهما ، في حين كان الشاعر الأندلسي والبعد الاجتماعي لمعطيات المدينة ثانيهما.

وكانت صورة المدينة في الاغراض الشعرية هي موضوع الفصل الثاني وقد جاء هذا الفصل في مبحثين ،خصصتُ المبحث الاول : للمدينة والوصف وقد وقفت طويلاً عند وصف المدينة الأندلسية فضلاً عن تناول وصف ملامح الطبيعة التي احتضنت المدينة الأندلسية وافاضت عليها بسمه السحر والروعة والجمال، أمّا المبحث الثاني فقد تناولت فيه المدينة الأندلسية والاعراض الاخرى من رثاءٍ وغربةٍ وحنينٍ وفخرٍ ومديحٍ وغزلٍ.

في حين اختص الفصل الثالث بدراسة السمات الفنية لشعر المدينة وتضمن ثلاثة مباحثٍ أختص مبحثه الاول بالصورة الشعرية، وجاءت دراسة اللغة والاسلوب في المبحث الثاني، في حين افردت المبحث الثالث لدراسة الموسيقى الشعرية. ومن ثمّ انتهى البحث بخاتمةٍ دوتتُ فيها اهم النتائج .

وعن الصعوبات التي واجهت الباحثة، فهي تكمن في سعة الموضوع وتداخل النصوص الأدبية بين الشعراء في ذكر المدينة الواحدة ،او تعدد رؤى النص الشعري حسب المنظور النقدي في الدراسات الأدبية ،وكذلك وجود بعض الشعراء الذين امتزجت حياتهم بعصري الطوائف والمرابطين، منهم ابن اللبانة (ت 507 هـ)، والجزار السرقسطي (ت 515 هـ) ، والاعمى التطيلي (ت 525 هـ) ،وابن حمديس (ت 527 هـ)،والحكيم ابي الصلت أمية بن عبد العزيز(ت 529 هـ)، وابن خفاجة (533 هـ). وقد حسبتهم من حيث الوجهة الزمنية على عصر الطوائف على الأغلب ، وان شهدوا المرابطين وقالوا شعراً في عصرهم .

وفيما يخص مصادر البحث فكانت متنوعة ،فقد استقى البحث مادته الشعرية من مصادر الأدب الأندلسي القديمة والحديثة وكذلك حلت الاطاريح والمقالات الجامعية والبحوث من الدوريات بين مصادر هذا البحث ومراجعته .

وأخيراً ارجو ان اكون قد وفقت في دراسة هذا الموضوع ، فهذا جهد مُقل فإن اصاب فغايتته ومبتغاه ، وإن كانت الاخرى فما قصد إلى ذلك من سبيل .

وبعد، فإن القلم كاد يضل في سيره لولا رعاية الله واستاذي المشرف ودعوات المحبين المخلصين... والله أسأل ان يلهمني السداد في القول والعمل انه سميع الدعاء...

التمهيد

ملامح المدينة عند الفلاسفة والمفكرين

إن البحث في مفردة (المدينة) يتطلب التنقيب في دلالتها اللغوية ،ابتداءً بالمعاجم اللغوية ،حيث تشير المعاجم الى أن المَدِينَة تعني (الحِصْنُ يبني في أُصْطُمَة^(*) الارض ، مشتق من ذلك ،وكل أرض يبني بها حِصْنٌ في أُصْطُمَتِهَا فهي مدينة والنسبة إليها مَدِينِيّ والجمع مدائنٌ ومُدُنٌ⁽¹⁾ . والمدينة ايضاً (مَدَنٌ بالمكان : أقام به . ومنه سُميت المدينة . وهي فعيلة وتجمع على مدائن بالهمز وتجمع ايضاً على مُدُنٍ ومُدُنٍ⁽²⁾) .

وبهذا يتضح ان المدينة تمثل الحصن من جهة ، والاقامة من جهة أخرى ،ولعل مفردتي الحصن والاقامة لا يبتعدان عن مفردة المدينة من حيث اتصالها بالمكان او بعدها عنه .

وهذا المعنى اللغوي يحيلنا - بالضرورة - الى المعنى الاصطلاحي الذي يؤكد ان المدينة (نظام نسيجي من العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، والسياسية والأدارية المتشابكة مع بعضها ... وهي تبقى قوية ما بقي النسيج مُحكماً ، فإذا ترهل أصابها الوهن والعجز)⁽³⁾ . ونتيجة لهذا التصوّر اللغوي والاصطلاحي تتبين لنا دلالة مفردة المدينة بوصفها حصناً منيعاً من جهة ومكاناً اجتماعياً من جهة أخرى .

ويتجاوز علماء الاجتماع مفردة المدينة بوصفها مكاناً ، الى عدّها نظاماً من العادات والتقاليد ، اذ ينصب اهتمامهم (على طريقة الحياة التي تميز المجموعات البشرية في المدينة ، والتي تختلف طريقة حياتها عن المجموعات التي تعيش خارج نطاق حدودها)⁽⁴⁾ .

(*) الاسطمة : من (سَطَمَ) واسطمة كل شيء : معظمه ، والإسطام: القطعة من الشيء . ينظر: لسان العرب : ابن منظور ، دار صادر - دار بيروت ، 1956 ، مادة (سطم) .

(1) المصدر نفسه : مادة (مدن) .

(2) الصحاح في اللغة والعلوم : عبد الله العلايلي ، م² ، ط¹ ، دار الحضارة العربية ، بيروت ، 1974 ، ص 484 .

(3) أزمة المدينة العربية : عبد الآله ابو عياش ، ط¹ ، مطابع دار القلم ، بيروت - لبنان ، 1980 ، ص 11 .

(4) جغرافية الحضر ، دراسة في تطور الحضر ومناهج البحث فيها : محمد السيد غلاب ويسري عبد الرزاق الجوهري ، ط¹ ، دار الكتب الجامعية ، 1972 ، ص 52 .

ولاتختلف نظرة الفلاسفة عن غيرهم من علماء الاجتماع ، برفضهم المثول الى جعل المدينة مكاناً ، نتيجة بحثهم في اخلاقيات المدينة واهلها ، إلى درجة القول في تأسيس مدينة فاضلة مملوءة بالعدالة والمساواة ، يقول افلاطون (يجب ان تظل المدينة الفاضلة واحدة متحدة ، حكيمة بحكامها ، شجاعة بجنودها ، عفيفة بعمالها ، عادلة بما يقوم به كل فرد من أفرادها من الاعمال المتناسبة مع استعداداته ومؤهلاته . ومعنى ذلك ايضاً ان فضائل المدينة لاتختلف عن فضائل الفرد ، وهي الحكمة والشجاعة والعفة، والعدالة)⁽¹⁾ . ويعبر افلاطون عن نشوء المدينة في جمهوريته ، وذلك على لسان سقراط بقوله : (أرى أن الدولة تنشأ لعدم استقلال الفرد بسد حاجاته بنفسه ، وافتقاره الى معونة الآخرين، ولما كان كل انسان محتاجاً الى معونة غيره في سد حاجاته ، وكان لكل منا احتياجات كثيرة لزم ان يتألب عدد عديد منا ، من صحب ومساعدين في مستقر واحد، فنطلق على ذلك المجتمع اسم مدينة أو دولة)⁽²⁾ .

وتتحد فكرة الفلاسفة العرب مع آراء الفلاسفة اليونانيين ، إذ قربوا مفردة المدينة من اساسيات المدينة الفاضلة ، (فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التي تتال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة ، والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تتال به السعادة ، هي الأمة الفاضلة)⁽³⁾ . إنَّ نظرة نقدية دقيقة وفاحصة تكشف لنا عمق التصوّر الفلسفي العربي الذي اهتم بمفهوم الاجتماع بغية تحقيق السعادة ، متجاوزاً آراء الفلاسفة اليونانيين الذين اهتموا بتشكيل مدينة فاضلة أساسها رفض الثنائيات كافة، وهذا لايتواءم والطبيعة البشرية - بشكل او بآخر - لانها تكوّنت على اساس ثنائية الخير والشر ،اما عملية رفض هذه الثنائية ، فهو ضرب من الخيال ،اذ لايمكن إقامة مدينة مملوءة بالخير والشر ، لان الطبيعة الانسانية في تغيّر مستمر . امّا نظرة الفلاسفة العرب فعلى ما يبدو انهم قد انطلقوا من خلال نظرة اسلامية ، تحث على التعاون من اجل تحقيق السعادة .

(1) تاريخ الفلسفة العربية : جميل صليبا ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1973 ، ص56 .

(2) جمهورية افلاطون : ترجمة : حنا خباز ، ط3 ، المطبعة العصرية ، 1929 ، ص40 .

(3) كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة : ابو نصر الفارابي ، تقديم : البير نصري نادر ، المطبعة

الكاثوليكية ، بيروت - لبنان ، 1959 ، ص97 .

ولعل نظرة الفارابي تتسجم مع الأفكار الأفلاطونية من جهة ، والقانون التشريعي الإسلامي من جهة ثانية (1) .

أمّا رؤية ابن باجة للمدينة الفاضلة تتجه نحو خط التحقق الوجودي للإنسان إذ بتكوين مدينة فاضلة يتحقق (الوجود الانساني على اكمل صورة في كل فرد) (2) ، نتيجة اشتمالها على اكبر عدد من اهل الفضل والعلماء .

ويجيء عالم الاجتماع والمفكر العربي ابن خلدون لكي يحسم مفردة المدينة بوصفها تجمعاً اجتماعياً ومكاناً ثانياً⁽³⁾ ، إذ يتوغل اهتمامه في المكان الى درجة تقسيمه إياه الى ريفي وحضري ، موقع وموضع ، ففي تمييزه بين الموضع والموقع ، يقول: (فالموضع هو الذي يمثل المكان الذي تغطيه (تشغله) المدينة ، والذي يشمل كل الخصائص الطبيعية لذلك المكان . أمّا الموقع ، فهو الذي يمثل مكان المدينة (موضعها) بالنسبة لما يحيطها من مساحة تتفاعل معها بشكل او آخر "مباشرة او غير مباشرة " . لقد رسم ابن خلدون بذلك العلاقات المكانية بين وحدات المساحة ودرجة مكانة هذه العلاقات على ضوء ميزات الموضع والموقع وعوامل الجذب والطرْد بين وحدات المساحة تلك) (4) .

إن دراسة ابن خلدون في تقسيم المدينة وبيان الفرق الجوهرية بين الموضع والموقع وما الى ذلك ، ما هي الا محاولة مهمة تؤكد حيوية المدينة الواقعية عنده ، والتي تناقض في هندستها وروحها المدينة الفاضلة التي اسطرها افلاطون ، وعلى الرغم من اختلاف وتباين اجواء المدينتين عند افلاطون وابن خلدون وغيرهما من المفكرين الا ان القول بمدينة الطبع الانساني لم تقتصر على واحد منهما ، فالقول بمدينة الطبع انطلقت -في البدء- من

(1) ينظر : الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام : ناجي التكريتي ، ط1 ، دار الاندلس ، بيروت ، 1979 ، ص205 .

(2) تاريخ الفلسفة العربية : ص436 .

(3) ينظر : اعمال مهرجان ابن خلدون : عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ، 1962 ، ص591 .

(4) ابن خلدون ريادة عربية أصيلة في التخطيط المدني والاقليمي : د. خالص الأشعب ، مجلة كلية الآداب ، ع (26) ، حزيران ، 1979 ، ص324 .

آراء افلاطون حول المدينة الفاضلة⁽¹⁾، وحاول تعضيدها ابن خلدون -بعد ذلك - في مقدمته (2) .

ومن هنا فقد اصبحت دلالة المدينة عند العرب - وفقاً لما مهدنا به - رمزاً للتجمع الاجتماعي، ويُعدُّ رأي ابن خلدون من أفضل الآراء في توطين مفاهيم المدينة ومصطلحاتها . على أنَّ اهتمام الفلاسفة والمفكرين بـ "المدينة" كلٌّ حسب طريقته وفلسفته ونظريته اليها، يجعلنا نتوصل إلى نتيجة أنَّ الفكر الفلسفي لم يتخلَّ -هو الآخر - عن رسم حدود المدينة، ولكن بنطاق خيالي أكثر سعة وخصوبة، وفكرة الاستقرار المكاني ترتبط بنشوء تجمعات اجتماعية ذات عادات وتقاليد متباينة، تختلف - على أساسها - درجة السعادة من مدينة الى اخرى بحسب إختلاف تصوراتها ومفاهيمها .

ولابد من الاعتراف أنَّ الاهتمام بـ " المدينة " في هذه الدراسة الأدبية الفنية يختلف كل الاختلاف عن الدراسات السابقة التي اتخذت من "المدينة " موضوعاً أساساً لها، كدراسات علم الاجتماع ، والجغرافيا ، والاقتصاد وغيرها من الدراسات . فضلاً عن اهتمام المهندسين والمعماريين الذين ينصب اهتمامهم على جوانب البناء والتشييد والأعمار .

" فالمدينة " تعد رمز الأمة وهي احد الشواخص الحضارية فيها ، بما تحويه من الأبنية والقصور الشامخة ، والمؤسسات العلمية التي تعقد فيها حلقات العلم والمعرفة كالمساجد ومجالس العلم ، وما تحويه أيضاً من منشآت حضارية كالحمامات التي اعتاد سكان المدن على ارتيادها . وبهذا يتضح أنَّ مهمة دراستنا الأدبية للمدينة تبتعد في أبعادها وحدودها الجغرافية عن أن يكون لها أبعاد أخرى بما تثيره في النفس البشرية من الاحساس بالكرامة والكبرياء والوجود . فالمدينة من خلال الشعر العربي عامة - والاندلسي خاصة - ترمز للقوة والثبات والصمود ، وهي الأرض والوطن الذي يعيش فيه الانسان، يعمره ويبنيه ، ويدافع عنه اذا داهمه الخطر .

إنَّ للمدينة دلالات مختلفة وابعاد متباينة تجسدت بوضوح من خلال الرؤية الفنية الشعرية ، وسنوضح ذلك من خلال الفصول اللاحقة من هذه الدراسة .

(1) ينظر: جمهورية افلاطون ، ص 40 .

(2) ينظر : المقدمة ... : عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق :الاستاذ حجر عاصي ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت، 1986، ص37 .

الفصل الأول

ملاحم المدينة عند الشاعر الأندلسي

مدخل:

لعل ارتباط الإنسان بالأرض والوطن وإحساسه بأنه جزء من البيئة التي ولد فيها وعاش حياته في أفيائها ، كان له كبير الأثر في نزوع الشعراء إلى نظم اشعار المدن التي تمثل أوطانهم . فهذه " الأندلس " عندما نقف أمامها متأملين شواخصها وتاريخها العريق ، بوصفها سفرٌ من اهم اسفار التاريخ العربي الاسلامي ، لما هي عليه من البهاء والتألق والعطاء . جعلت حب الأندلس لمدينته حباً طبيعياً ، فهو يعيش في ظل أكنافها ينهل من علمها ، لذا تعددت إتجاهاته في التعبير عن حبه وارتباطه بالأندلس إذ ترجم هذا الحب بقصائد ومقطوعات شعرية أبرزت أثر المدينة في نفسه ، فهو يتغزل بها وبربوعها الخلابة يحن اليها ويأسره الشوق عندما يتغرب عنها ، ويتوجع عليها ويكيها ألماً إذا ما فقدها ، وهو في كل ذلك قد آرخ وكتب وعبر عن أرقى الاحساسات الانسانية الشاعرة ازاء المدينة والتي شكلت أحد ابرز ملاحم شخصيته .

وإذا كانت العديد من المدن قد اندثرت فإن بعضها قد خُلد بفعل الفن الشعري المرتبط باحساسات الانسان التي ستبقى نابضة ما بقيت الحياة . ومن الطبيعي ان تسهم ذكريات المدينة بكل ألوانها وعبقها، لمنح الشاعر القدرة على القول والبوح بما يحتبس في نفسه من المشاعر الصادقة ، فتظهر شاعرية الأندلسي ببراعة وتنهال معانيه بغزارة وهو يستذكر معالم مدينته الجميلة . بأجوائها العطرة ومائها العذب فهي صورة نابضة بالحياة كما نجدها في قول ابن زيدون (ت 463 هـ) وهو يتذكر مدينته "بلنسية" (*) مع ابي عبد الله بن عبد العزيز ،بقوله :

(*) بلنسية : كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير ، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة ، وهي برية بحرية ذات اشجار وانهار تعرف بمدينة التراب . ينظر: معجم البلدان : ياقوت الحموي ، دار صادر ،بيروت ، 1977 ، 490/1 ، وكذلك الروض المعطار في خبر الاقطار : الحميري ، تحقيق : د. احسان عباس ، مكتبة لبنان - بيروت ، 1975 ، ص 97 .

لَا فَهِيَ تَعْبُقُ فِي الشَّمِيمِ
سَيَّة لِرِّيَاهَا نَمِيمِ
لَفَتَى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمِ

مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو
أَفْضِيضٌ مِسْكَ أَمْ بَلَن
بَلَدٌ حَبِيبٌ أَفْقُهُ

.....

.....

ك من فؤادي بالصميم⁽¹⁾

الله يَعْلَمُ أَنْ حُبِّ

في النص الشعري المذكور نلمس شاعرية ابن زيدون في رسم لوحة شعرية فنية توحى بحب الشاعر لبلاده (الأندلس) من خلال حبه وتعلقه بمدينة " بلنسية " احدى ضواحي الاندلس الجميلة التي بسحرها واجوائها العبقرة سحرت الشاعر وفتنته .
إن شعراء الأندلس قد رسموا ملامحاً اساسية للمدينة الأندلسية في إطار من الحب والتقدير ، والاعجاب ،والاشتياق .

وهم في كل ذلك كانوا يرسمون احساساتهم لوحات فنية في إطار من صياغات لغوية رائعة أصيلة مؤثرة ، فجاء شعرهم دعوة الى تعميق العلاقة بين الانسان ومدينته، مراتب صباه وذكرى شبابه ، كما جاء شعرهم وهو يرسم ملامح مدنهم دعوة الى الاصاله والصدق الفني وهذا ما سنراه في الصفحات القادمة من هذا الفصل .

⁽¹⁾ديوان ابن زيدون ورسائله : تحقيق : علي عبد العظيم ، الرسالة ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ،

1957 ، ص 201- 202 .

المبحث الأول

مظاهر الحضارة والعمران

إنَّ الدخول في أبعاد ومكونات المدينة من الناحية العمرانية ، يحيل جزئيات الاشياء المادية فيها الى عناصر حية ، ويخلع عنها ثوب الجمود .وقد عبر الشاعر العربي بفنه عن جماليات الاشياء الموجودة في الطبيعة واضفى على جزئيات المدينة المختارة في القصيدة رؤية خاصة اتسمت بالابداع من خلال حسه وذوقه ، (وقد دفعته هذه الحسية الى ان يدقق النظر في وصف المرثيات حتى استطاع ان يترك لنا صورة قريبة من صور حياته التي كان يعيشها ، وتفكيره الذي كان يضطلع به)⁽¹⁾ . والشاعر الاندلسي نتيجة لطبيعة بلاده الخلابه ، وأحاساسه المرهف ، فإنه ينظر للمدينة الأندلسية نظرة فنية جمالية خاصة تتجسد فيها كل معاني الجمال والابداع ، فالمدينة في نظره ليست ذلك الهيكل الجامد الصلد ، فهو يراها وينظر اليها بعين الفنان فالخيال الخصب عنده هو الذي يوحى اليه بترجمة مظاهر مدينته الطبيعية في صورة أشعار خالدة وترانيم حية ، وفعل الخيال انما يظهر حقيقة في عملية الاختيار بين الاشياء التي يتجاوب معها ، والاحداث التي ينفعل لها والمظاهر التي يتأثر بها ⁽²⁾ .

والشاعر الاندلسي عندما يذكر مكونات وجزئيات المدينة الاساسية والمتمثلة بالابنية والقصور والمساجد والكنائس ، وكذلك الحمامات وغيرها من مظاهر العمران ، فإنه يجسد في ذلك الشواخص الحضارية لمعالم المدينة التي شغلت حيزاً عظيماً من نفسه ، مثلما شغلت حيزاً جغرافياً على ارض الواقع ولعل من أهم الشواخص الحضارية والعمرانية البارزة التي تناولها الشاعر الاندلسي هي :

أولاً : الأبنية والقصور : تعد الأبنية والقصور مظهراً من مظاهر الحضارة والعمران في المدن ، فقد كانت ملتقى لكبار العلماء والادباء والشعراء ، يلقون فيها الترحيب والاهتمام من الأمراء والخلفاء ، فكانت قصور ملوك الطوائق تُعد (مثنوى الفنون

⁽¹⁾ الطبيعة في الشعر الجاهلي : د. نوري حمودي القيسي ، ط1 ، دار الارشاد ، بيروت ، 1970 ، ص239 .

⁽²⁾ ينظر : الخيال الحركي في الأدب النقدي : عبد الفتاح الديدي ، ط1 ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1965 ، ص19 .

الجميلة، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى⁽¹⁾ . فراح شعراء الاندلس ينقلون لنا وصفاً لهذه القصور وما تمثله من فن اندلسي راقٍ وما تحويه من تماثيل ونقوش وزخارف وشموع وغيرها من المحتويات ، بقصائد تخلد تلك القصور ، وكان اهتمام الشعراء الأندلسيين بوصف قصور الامراء والخلفاء يعود الى (اهتمام ملوك الاندلس بالعمارة ، واحتفالهم بمظاهر الأبهة)⁽²⁾ ولاسيما في عصر ملوك الطوائف الذي (أزهر فيه فن البناء وبلغ العرفاء والفنانون العناية في التقنن في التعقيد الزخرفي والاسراف الجنوني في مزج المنظر الطبيعي بالبناء واحداث تاثر جمالي يحرك المشاعر ويهز النفس)⁽³⁾ . وهكذا عرف ملوك الطوائف بشغفهم وحبهم الكبيرين للعمارة والبناء وتنافسهم الشديد في بناء القصور ، ولم يكن التنافس في بناء القصور مقتصرأ على الملوك والأمراء والوزراء بل شمل بعض الاغنياء ، فقد (كانت الدار تكلف بعض الأغنياء مئة ألف دينار وأقل منها وفوقها)⁽⁴⁾ . وقد وصف لنا المقرئ القصر العظيم الذي بناه ملك طليطلة المأمون بن ذي النون بها ، وفكر باخراجه بصورة جديدة وأشكال هندسية لم تألفها الاندلس من قبل⁽⁵⁾ . بعد هذا التطور والازدهار في فن العمارة ، كان من الطبيعي ان يكثر الشعراء وصف هذه المظاهر الحضارية ، فهذا الشاعر ابن عمار (ت 477 هـ) يصف " قصر الدمشق "^(*) ويفضله على غيره من القصور ، ففيه يطيب الجنى ويفوح المشم فهو عنده مثل العنبر والمسك في رائحته وطيب نسماته ، يقول :

(1) الحياة العلمية في مدينة بلنسية : كريم عجيل حسين ، ط1 ، بيروت ، 1976 ، ص294 .

(2) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : د. سعد اسماعيل شلبي ، منشورات النهضة المصرية ، القاهرة ، 1976 ، ص459 .

(3) العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها : د. السيد عبد العزيز سالم ، مجلة عالم الفكر ، م (12)، ع (1)، ، 1981 ، ص99 .

(4) تأريخ الأدب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : د. احسان عباس ، دار الشروق ، عمان ، 1997، ص34 .

(5) ينظر : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : المقرئ التلمساني ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 ، 528/1 ، وينظر : في تاريخ وحضارة الإسلام في الاندلس : د. السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، 1985 ، ص196 .

(*) قصر الدمشق : هو احد القصور التي بناها بنو أمية في قرطبة ينظر : نفح الطيب : 470/1

كل قصرٍ بعد الدمشق يُذمُّ فيه طاب الجنى وفاح المشمُّ
منظرٌ رائعٌ وماءٌ نَمِيرٌ وترى عاطراً وقصرٌ أشمُّ
بثُّ فيه والليل والفجر عندي عنبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحمُّ⁽¹⁾

وقد يتخذ وصف القصور طابعاً فنياً ، يتحدث الشعراء عن محتويات تلك القصور كما هو حال قصر زهير الصقلبي^(*) فقد اندفع احد شعراء القرن الخامس الهجري الملقب بالجزار السرقسطي^(**) يرسم لنا صورة ماثلة للعيان عن بذخ القصر ، فهو قصر غدا إذا مكاناً للفرح والسرور يغشى العيون ويملاً الابصار بأجمل الألوان ، وقد شيدت على ارض الدمقس اعمدته وقد تناهى في حسنه وبهائه ، فقال في قصيدة مطلعها:

اليوم خلّي عاطلُ العلياء اليوم جرّ الدهر ذيل بهاء

.....

.....

وكفاك تشريفاً وفخراً ان تُرى ب "الجعفري " مؤهلاً لبناء
قصرٌ غدا فيه السرور مُعرساً يغشى العيون بساطع اللألاء
ونرى نمارق صورهِ مصفوفة موشيةً الأقطار والأرجاء
من أبيض في أحمر قد أشبها صلفت الغواة وخجلة العذراء
أرض دحاها حُسْنها من سندس متهلّ كالروضة الغناء

(1) محمد بن عمار الاندلسي ... دراسة ادبية تأريخية : د. صلاح خالص ، مطبعة الهدى ، بغداد ، 1957 ، ص 255 .

(*) هو ابو القاسم الصقلبي العامري حكم المرية بعد وفاة أخيه وصاحبها خيران سنة (419 هـ) وخرج الى غرناطة غازياً ، واشتبك مع قوات باديس وقتل سنة (429 هـ) وادركت المرية في عهده تقدماً علمياً كبيراً . تنظر أخباره في : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : ابن بسام ، تحقيق : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1979 ، م 2 ، ق 1 ، ص 656 ، وكذلك البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ابن عذارى ، تحقيق : أ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت- لبنان، (د.ت) ، 166/3

(**)الجزار السرقسطي : هو ابو بكر يحيى الجزار السرقسطي ،من شعراء القرن الخامس الهجري،وكان ابو بكر يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه ،وصدر له اشعار مدح بها الملوك من بني هود ووزرائهم . تنظر ترجمته في : المغرب في حلى المغرب:ابن سعيد،تحقيق :د. شوقي ضيف،دار المعارف ،مصر ، 1955 ، 444/2 ؛ وكذلك نفح الطيب : 525/2 .

بُنِيَتْ عَلَى أَرْضِ الدَّمَقْسِ سِتُورُهُ فِي خَالِصِ الْعَقِيَانِ خَيْرَ سَمَاءِ
لَوْلَا تَنَاهِي حُسْنِهِ لَمْ نَخْتَلِفْ إِنَّا حَلَلْنَا مِنْهُ فِي صَنْعَاءِ⁽¹⁾

ويطالعنا الشاعر ابن شهيد (ت 426 هـ) وهو يتحدث عن أبنية وقصور عبد العزيز
المؤتمن بشوق وحنين فوقف متأملاً هذه المعاهد ،فهاجت به الاشواق والذكريات لهذه
المعاهد والديار التي قضى ايام الصبا والشباب بدوحاتها يتقيء ظلالها ، فراح يصف "
قصر العامرية " بقوله :

هَاتِيكَ دَارُهُمْ فَقِفْ بِمَعَانِهَا	تَجِدِ الدُّمُوعَ تَجِدُ فِي هَمَلَانِهَا
عُجْنَا الرِّكَابَ بِهَا فَهَيَّجْ وَجَدْنَا	دِمْنٌ دَعَرَ السَّرْبَ مِنْ إِدْمَانِهَا
دَارَ عَهْدْتُ بِهَا الصَّبَا لِي دُوْحَةً	أَتَقِيُّ الْفَرَحَاتِ مِنْ أَفْنَانِهَا
وَكَأَنَّمَا فِيهِ الثُّرَيَّا جَوْهَرُ	نَثَرْتُ فَرَائِدَهُ يَدَا دِبْرَانِهَا
.....	
وَكَأَنَّمَا طُرُقُ الْمَجْرَةِ مِنْهَجٌ	لِلْعَامَرِيَّةِ ضَاءٌ مِنْ فِينَانِهَا
.....	
نَشَأُوا بِزَاهِرَةِ الْمُلُوكِ وَمَائِهَا	وَكَأَنَّهُمْ نَشَأُوا عَلَى غَسَّانِهَا ⁽²⁾

اما الشاعر ابن حمديس (ت 527 هـ) فقد أبدع في وصف أبنية العباديين وقصورهم
وقصور بني حماد في شمال افريقيا، إذ قال في قصيدة طويلة تغزل ومدح فيها ،
ومطلعها:

أَغْمَرَ الْهُوَى كَمْ ذَا نُقِطَعُنِي عَذْلًا قَتَلْتُ الْهُوَى عِلْمًا أَتَقْتَلَنِي جَهْلًا

⁽¹⁾ روضة المحاسن وعمدة المحاسن : ابو بكر يحيى بن محمد ، تحقيق : د. منجد مصطفى بهجت ،
المجمع العلمي العراقي ، 1988 ، ص 85- 86 .

⁽²⁾ ديوان ابن شهيد الأندلس : تحقيق : يعقوب زكي ، دار الكتاب العربي ، للطباعة والنشر ، القاهرة
(د.ت) ، ص 165- 167 . والعامرية قصرٌ للمنصور قريب من قرطبة ، "وزاهرة الملوك" قصر آخر
للمنصور أيضاً قريب من العاصمة نفسها .

ثم انتقل الشاعر الى وصف قصر المعتمد بن عباد ، فمزج (بين أخلاق وصفات الممدوح وبين معالم القصر ومفاتيحه فكأنهما شيء واحد ، فالقصر أقتبس من المعتمد رحابة الصدر واشراقه الوجه وعلو الصيت والسمعة والحلم والشرف الرفيع)⁽¹⁾ . فقال واصفاً

وياحبذا دار يدُ الله مَسَحَتْ عليها	بتحديد البقاء فما تبلى
مُقَدَّسَةً لو أَنَّ موسى كَلِمَهُ	مَشَى قُدماً في أرضها خَلَعَ النعلا ⁽²⁾
وما هي إلا خطَّةُ الملِكِ الذي	يحطُّ لديه كل ذي أملٍ رَحْلا
إذا فتحت أبوابُها خلت أنها	تقولُ بترحيبٍ لداخلها : أهلا
وقد نقلتُ صنائعُها من صفاته	إليها أفانيناً فأحسنَتِ النعلا
فمن صدره رحباً ومن وجهه سناً	ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلاً

ثم يتوجه ابن حمديس الى قبة القصر واصفاً إياها بالعروس المتبختره في زيها وجلابيبها المطرزة بأحلى النقوش والألوان ، فيالها من قبة قد أحكمت صناعاتها ونقشت رسومها بألوان زاهية جميلة ، قال :

وقد تَوَجَّ البهو البهي بَقْبَةٍ	فقل في عروسٍ في جلابيبها تُجلى
تجمعت الاضدادُ فيها مصانِعاً	ولم أرَ خَلْقاً قبلها جَمَعَ الشَملاً
وأغرِبُ ما أبصرتُ بعد مليكها	بها مُتَرَعِّعُ الشجاعةَ والبذلا ⁽³⁾

أمَّا قبة قصر ابن صمادح فتقدم الشاعر أبو عبد الله بن الحداد (ت 480 هـ) ووصفها بقصيدة جمعت بين وصف قبة القصر ، وبين وصف ابن صمادح نفسه فوصف الشاعر حسنه وجماله ونور مجالسه ، فكانت عظمة القصر وجماله نابغة من عظمة ابن صمادح وجماله ، قال :

(1) الشعر في ظل بني عباد : د. محمد مجيد السعيد ، ط1 ، مطبعة النعمان ، النجف ، 1972 ، ص129 .

(2) يشير الى قوله تعالى مخاطباً موسى (عليه السلام) " إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى " (سورة طه/ آية 12) .

(3) ديوان ابن حمديس : تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1960 ، ص378 – 379 .

والمجلسان النيران تآلفا
كالمقلتين أو اليدين تأيدا
هذا لهذا في البهاء قرين
والحسن يعضد أمره التحسين

ومنها :

وكان طرفي مسمعي وكأنه
متألي فكأنما سال المها
صوت وشكل خطوطه تلحين
فيه وذاب اللؤلؤ المكنون
وكان مبيض الخدود وضاءة
تغشى بمذهب لمعه فكأنما
أبدى لديه كنوزة قارون
فيه تضيء لنا الليالي الجون
هو ثالث القمرين في ضوءيهما

قصر تبين القصور قصورها
عنه وفضل الافضلين يبين⁽¹⁾

ومن قراءة هذه الابيات الشعرية ، يتضح ان " قصر ابن صمادح " قد حظي بعناية كبيرة من الشاعر ابن الحداد ، فإن الوقوف على ابيات القصيدة واستيعابها يعطينا (نظرة ممتدة تربط القصر وقبته بالسماء والأفلاك ، ونظرة هندسية ممتدة كذلك يحدثنا فيها الشاعر عن الخطوط والالوان والاشكال ومدى تناسقها ، ونظرة تاريخية تكشف عن معارف تاريخية يستغلها ابن الحداد في التدليل على عظمة القصر الصمادحي)⁽²⁾ .
وابدع الشاعر ابن وهبون (ت 483 هـ) في وصف قصر المعتمد "الزاهي" (*) الذي شع ضياءً وجلالاً بما يحويه من مناظر جميلة ، فقال :

(1) ديوان ابن الحداد الاندلسي : تحقيق : د. يوسف علي طويل ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1990 ، ص 271 - 274 .

(2) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر : ص 465 - 466 .

(*) الزاهي : قصر من قصور المعتمد بن عباد كان من "اجمل المواضع لديه وأبهاها وأحبها اليه ، وأشهرها لاطلاله على النهر . نفح الطيب : 275/4 .

محلّ ألبس الدنيا جمالاً وإن فُضِّحَ المقاصِرَ والخِلَلا (*)
بناه كما بنى الغلياء بانٍ يَشِيدُ مآثراً وَيُبِيدُ مالا

ويستغرق الشاعر في وصف كمال هذا القصر وعظمته وسعته، فينتقل بالسامع الى رؤية محاسن اركانه، وميزات باحاته وهو بهذا يجمع بين الثبات والقوة والمباهاة ، قال :

وللزاهي الكمال سناً وحسناً كما وسِعَ الجلالة والكمال
يحاطُ بشِكلِه عرضاً وطولاً ولكن لا يُحاطُ به جمالا
تواصلت المحاسن فيه شتى فوفدُ اللحظِ ينتقلُ انتقالا
وقورٌ مثلَ ركنِ الطودِ ثَبَّتْ ومختالٌ من الحُسْنِ اختيالا
تدافع من جَوَانِبِه ائتلافاً فكاد المستبينُ يقولُ مالا

ويستمر الشاعر في وصفه لتفاصيل ذلك القصر من الداخل ايضاً اذ لم يكتفِ بوصف شكله الخارجي وانما شرع في وصف البهو البهي الزاهر المضيء مثل سماء مليئة بالنجوم المضيئة ، فوصف ما نقش عليه من رسوم وزخارف ، فضلاً عن ذلك يصف هواءه العليل . هكذا كان وصف ابن وهبون لتفاصيل اركان القصر ، قال :

وللبهو البهيّ سماء نورٍ تَمَثَّلَ شكلها حَلَقاً دِخالاً
مزخرفةٌ كأنَّ الوشي القى عليها من طرائقه خيالاً
وما خِلْتُ الهَواءَ يكونُ رَوْضاً ولا سَقْفاً يكونُ كذاك الا

والشاعر بعد أن وصف شكل القصر الخارجي والداخلي ، عمد الى تصوير صورٍ جزئية من القصر ، فأخذ يصف تمثالاً من الفضة قد وضع على حافة بركة وكان هذا التمثال بهيئة فيل يفرغ الماء من فيه ، قال :

(*) المقاصِر : الدور الواسعة . ينظر : لسان العرب ، مادة (قصر) .

وكلّ مصوّر حيّ جمادّ تبينّ فيه زهواً أو دلالا
له عملٌ وليس له حراكٌ وافهامٌ وما أدّى مقالا
ويفرغُ فيه مثلُ النصلِ بدعٌ من الأفياءِ لايشكو ملالا⁽¹⁾

وفي هذا التمثال الذي كان في قصر المعتمد ، توقف ابو بكر بن الملح^(*) أمامه ليصفه ، وقد أوقدت شمعتان الى جانبيه والمعتمد يجلس على بحيرة والماء يسيل من فم ذلك التمثال ، فاستهوت هذه الصورة خيال الشاعر ابن الملح فعبر عن إعجابه بهذا التمثال وشدة إندفاع الماء وحركته ، بقوله :

كأنما النارُ عند الشمعتين سنا والماء من نُفْذِ الانبوابِ ينسكبُ
غمامةٌ تحت جناحِ الليلِ هامةٌ في جانبيها جناحُ البرقِ يضطرب

ويستمر الى ان يقول :

وأنبوبِ ماءٍ بينَ نارينِ ضُمناً هوئى لكؤوسِ الراح تحت الغياهب
كأنّ اندفاعَ الماءِ بالماءِ حيّةٌ يحرّكها بالليلِ لمعُ الحبابِ⁽²⁾

ولابن خفاجة (ت 533 هـ) مقطوعة صغيرة وصف فيها القصر الذي كان رمزاً لحط الرحال ، ذلك المرتبَع الذي وصفه وصفاً لم يخلُ من نبرة الحزن والألم فالقصرُ يبكي على

(1) شعر ابن وهبون المرسى : جمع وتحقيق ودراسة : سمر صبحي أحمد ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة الموصل ، 1989 ، ص 142 - 143 . ولابن وهبون قصيدة في مدح المعتمد بن عباد وقد وصف فيها قصره "المبارك" . ينظر : شعر ابن وهبون ، ص 111- 113 .

(*) هو ابو بكر محمد بن اسحاق اللخمي من اهل شلب يعرف بابن الملح وابن الملاح ، توفي في حدود سنة (500 هـ) . ينظر : الذخيرة : م 1 ، ق 2 ، ص 452 ؛ والمغرب : 1 / 383 ، وكذلك قلائد العقيان في محاسن الأعيان : الفتح بن خاقان ، تقديم : محمد العنابي ، منشورات المكتبة العتيقة، تونس ، 1966، ص 214 .

(2) الذخيرة : م 1 ، ق 2 ، ص 472 - 473 .

مجده وموت صاحبه، كما أنَّ حسنه وجماله قد تخرَّم وانمحي كما تخرَّم ملكه وتهشمت أركانه ، فقد بكاه ماءُ جدوله كما ناح عليه شدة طائره ، قال :

وَمُرْتَبِعٍ حَطَطْتُ الرَّحْلَ مِنْهُ	بَحِيثُ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الْقَرَّاحُ
تَخَرَّمَ حُسْنٌ مَنَظَرِهِ مَلِيكَ	تَخَرَّمَ مُلْكُهُ الْقَدْرُ الْمُتَّاحُ
فَجَرِيَهُ مَاءِ جُدُولِهِ بُكَاءٌ	عَلَيْهِ وَشَدُو طَائِرِهِ نِيَاخُ ⁽¹⁾

ويمضي الشعراء في رسم أروع الصور الفنية لتلك القصور التي كانت تنتشر بين الرياض والبساتين والغابات الجميلة كما تنتشر النجوم الساطعة في السماء الصافية وما تلك القصور إلا شواخص حضارية عبرت عن الترف والفن والعمران والاناقة ، والزخرفة ... كل ذلك قد فتن شعراء الاندلس وحفز في دواخلهم ملكة الابداع الشعري فوصفوا وصوِّروا وسجَّلوا أروع القصائد التي نقلت للأجيال الملامح الحضارية والعمرانية التي شيدت في تلك القطعة الاوربية الساحرة ، فهذا الشاعر ابن اللبانة (ت 507 هـ) توقف في بيتين وصف فيهما " قصر الشراحيب " (*) الذي تحيطه خضرة دائمة وجدول ماءٍ ، مخاطباً المعتد بافتخار وثقة بالنفس وهو يصف ذلك القصر مشبهاً اياه بجنة في حسنه وجماله واعتشاب النبات حوله فكأن النهر سيف بحمائلٍ خضرٍ وليس ماء يجري قرب قصره فحسب ، فيقول :

اما عَلمَ المعتد بالله إنني	بحَضْرَتِهِ في جَنَّةٍ شَقَّهَا نَهْرُ
وما هو نهر أعشَبَ النبات حَوْلَهُ	ولكنه سَيْفٌ حَمَائِلُهُ خُضْرُ ⁽²⁾

(1) ديوان ابن خفاجة : تحقيق الدكتور سيد غازي ، ط2، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1979، ص37

(*) قصر الشراحيب : هو احد قصور بني عباد ، متناه في البهاء والاشراق مُبَاهٍ لزوراء العراق . ينظر : نفح الطيب : 661/1 .

(2) شعر ابن اللبانة الداني : تحقيق : د. محمد مجيد السعيد ، دار الكتب ، الموصل ، 1976 ، ص46.

ويتوقف ابن زيدون أمام قصور المعتمد بن عباد ومنها قصر "المبارك" و "الثريا"، هذه القصور التي ازدادت في الإشراق ، فقال:

فُز بالنجاح وأحرز الإقبالا	وحُز المني وتَجَزَّ الأمالا
وليَهَنَكَ التَّأْيِيدُ والظَّفَرُ اللِّدَا	صدِّقَكَ -في السِّمَةِ العَلِيَّةِ- فالألا
يَأْيُهَا المَلِكُ الَّذِي لولاه لم	تَجِدِ العُقُولُ الناشداتُ كمالا
أما "الثُّرَيَّا" فالثُّرَيَّا نَسَبَةً	وإِفَادَةً وإِنَافَةً وجمالاً
قد شاقها الإغبابُ حتَّى أنها	لو تستطيعُ سرتُ إِلَيْكَ خيالاً

.....

وتمثلُ القصرَ "المُبَارَكُ" وجَنَّةً	قد وسطتُ فيها "الثُّرَيَّا" خالاً
وأدر هُنَاكَ من المَدَامِ أنمها	أرجاً زكاً وأشفها جريالاً
قصرٌ يُقَرُّ العَيْنَ منه مصنَعٌ	بِهَجِّ الجوانبِ لو مشى لاختالاً ⁽¹⁾

أما الشاعر ابو مُحمد المصري^(*) (ت496هـ) فيصف من خلال قطعة شعرية "قصر طليطلة" الذي شيده المأمون بن ذي النون ، فيقول :

قصرٌ يُقَصِّرُ عن مداهُ الفرقدُ	عَذِبْتُ مصادره وطابَ الموردُ
نَشَرَ الصِّباحُ عليه ثوبَ مكارمٍ	فعليه أُلُوِيَةُ السَّعَادَةِ تُعَقِّدُ
وكأنما المأمونُ في أرجائه	بَدَرَ تَمَامَ قابِلَتِهِ أُسْعِدُ
وكأنما الاقْداحُ في راحته	دُرٌّ جَمادٍ ذابَ فيه العسجدُ ⁽²⁾

(1) ديوان ابن زيدون : ص 520 – 521 .

(*) ابو محمد المصري : هو عبد الله بن خليفة الرطبي، يُعرف بالمصري لطول إقامته بمصر وقد اشتهر بالطب ،توفي سنة (496 هـ) . تتظر اخباره في : خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الاصفهاني، تحقيق : عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، 1964، 63/2 ؛ وكذلك المغرب : 128/1-129 .

(2) الذخيرة : م 1 ، ق 4 ، ص 355 ؛ وكذلك نفح الطيب : 529/1 .

وبهذا نجد ان شعراء هذه الفترة - عصر ملوك الطوائف - قد أجادوا في وصف القصور والمباني التي كانت تمثل (مظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف واناقة)⁽¹⁾ . ولم يقتصر وصف القصور والمباني الشامخة على الشعراء ، بل عمد بعض الامراء والخلفاء الى وصف قصورهم بأنفسهم ، فهذا الخليفة المقتدر بن هود^(*) (ت . 475 هـ) تقدم ليصف قصره المسمى بـ " قصر السرور " في سرقسطة ، فقال فيه :

قَصْرُ السَّرُورِ وَمَجْلِسُ الدَّهَبِ بِكَمَا بَلَغَتْ نَهَايَةَ الطَّرَبِ^(**)
لَوْ لَمْ يَحْزُرْ مَلَكِي خِلَافَكُمَا كَانَتْ لَدَيَّ كَفَايَةَ الْأَرَبِ⁽²⁾

فالخليفة المقتدر بن هود يفخر بقصوره ومجالسه ، ويصفهما بهذين البيتين وصفاً يعبر من خلاله عن حبه وارتباجه لهذه القصور .

أمّا الامير الشاعر المعتمد بن عباد (ت 488 هـ) فاتجه الى وصف محتويات أحد قصوره ، فوصف (فواره ماء) وكأنها سيفٌ قد سلَّ من غمده وذلك تجسيدا لقوة اندفاع الماء منها ، فمزج بين القوة والجمال قوة اندفاع الماء من هذه الفواره ، وجمال منظرها لكل من ينظر اليها والماء يتدفق منها ، فقال:

وَلَرَبِّمَا سَلَّتْ لَنَا مِنْ مَائِهَا سَيْفًا وَكَانَ عَنِ النَّوَظِرِ مُعَمِّدًا
طَبَعَتْهُ لُجِيًّا فَذَايَتْ صَفْحَةً مِنْهُ وَلَوْ جَمُدَتْ لَكَانَ مُهَنَّدًا⁽³⁾

(1) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي : محمد عبد الله عنان ، ط1 ، القاهرة ، 1960 ، ص 419 .

(*) المقتدر بن هود : هو احمد بن سليمان بن هود الجذامي عميد بني هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم ذو الغزوات المشهورة ، والوقائع المذكورة ، توفي سنة (475 هـ) . تنتظر ترجمته في:المغرب 436/2 ؛ وكذلك البيان المغرب : 224/3 .

(**) كان بسر قسطة في القصر المسمى بدار السرور ، مجلس الذهب وهو احد قصور المقتدر بن هود . ينظر : نفح الطيب : 534/1 .
(2) المغرب : 435/2 .

(3) ديوان المعتمد بن عباد : تحقيق د. رضا الحبيب السويسي ، الدار التونسية للنشر ، 1975 ، ص76 .

وقد عُرف المعتمد بن عباد باهتمامه بقصوره الكثيرة ، فقد روي أنّه (صنع قسيماً في القبة المعروفة بـ " سعد السعود " فوق المجلس المعروف بالزاهي وهو :

سعدُ السعودِ يتيهُ فوقَ الزاهي

ثم استجار الحاضرين فعجزوا ، فصنع ولده عبد الله الرشيد :

وكلاهُما في حُسنِهِ متناهي⁽¹⁾

وأضاف الرشيد :

قد جل في علياه عن الاشباه

ومن اغتدى وطناً لمثل محمدٍ

ودهمت عداه من الخطوب دواهي⁽²⁾

لازال يخلد فيها ما شاء

ومن تأملنا هذه اللوحة الشعرية ، يتضح ان القصر على وفق رؤية الشاعر الذي رسم تلك اللوحة إنما هو رمز يُخلد صاحبه لأن القصر جسد معاني العلو والقوة في آنٍ واحد . ويمضي الشعراء الأندلسيون في تعميق الإضاءات الشعرية ، لتلك القصور الشامخة والابنية العامرة بأروع واجمل الصور الفنية التي من خلالها خُلدت هذه القصور وملوكها عبر التاريخ ، فكانت هذه القصائد الشعرية صفحة مشرقة من صفحات العرب الأندلسيين عبرت عن اهتمامهم بالبناء والتشييد ، وكشفت عن البراعة العمرانية التي وصل إليها العرب في الأندلس وقدرتهم الابداعية في فن العمارة والزخرفة بأسلوبٍ راقٍ وصورٍ فريدةٍ ، ساعدهم في هذا جمال الطبيعة الأندلسية واعتدال جَوْها مما أضفى رومانسية عالية للحس الشعري .

ثانياً : المساجد والخانات :

تعد هذه المباني والمنشآت الدينية احد مظاهر الحضارة والعمران في المدينة الاسلامية عامة ، والاندلسية خاصة ، وقد كان لهذه المواقع اهمية علمية واجتماعية ، إذ مثل المسجد قلب المدينة المسلمة وهو على قائمة المنشآت التي أهتم بها عالم الاسلام . وكان للمسجد قدسية خاصة تميزه عن غيره من المباني والمنشآت الاخرى ، فإن منزلته الدينية تتضح من خلال قول الحق في قوله تعالى : " فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

⁽¹⁾ نفح الطيب : 612/3 .

⁽²⁾ ديوان المعتمد بن عباد : ص 119 .

اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ * رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * " (1) . فالمسجد أحب
البقاع الى الله تعالى لأنه يعد قلعة الايمان وحصن الفضيلة والمدرسة الأولى التي يتخرج
منها المسلم (2)

وقد كان للمسجد أهميته المتميزة في الحياة الدينية، والسياسية، والاجتماعية والعلمية،
فضلاً عن أهمية المسجد الدينية بوصفه مكاناً للعبادة كان يعد ايضاً مؤسسة تعليمية حيث
كانت تعقد فيه حلقات العلم والمعرفة ، فلذلك عمد الشعراء الى ذكر هذه المباني
ومحتوياتها في قصائدهم الشعرية ، وقد جسدت قصائد الشعراء التطور الحضاري
والعمراني الذي كانت عليه الاندلس ايام الطوائف .

فبمسجد قرطبة مثلاً ليس (في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناء واتقن صنعة
وكلما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد
في اعلاه وأسفله) (3) ، فكان لابد للمبدعين الأندلسيين أن يعمدوا الى روح الشعر ليعبروا
عن اعجابهم ودهشتهم للفن الانشائي المعماري للمساجد ، فهذا ابن حمديس وقف بإجلال
واكبار ليصف لنا بفنه الشعري " ثرية الجامع " حيث قال :

ومشبهة في الجوّ أنوارَ أختها	يضيء سناها كلَّ أسحم داج
كأن صلالاً وسطها في مكامنٍ	تحركُ فيها ألسناً بلجاج
وتحسبها تجلو على كلِّ ناظرٍ	كواكبَ نارٍ في بروج زجاج (4)

ويطالعنا الشاعر ابن الحجام (*) وهو يصف لنا " ثرية المسجد الجامع " وهي في
تألقها وبهائها ، فكأنها أفئدة المؤمنين التي تبتهل الى الله تعالى بالدعاء في جوف الليل
بخشوع ، فقال :

(1) سورة النور آية/ (36-37) .

(2) ينظر: المسجد في الاسلام (رسالته ، نظامه، نظام بنائه، احكامه) : خير الدين وانلي، ط1، منشورات
مطبعة الانشاء، دمشق، 1971، ص 3 .

(3) نفح الطيب : 545/1 .

(4) ديوان ابن حمديس : ص 77 .

تحكي الثريا الثريا في تألقها وقد لواها نسيمٌ وهي تتقدُّ
كأنَّها لذوي الإيمانِ أفدَّةٌ من التخشعِ جوفَ الليل ترتدُّ (1)

ووقف الشاعر عمر بن الشهيد(**) امام كنيسة محكمة البناء معبراً عن دهشته واعجابه
ببنائها وقد دعا الشاعر لها بالسقيا ، ولم تخلُ هذه الابيات من نبرة الحزن على امجادها
وأيامها الزائلة ، فقال :

وكنيسةٍ أخذ البلى منها كما أبصرتُ فيئاً في مُغارٍ يُنْهبُ
نَمَتْ علينا في السِّفارةِ نُفْحَةٌ من ماءٍ كَرُمٍ كان فيها يُسْكَبُ

.....
أُنَى تَأْتَتْ لابنِ آدمَ قدْرَةٌ حتى استقامَ وتمَّ ذاك المَنْصِبُ
ومن ايِّ أرضٍ كان رائع مَرْمَرٍ كسواعد الغزلانِ فيها يُجَلَبُ

.....
سقياً لها من دار غَيٍّ لم يزل فيها كريمٌ بالملاح مُعَذَّبُ (2)

اما الشاعر ابن خفاجة فوقف بعباراتٍ ملؤها الحنين والاشتياق الى وطنه ومربع صباه
، ومزج هذا الحنين والبكاء على الايام الماضية بذكر معاهد مدينته ومنشأتها الحضارية ،
مثل الكنيسة وبنائها واجوائها ، فالشاعر يحن الى وطنه والى كل مجالسه وابنيته ، فقال

(*) ابن الحجام : هو الاديب أبو تمام غالب بن رباح المعروف بالحجام ، شاعر قلعة بني رباح الذي
نوه بقدرها ورفع من رأس فخرها ، وقلعة رباح تقع غربي طليطلة . ينظر :الذخيرة:م2،ق3،ص821؛
وكذلك المغرب : 40/2 .
(1) الذخيرة :م2 ، ق3 ، ص 830 .

(**)عمر بن الشهيد : هو ابو حفص عمر بن الشهيد التحيبي ، وهذه صفة تُسبب إليها فغلبت عليه وهو
رئيس شاعر مشهور بالادب كثير الشعر ، متصوف في القول ، مقدم عند امراء بلده ، ويقول صاحب
الجدوة انه شاهده في حدود الاربعين واربعمئة بالمرية . ينظر: جدوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس
: الحميدي ، تحقيق : ابراهيم اليباري ، ط2 ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1989 ، 478/2 ؛
الذخيرة : م2 ، ق1 ، ص670

(2) المصدر نفسه : م2 ، ق1 ، ص 682- 683 .

بعد ان نفذ صبره وفاض دمع مقلتيه متشوقاً وذاكراً ما كان بمدينة من المنشآت العمرانية
مثل الكنائس :

وياَلْقَذَى طَرْفٍ مِنَ الدَّمْعِ مَلَانِ	فِيالْشَّجَا صَدْرٍ مِنَ الصَّبْرِ فَارِغِ
وَقَلْبٍ إِلَى أَفْقِ الْجَزِيرَةِ حَنَّانِ	وَنَفْسٍ إِلَى جَوِّ الْكَنِيسَةِ صَبَّةٍ
بُهُونٍ وَمِنْ إِخْوَانٍ صَدَقَ بِخَوَانٍ ⁽¹⁾	تَعَوَّضْتُ مِنْ وَاهٍ بِأَهٍ وَمِنْ هَوَى

وكان لشغف الشاعر ابن الحداد في حب نصرانية ذهب بقلبه كل مذهب إسمها نورية ،
وقد تغزل بها في شعره في أنْ أورد لمحات في ذكر الكنائس في شعره فضلاً عن
إشارات عديدة الى الشعائر والطقوس المسيحية نحو ذكره لالفاظ الصلبان والرهبان، قال :

مُرِيحَةً قَلْبِي الشَّاكِي	عَسَاكِ بِحَقِّ عِيسَاكِ
لِكَ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي	فَإِنَّ الْحُسْنَ قَدْ وَلَّا
وَرَهْبَانٍ وَنَسَاكِ	وَأُولَعْنِي بِصُلْبَانٍ
هَوَى فِيهِنَّ لَوْلَاكِ	وَلَمْ آتِ الْكَنَائِسَ عَنْ
وَلَا قَرَجَ لِبُلُوكَ ⁽²⁾	وَهَا أَنَا مِنْكِ فِي بُلُوى

ومن خلال هذه الأبيات الشعرية يتضح ان حب الشاعر ابن الحداد لفتاة مسيحية
وتغزله بها كان وراء ذكره للكنائس في شعره ، والشاعر قد مزج في هذه القطعة الشعرية
بين ذكره للكنائس بوصفها مظهراً من مظاهر الحضارة وبين ذكره للحبيبة والتغزل بها .
من خلال هذه اللوحات الفنية التي جسدت الجانب العمراني والحضاري للمدينة
الأندلسية ، صور الشعراء مدى التطور الذي كان عليه فن العمارة والبناء من خلال
تصويرهم لهذه المنشآت الدينية المتمثلة بالمساجد والكنائس ، فقد كان المسجد يعد (عند
الغالبية العظمى من الدارسين والباحثين في تاريخ العمارة الاسلامية وفنونها ، انه افضل

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 345 .

(2) ديوان ابن الحداد : ص 241 .

المنشآت على الاطلاق التي يتجلى فيها التعرف بصدق على نشأة فن الهندسة والتخطيط والبناء والزخرفة عند المسلمين⁽¹⁾ .

ثالثاً : الحمامات :

من المباني التي وصفها الشعر الاندلسي (الحمامات) ، التي تعد مظهراً من مظاهر الحضارة فكانت هذه الشواخص الحضارية قد استولت على مشاعر واحاسيس الشعراء ووجدت لها صدئ في قصائدهم ، فعبر شعراء الاندلس عن اعجابهم بهذا الصرح المعماري بقصائد ومقطعات شعرية ، جسدت ملامح هذه الابنية ومحتوياتها ، وبين ايدينا مقطوعة للشاعر المنفقل^(*) ، وفيها صورة جميلة للحمام ونلمح الاستعارة التي أحسن الشاعر استخدامها ، فقد جعل الحمام شخصاً يحكي ويعبر عن لوعة الفراق ، فكأن حرارة هذا الحمام شبيهة بحرارة العاشق يوم الفراق ، فالشاعر صور لنا من خلال هذه القطعة الشعرية الحمام وحرارته كالعاشق الذي يفارق من يحب ، قال :

أُنْظِرْ إِلَى حَمَامِنَا قَدْ حَكَى	حَالَيْنَ مِنْ حَالِ الْإِحْبَاءِ
حَرَارَةَ الْأَنْفَاسِ يَوْمَ النَّوَى	وَحَرَّةَ الْأَنْفَاسِ فِي الْمَاءِ
فَمَاؤُهُ مِنْ أَدْمُعِي سَائِلٌ	وَنَارُهُ مِنْ حَرِّ أَحْشَائِي ⁽²⁾

وقد جسد العقل الأندلسي الحالة العمرانية للمدينة من خلال تصويره لهذه المدن وما تحويه من مظاهر العمارة ومنشآتها ، فهذا ابن مغلّس^(*) (ت427هـ) انطلق في تصويره

(1) المسجد في الاسلام : د. محمد توفيق بليغ ، مجلة عالم الفكر ، م(10) ، ع(2) ، 1979 ، ص19.

(*) المنفقل : هو أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة المعروف بالمنفقل ، شاعر اديب محسن ، من اعلام شعراء البيرة في مدة ملوك الطوائف . تنتظر اخباره في : جذوة المقتبس : 620/2 ؛ وكذلك المغرب : 99/2 ، والذخيرة : م2 ، ق1 ، ص 754 ؛ وكذلك رايات المبرزين وغايات المميزين : ابن سعيد ، تحقيق : د. النعمان عبد المتعال القاضي ، الاهرام ، القاهرة ، 1973 ، ص89 .

(2) الذخيرة : م1 ، ق1 ، ص302 .

(*) ابن المغلس : هو ابو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس القيسي الاندلسي البلبسي كان من اهل العلم باللغة والعربية مشاراً اليه فيهما ، رحل من الاندلس وسكن بمصر واستوطنها ، وقرأ الادب على ابي العلاء ، صاعد اللغوي ، وتوفي سنة (427 هـ) وقيل : سنة (429 هـ) بمصر . ينظر

للحمامات من منطلق اجتماعي ، فهو يرى فيها ملتقى لمختلف الأنام ، حيث يلتقي فيه
الوعد والرئيس ، والعدو والصديق ، قال :

ومنزل أقوام إذا ما اغتدوا به تشابه فيه وغدّه ورئيسه
يخالط فيه المرء غير خليطه ويضحى عدو المرء وهو جليسه

ثم يسترسل الشاعر فيرى في الحمام انه مفرج الكروب ، ومؤنس القلوب وجامع
الأقمار والشموس :

يفرّج كربى إن تزايد كربه ويؤنس قلبي ان يُعدّ أنيسه
إذا ما أعرت الحوض ماءً تكاثرت على مائه أقماره وشموسه⁽¹⁾

ويته ابن شهيد الى وصف حمام داره ، وقد ازداد إشراقاً واتساعاً لارتداد ابي عامر
بن المظفر له ، وقد رحب ابن شهيد بزيارة أبي عامر هذه وشكر الدهر لحسن ما صنع ،
فقد أفرحه وأطرب نفسه حضور ابي عامر وزيارته له وارتياحه لحمام داره ، ومثلما رحب
ابن شهيد بهذه الزيارة كان الحمام مرحباً ايضاً فقدحت نيرانه ، وتدفق مائه ، فعبر ابن
شهيد عن سروره وارتياحه بقوله :

شكرت للدهر حُسن ما صنعا طائر مجد بجنتي وقعا
نُفرت لما أيقنتُ جيئته وطارت النفس عندها قطعاً
ياحُسن حَمَامِنا وقد غرَبَتْ شمس الضحى فيه بعدما متعا
أيقن أنَّ الهلالَ رَكْبُهُ فضاء للحاضرين واتسعا
فأنعم أبا عامرٍ بنعمته وأعجب لأمرين فيه قد جُمعا

: نفح الطيب : 132/2 ، وكذلك الصلة : ابن بشكوال ، تحقيق : ابراهيم الابياري ، ط1 ، دار الكتاب
المصري - القاهرة ، 1989 ، 539/2 ، وكذلك وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان : ابن خلكان ،
تحقيق : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1968 ، 193/3-194 ؛ وكذلك الجامع : محمد عبد
القادر بامطرف ، دار الرشيد ، وزارة الثقافة والاعلام ، 1977 ، 700/2 .
(1) نفح الطيب : 133/2 .

نيرائه من زنادِكُم قدحت

وماؤه من بنانكم نبعاً⁽¹⁾

اما ابن خفاجة فطالعنا من خلال بيتين رسم فيهما صورة جميلة لمعطيات الحمّام بوصفه مكاناً للتنظيف والطهارة ، ولكنه في الوقت نفسه مكانٌ يرتاده الابرار والفجار على السواء ، ولعل اجمل ما في البيت الثاني وجود الطباق الذي نلمسه في كلمتي الجنة والنار ، وقصّد الشاعر بالجنة هنا هي الحالة النفسية التي تتحقق من خلال الطهارة والتنظيف ، ولا يقصد بالنار هنا الا الجو الدافئ الذي يتحقق في داخل الحمّام ، فيقول :

أهلاً ببيت النَّارِ مِنْ مَنْزِلِ

شَيْدٍ لِأَبْرَارٍ وَفُجَّارٍ

نَقْصِدُهُ مُلْتَمِسِي لَذَّةٍ

فَنَدْخُلُ الْجَنَّةَ فِي النَّارِ⁽²⁾

وقد اعتمد الأندلسيون في تأسيس الحمّامات رؤية هندسية معمارية فيها الملامح العربية الاسلامية الاصلية ، فكانت الحمّامات الأندلسية (تجمل بتغطية أسافل جدرانها بالخزف وزخرفة حيطانها بالرسوم ، وإدخال صنادير معدنية ونافورات واحياناً كانت تستخدم بعض التماثيل الرومانية في تجميل هذه الحمامات)⁽³⁾ .

ومن هذه الحمّامات ، حمّام الشطارة بإشبيلية الذي كان يضم صورةً بديعة الشكل وقد تأثر بها بعض الشعراء وبادروا الى وصفها ، فهذا أحد شعراء الاندلس قال فيها :

وَدُمِيّةٌ مَرْمَرٌ تُزْهِى بِجَبَدٍ

تَنْتَاهِي فِي التَّوَرْدِ وَالْبَيَاضِ

لَهَا وَلَدٌ وَلَمْ تَعْرِفْ حَلِيلًا

وَلَا أَلَمْتُ بِأَوْجَاعِ الْمَخَاضِ

وَنَعْلَمُ أَنَّهَا حَجَرٌ وَلَكِنْ

نُتَيِّمُنَا بِالْحَاطِظِ مَرَاضٍ⁽⁴⁾

(1) ديوان ابن شهيد : ص126 .

(2) ديوان ابن خفاجة : ص373 .

(3) قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري : د. محمد عبد الوهاب خلاف

، الدار التونسية للنشر ، 1984 ، 31 .

(4) نفح الطيب : 533/1 .

من هذه الابيات يتضح ان اهتمام الشعراء لم يكن وقفاً على وصف الحمامات فقط بل شمل ايضاً ما تحويه هذه الحمامات من التماثيل والصور الجميلة. وعندما يرتاد الشعراء هذه الحمامات يتخذون منها مكاناً للمطارحات الشعرية ، فقد دخل الشاعر الاعمى التطيلي (ت 525 هـ) والشاعر ابو بكر بن بقي^(*) (ت 540 هـ) يوماً الى حمامٍ ، فتقدم ابو جعفر واصفاً الحمام وحسنه وبهاءه وما يحويه من البرودة والحرارة فكأنه القلب الذي يفرح ويحزن ، فأبدع واحسن في استخدام التشبيه حيث جعل الحمام وكأنه قلب الانسان الممتلئ بالعواطف الجياشة المنقلبة بين الافراح والاحزان ، فقال :

ياحسَنَ حَمَامِنَا وبَهجَتُهُ	مرأى من السَّحرِ كُلُّهُ حَسَنُ
ماءٌ ونازٌ حَمَاهُمَا كَتَفُ	كالقلبِ فيه السرورُ والحَزَنُ ⁽¹⁾

ثم توجه الشاعر في قطعةٍ أخرى واصفاً هذا الحمام من الداخل فوصف أرضه المصنوعة من الرخام الأبيض البديع كأنها الثلج عندما يذوب ، فيقول :

ليس على لهونا مزيد	ولا لحمامنا ضريبُ
ماءٌ وفيه لهيبُ نارٍ	كالشمس في ديمةٍ تصوب
وأبيضٌ من تحته رخامٌ	كالثلج حين ابتدا يذوب ⁽²⁾

وتقدم الشاعر ابو بكر واصفاً الحمام نفسه ، فتحدث عن حرارته ودفئه وعلى الرغم من كونه حماماً نظيفاً يتسم بالحرارة والدفء فهو يحوي ايضاً على الماء البارد من غير ضرر ، وفيه يشعر المرء بالارتياح فينعم بحرارة الماء وبرودته كأنه الغصن الذي ينعم ما بين الشمس والقمر ، قال :

(*) ابو بكر بن بقي : هو ابو بكر يحيى بن محمد بن الرحمن بن بقي ، الشاعر الوشاح سرقسطي النسب ، اشبيلي الادب ، توفي بوادي آش سنة (540 هـ) او (545 هـ) . تنظر ترجمته في : الذخيره : م2 ، ق2 ، ص615 ، وكذلك المغرب : 19/2 ؛ وكذلك المطرب من اشعار أهل المغرب: ابن دحية ، تحقيق : مصطفى عوض الكريم ، ط1 ، مصر ، الخرطوم ، 1957 ، ص181 ؛ وكذلك رايات المبرزين : ص79 .

(1) ديوان الاعمى التطيلي : تحقيق : د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1963 ، ص245 .

(2) المصدر نفسه : ص246 .

حَمَامًا فِيهِ فَصْلُ الْقَيْظِ مُحْتَدِمٌ وفيه للبرد صرٌّ غر ذي ضرر
ضِدَّانَ يَنْعَمُ جِسْمُ الْمَرْءِ بَيْنَهُمَا كالغصن ينعمُ بين الشمس والقمر⁽¹⁾

وقد جسد ابن رشيقي القيرواني (ت 463 هـ) خلال بيتين حالة الحزن التي تنتاب الإنسان عندما يفارق من يحب ، وصور لنا بصورة جميلة وهو يعبر عن حزنه وألمه ساعة الفراق حيث يحاول الشاعر الهروب من الناس واللجوء الى الحمام الذي وجد فيه مكاناً آمناً للبكاء وذرف الدموع بأطمئنان في تلك اللحظات القاسية لحظات الفراق والوداع ، فقال :

ولم أدخل الحمام ساعة بينهم لأجلِ نعيمٍ قد رضيت يبوسي
ولكن لتجري عبرتي مطمئنةً فأبكي ولا يدري بذاك جليسي⁽²⁾

وقد وجد ابن زيدون في "حمام" قصر المعتضد بن عباد بأنه المكان الذي يفيض بعبير المسك والعطور الطيبة ، وأجدُ الشاعر يفيضُ في الاعراب عن اعجابه بحمام القصر، وهو في حقيقته إنما يعبر عن حبه واعجابه بشخص المعتضد نفسه وحفاوته، فيقول :

رِضَاكَ لَنَا - قَبْلَ الطَّهْوَر - مُطَهَّرٌ وَقُرْبُكَ - مِنْ دُونِ الْبَحْوَر - مُعَطَّرٌ
فَلَوْ عَرَّ حَمَامٌ لَأَدْفَأْنَا ذُرًى يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدى الْمُتَفَجِّرِ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طَيْبٌ لَأَغْنَتْ حَقَاوِةٌ تُمْسِكُ مِنْهَا حَالِنَا وَتُعْبِرُ
فَلَا فَارِقَ الدُّنْيَا سِنَاءً مُقَدَّسٌ بَعِيشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءً مُجَمَّرُ
وَدُمْتُ مُلَقًى - كُلَّ يَوْمٍ - صَبِيحَةً يُعَادِيكَ فِيهَا - بِالْفُتُوحِ - مَبَشَّرُ⁽³⁾

(1) ديوان ابن بقي الاندلسي : تحقيق : د. محمد مجيد السعيد ، ط 1 ، دار كوثر ، دمشق ، 1997 ، ص 58 ، وكذلك ديوان الاعمى التطيلي : ص 246 ، وفي نفح الطيب : 3 / 347 ان البيت الثاني للاعمى التطيلي أجازة .

(2) ديوان ابن رشيقي القيرواني : تحقيق الدكتور عبد الرحمن باغي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت) ، ص 93 ، وللشاعر قطعة اخرى في وصف الحمام ص 80-81 .

(3) ديوان ابن زيدون ورسائله : ص 223-224 .

اما الشاعر الحكيم أمية بن عبد العزيز الداني، (ت 520 هـ) فمن خلال قطعةٍ شعرية تحدث فيها عن الحمّام ، فقد وظف الشاعر الدلالات التاريخية التي تجسدت في لفظة (سام) و(حام) ، ومثل هذا الاستعمال يدل على قدرة الشاعر في توظيف هذه الرموز التاريخية في شعره ، اذ يقول :

حمّامنا هذا أشد ضرورة	ممن يحلّ به الى حمّام
تبيّض ألوان الورى في غيره	ويعيرها هذا ثياب سُخام
قد كنتُ من (سام) فحين دخلته	لشقاء جدّي ردني من (حام) ⁽¹⁾

اما الشاعر ابن حمديس فوجد في الحمّام مكاناً وخيم الهواء فاسده نتيجة لازدحام الناس فيه، وضيق مساحته فلا يستطيع الواقفون فيه الجلوس ، ولا الجالسون الوقوف ، فيالشدّة ضيق هذا الحمّام إذن الذي نفر منه ابن حمديس وتذكر يوم الحساب ومشهد النار سوء ما وجده في هذا الحمّام ، فوصف قطرات مائه وكأنها السهام المنهالة على جسده، فابدع وأحسن في تصويره هذا الحمّام الضيق ، فقال :

وحمّام سوءٍ وخيم الهواء	قليل المياه كثير الزّحام
فما للقيام قعودٌ به	ولا للعود به من قيام
حنّاتهُ قانصاتٌ لنفسِي	وقطراتُهُ صائباتُ السهام
ذكَرْتُ به النَّارَ حتّى لقد	تخيلْتُ إيقادها في عظامي
فياربّ عفوك عن مُذنبٍ	يخافُ لقاءك بَعْدَ الحِمام ⁽²⁾

وقد وجد عالم "المرية" القاضي ابو الحسن مختار الرعيني ^(*) (ت 435 هـ) في الحمّام انه المكان الذي يجتمع فيه جميع الناس ويتساوى فيه العالم والجاهل ، وهذا الامر مما

⁽¹⁾ ديوان الحكيم ، ابي الصلت أمية بن عبد العزيز : تحقيق : محمد المرزوقي ، دار الكتب الشرقية، تونس ، 1974 ، ص 144 .

⁽²⁾ ديوان ابن حمديس : ص 559 – 560 .

^(*) هو ابو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن سهر الرّعيني ، قاضي المرية وعالمها ورئيسها في الأمور الشرعية وحاكمها ، وكان جامعاً لفنون العلم والمعرفة فأحسن السيرة ، توفي سنة (435 هـ)، وقد ذكره المقرئ في نفح الطيب : 3 / 381 وقال عنه : انه كان فيه حلاوة ولوذية ووقار وسكون . ينظر : المغرب : 207/2

كان يثير نغمته وغضبه ، وقد دخل يوماً الى الحَمَّام فجلس بقربه عاميُّ أساء الادب عليه ، فقال ابو الحسن لاعناً الحَمَّام :

الا لُعَنَ الحَمَّام داراً فإنه
سَوَاءُ به ذو الجهل والعلم في القدر
تضع به الآداب حتى كأنها
مصاييح لم تنفق على طلعة الفجر⁽¹⁾

وقد كان الحَمَّام في الاندلس يتمتع بعدة وظائف ، فهو الى جانب وظيفته الصحية كان يعد احياناً المكان الذي يتخلص فيه من الاعداء او يُنتَقَم منهم ، وذلك يتضح عندما دعا المعتضد حاكم أشبيلية ثلاثة من رؤساء البربر الى حفل للتخلص منهم ، وقد شهد حَمَّام في أشبيلية هذا الحادث عندما أدخلوا الى الحمام وسدت الابواب والنوافذ وأمر المعتضد بأن ترفع درجة الحرارة حتى اختنقوا جميعاً⁽²⁾ .

وكان حَمَّام القصر الخلفي بمدينة "قرطبة" شاهداً على حادثة اخرى حيث قتل الخدم الصقالبة الامير علي بن حمود في هذا الحمام سنة (408 هـ)⁽³⁾ وبهذا يتضح الدور الذي أضطلع به الحَمَّام في المدينة الأندلسية ، فهو يعد مكاناً للنظافة والطهارة من جهة ، وفخاً للنيل من الاعداء وتدبير المؤامرات من جهةٍ اخرى ،

(1) المصدر نفسه : 208 /2 .

(2) ينظر : البيان المغرب : 270/3 – 271 .

(3) ينظر: المصدر نفسه : 122 /3 ؛ وكذلك نفح الطيب : 483/1 .

فضلاً عن كونه احد الشواخص الحضارية في المدينة الاندلسية ، فالمدينة في هذا الجانب ليست كياناً مادياً مجرداً او صوراً جامدة محددة ، إنما هي عنصر فني مليء بالأفكار والقيم ذات السمات الفنية والابعاد النفسية .

وقد تجسدت خبرة الشاعر الأندلسي ومقدرته الابداعية في الاختيار الدقيق لهذه المواقع الحضارية وتصويرها بأناقة وذوق وتحويلها من طريق رؤيته الفنية الى رموز جمالية وقيم ابداعية .

وبهذا أصبحت دلالة "المدينة " لها ابعاد إيحائية متعددة لها وقعها في نفس المتلقي . وبعد هذه الجولة بين المعالم الحضرية والمنشآت المعمارية للمدينة الاندلسية والمتمثلة بالأبنية والقصور الشامخة ، ودور العبادة مثل المساجد والكنائس والمنشآت الحضارية الاخرى مثل الحمامات ، يتضح أنَّ العمارة (من اهم المعالم الأثرية والوثائق المادية في تراث المجتمعات المتحضرة ، فهي توضح بجلاء مدى ما وصل اليه الفن والزخرفة.... وفن التخطيط والبناء من تقدم وارتقاء ، وتُظهر الوجه الآخر المشرق من وجوه الحياة ، ذلك الوجه المادي المترف الذي تمثله سكنى المدن وحياة القصور)⁽¹⁾ .

وهكذا ندرك ان الشاعر الأندلسي استطاع بما امتاز به من ذوق واحساس راقٍ ان يجسد من خلال شعره معالم واضحة الملامح " للمدينة الأندلسية " فرسم صوراً انيقة لكل ما امتازت به هذه المدينة من المظاهر الحضرية المتمثلة بقصور الامراء والخلفاء وأبنية المساجد والكنائس، فكان ذكر الشعراء لهذه المساجد والكنائس تجسيداً لحبهم لمدن بلادهم الأندلس التي كانت تعد هوية الشاعر الأندلسي وكيانه الذي لايمكن ان يبدله ببلدٍ آخر .

(1) المسجد في الاسلام : ص 17 .

المبحث الثاني الشاعر الأندلسي والبعد الاجتماعي لمعطيات المدينة

أولاً : الرؤية الشعرية الايجابية لمعطيات المدينة من حيث :
أ. الإقامة والمعيشة :

إنَّ طبيعة الأندلس الجميلة وما حباها الله من رقة وجمال وما منحها من خيرات ونعم ، كان دافع الشعراء للتغني بطيب الإقامة والعيش فيها ، فهذه مدينة "الزهراء" * " يكبر حبها عند الشاعر ابن زيدون ، ويحبذ الإقامة فيها والعيش بين جنباتها ، لمنظرها الجميل ونسيمها العليل ، واصفاً إياها بجنة عدنٍ من خلال قطعة شعرية بدت واضحة فيها براعة الشاعر في رسم لوحة شعرية فنية توحى برضى الشاعر في الإقامة والعيش في هذه المدينة ، لما فيها من راحة نفسية فجدد ذلك الرضى والارتياح، بقوله :

وياحبّذا الزهراء بهجةً منظرٍ
ورقةً أنفاسٍ وصحةً جوهرٍ
ونأهيك من مبدأ جمالٍ ومخضرٍ

وجنةً عدنٍ تطيبك وكوثرٍ
بمرايٍ يزيد العُمر طيباً وينساً⁽¹⁾

أمّا ابن خفاجة فانطلق معبراً عن العيش الرغيد وطيب الإقامة في الأندلس لما تتمتع به من الخيرات والمياه الوفيرة والأشجار الكثيرة المثمرة ، وجميع هذه الميزات كانت خير دليل ليعلن الشاعر عن حبه وتمسكه بالأندلس ، وبهذا تبدو له الأندلس كأنها جنة الخلد التي وعد الله (جل جلاله) بها عباده المخلصين يوم القيامة ، فخاطب الشاعر اهل الأندلس بقوله :

(*) الزهراء : مدينة في غربي قرطبة بناها الناصر عبد الرحمن بن محمد ، وكانت قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها . ينظر : معجم البلدان : 3 / 161 ؛ وكذلك الروض المعطار : ص 295
(1) ديوان ابن زيدون ورسائله : ص 135 .

يا أهل أندلسٍ لله دُرُكُم
ماجنة الخلدِ الا في دياركُم
ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
وهذه كنْتُ لو خيرْتُ أختارُ
لانتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً
فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ⁽¹⁾

وكانت بلاد الاندلس أرضاً مباركة ، يطيب للإنسان الإقامة فيها والتمتع بخيراتها ،
وخير من عبر عن أصالة الاندلس ، الفقيه الشاعر ابن حزم (ت 456 هـ) حيث استقرت
بنفسه معاني الاصالة والوفاء للاندلس فوجد في أحجارها دراً وسعدانها ورداً ، قال :

لقد بُوركْتُ أرضٌ بها أنت قاطنٌ
فأحجارُها دُرٌّ وسعدانُها ورْدٌ
وبورك من فيها وحلَّ بها السعدُ
وأموأها شهدٌ وتربتها نُدُّ⁽²⁾

اما الفقيه الزاهد ابو اسحاق الألبيري (ت 460 هـ) فتذكر " حصن العقاب " *
وأقامته فيه ، فوصف فيض مشاعر الحزن والاسى والعتاب بأسلوب حوارى قصصي
جميل ، والشاعر هنا وقف محاوراً نفسه مُعتاباً إياها يسألها ايام الصبا والشباب ذلك
الشباب الذي جرد الشيب ثوبه وأزال أيامه، فكان عتابُ الشاعر لنفسه أن أيقظها من نومها
ولكنها على الرغم من ذلك بقيت مضطربة حائرة لما ألم بها . وهنا نلاحظ أن أبياته لم
تخلُ من نزعة الزهد والخوف في الوقت نفسه قال متذكراً ايام اقامته في هذا الحصن :

ألفْتُ العُقَابَ حِذَارَ العِقَابِ
وعِفتِ المواردَ خَوْفَ الدَّنَابِ

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 364 .

(2) شعر ابن حزم الاندلسي : تحقيق : عبد العزيز ابراهيم ، مجلة المورد ، م(26)، ع (4)، 1998 ،
ص 66.

(*) حصن العقاب: بضم العين ، وهو حصن قريب من مدينة غرناطة ، وذكره ابن سعيد في المغرب:
132/2 ، إن الألبيري من " حصن العقاب " وهو غير موضع " العقاب " حيث جرت فيه موقعة حاسمة
بين جيوش الموحدين وتجمع الدول الاسبانية سنة (609 هـ) . ينظر :صفة جزيرة الاندلس: الحميري ،
تحقيق : إ. ليفي بروفنسال ، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة، 1937، ص 137 ؛ وكذلك
المغرب : 133-132/2 .

وأبغضت نفسي لعصيانها
وقلت لها بآن عنك الصبا
وما بعد ذلك إلا البلى
فأيقظها العتب من نومها

وعاتبها بأشد العتاب
وجردك الشيب ثوب الشباب
وسكنى القبور وهول الحساب
ولكنها جمّة الإضطراب⁽¹⁾

وبهذه الشواهد الشعرية أصبحت صورة الإقامة في المدينة الاندلسية وطيب العيش فيها واضحة كذلك نجد أنّ الشاعر الاندلسي قد عبر عن حبه وتعلقه وطيب إقامته في وطنه الكبير "الأندلس" من خلال تصويره لراحته وطيب معيشته في المدن الاندلسية ، فراح يعبر عن حالة الرضى والقناعة بمدينة خير تعبير .

ب. جمال المدينة ونظائرها :

لقد عرفت جزيرة الاندلس بحسن هوائها ، واعتدال مناخها ، واشتمالها على كثير من مقومات الجمال من طبيعة ساحرة جذابة ، وظلال وارفة ، فالأندلس (شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها ونكائها ، ... صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها)⁽²⁾ .

تحدث الشاعر ابن شرف القيرواني (ت 460 هـ) عن جمال مدينة "برجة" (*) التي تقع على وادٍ مبهج يعرف بوادي عذراء ، تحيط بها الأشجار والأزهار وتسمى "برجة بهجة" فوصف جمال هذه المدينة ، ورياضها وازهارها التي توشّت وأحاطتها كمعطفٍ لُف حولها ، تقفن كل من نظر إليها فكأنها الجنة لجمال رياضها وموقعها ، فيقول :

رياضُ تعشقها سندسُ
مدامعُها فوق خدي رُبى

توشّت معاطفُها بالزهر
لها نظرة فتنت مَنْ نَظَرَ

⁽¹⁾ ديوان ابي اسحاق الالبيري : تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، ط1 ، دار الفكر المعاصر ، بيروت - لبنان ، 1991 ، ص 72 - 73 .

⁽²⁾ نفح الطيب : 126/1 .

^(*) برجة : مدينة بالاندلس من اعمال البيرة : ينظر : معجم البلدان : 374/1 .

وكلُّ مكانٍ بها جَنَّةٌ

وكلُّ طريقٍ إليها سَفَرٌ⁽¹⁾

ثم عاد الشاعر في قطعة شعرية اخرى واصفاً جمال هذه المدينة ودعا الناس لزيارتها والتمتع بنعيمها وفضلاً عن جمال مدينة "برجة" فقد وجد فيها الشاعر الأمن والاستقرار . وقد أحسن الشاعر في هذه القطعة الشعرية استخدام التشبيه إذ وصف المدينة كأنها القلعة المحصنة الآمنة ، فعبّر بذلك عن جمال المدينة وقوتها، حيث قال :

حُطَّ الرِّحالَ ببرجِه

وأرْتَدَّ لِنَفْسِكَ بَهْجَه

في قَلْعَةٍ كسلاحٍ

ودَوَّخَةٍ مثْلُ لُجَه

فحصنها لك أَمْنٌ

وروضُها لك فُرْجَه

كلُّ البلادِ سواها

كعُمْرَةٍ وهي حَجَّه⁽²⁾

وبرزت واضحة في شعر الاندلس نزعة المباهاة والافتخار بجمال المدينة الاندلسية هذه المدينة التي جمعت بين سحر جمالها وقوة أصالتها وعظمة عُمرانها ، وهنا نجد الشاعر ابن وكيل^(*) وهو يرى في مدينة " طليطلة " ^(**)بأنها بلد النعيم والراحة والجمال لانها مدينة قد حباها الله - سبحانه وتعالى - بطبيعة رائعة وغصون زاهرة ، فكانت هذه المدينة مدار حديث المتحدثين وهي بلد زينه الله بطبيعة ساحرة موشحاً وسطه نهر ، واغصانه كالنجوم الساطعة ، وذلك في قوله :

⁽¹⁾ نفح الطيب : 151/1 ؛ وكذلك معجم الادباء : نياقوت الحموي ، دار المستشرق ، بيروت - لبنان ، (د.ت) ، 39/ 19 .

⁽²⁾ نفح الطيب : 151/1 .

^(*) ابن وكيل : هو ابو بكر عيسى بن وكيل ، احد اعلام الزمان وافراد الاوان ، ذو الذهن الصقيل . ينظر : المغرب : 235/2 - 236 .

^(**) طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالاندلس ، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهي على شاطئ نهر تاجة . ينظر : مرصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع : صفى الدين البغدادي ، تعليق : علي محمد البجاوي ، ط1 ، دار احياء الكتب العربية ، 1954 ، 892/2 ؛ وكذلك معجم البلدان : 39/4 ؛ الروض المعطار : ص393

بلدٌ عليه نُصْرَةٌ ونعيمٌ
نهرُ المجَرَّةِ والعُصُونُ نجومٌ⁽¹⁾

زادت طُلَيْطَلَةٌ على ما حَدَّثُوا
اللهَ رَيْنُهُ فَوْشَحَ خَصْرَهُ

بعد أن عبّر الشعراء عن جمال مدنهم وما امتازت به من طبيعة ساحرة ، نجد أنهم احسنوا تجسيد قيم الجمال لمدنهم في قصائد ومقطعات شعرية أظهرت براعتهم وقدرتهم في تصوير هذا الجمال الآخاذ والطبيعة الساحرة فجاء شعرهم متدفقاً ساحراً بالبهاء والعطاء .
وعند الحديث عن جمال المدن الاندلسية لابد من التطرق الى ذكر هذه المدن الجميلة وما امتازت به من نظافة ، ولعل طبيعة هذه البلاد الرائعة - الاندلس - قد أسهمت بشكل فاعل في منح الاندلسيين سمات جميلة ، فقد عُرف عن اهل الاندلس حبهم للنظافة وعنايتهم الشديدة بنظافة ملابسهم ووسائل عيشهم ، ولما كان الشاعر ابن بيئته يعبر عما يحيط به من مظاهر الحياة ، فقد عبر شعراء الاندلس عن نظافة مدنهم وشدة تعلقهم بالمدن النظيفة الزاهية خير تعبير .

وقد شهد كثير من المؤرخين بنظافة المدن الاندلسية - الاماندر - وعنايتهم الشديدة بهذا الجانب ، يقول صاحب كتاب "نفح الطيب" : (اهل الأندلس عرب في الانساب، والعزة والانفة، وعلو الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس بغداديون في ظرفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم)⁽²⁾ .

ويجد احد شعراء الأندلس في مدينة "شاطبة"^(*) المدينة التي تطيب فيها نفسه لروعتها ونظافتها ، فأوقاتنا سحرٌ ، ونسيمها يفوح عطراً طيباً ، واهلها لشدة عنايتهم بالنظافة بدت وجوههم مشرقة بيضاء ، فقال:

لَفَتَى طَالَتْ بِهِ الرَّحْلُ
وَصَبَأَ فِي ذَيْلِهِ بَلَلٌ
وَرِيَاضُ غَصْنِهَا تَمْلُ
وَكَلَامُ كُلِّهِ مَثْلُ⁽¹⁾

نَعِمَ مُلْقَى الرَّحْلِ شَاطِبَةٌ
بَلَدُهُ أَوَقَاتُهَا سَحَرٌ
وَنَسِيمٌ عَرَفَهُ أَرْجٌ
وَوَجُوهُ كُلِّهَا غُرُرٌ

(1) نفح الطيب : 1 / 170 ؛ والمغرب : 2 / 9 .

(2) نفح الطيب : 3 / 150-151 .

(*) شاطبة : مدينة في شرقي الاندلس ، وشرقي قرطبة وهي مدينة كبيرة قديمة . ينظر : معجم البلدان / 3 / 309-310 .

وبهذه الرؤية الشعرية للمدينة الأندلسية التي اتجهت اتجاهًا إيجابيًا نستطيع القول ان الشعراء الأندلسيين أدركوا ما ينبغي عليهم في التعبير عن حبهم لمدينهم إذ لابد التركيز على الصور الايجابية لهذه المدن وتبريزها واطهارها بصورة واضحة ،فاتجهوا بشعرهم يتحدثون عن نظافة مدنهم وجمالها وروعته ، وطيب الإقامة والعيش فيها .

فكانت هذه الرؤية الشعرية الايجابية للمدينة الاندلسية ،الدليل الاكيد على ماكانت تحتله هذه المدن من مكانة متميزة لدى شعراء الاندلس .

ثانياً : الرؤية الشعرية الراضية لبعض المظاهر الاجتماعية في المدينة:

مثلما أوحى المدينة الأندلسية للشعراء بمعان كثيرة في وصفهم جمال مدنهم، فقد كانت المدينة حاضرة في أذهان الشعراء في شكواهم وتذمرهم من بعض المدن ،فاتجهوا الى انتقاد هذه المدن .

وقد لجأ الشعراء الأندلسيون وتحديداً في عصر ملوك الطوائف الى سلوك ذي اتجاهين في انتقاد المدينة الأندلسية ، الاول : هو الانتقاد المباشر للمدينة لما قد تبعثه في نفوسهم من مشاعر الألم والسخط نتيجة لصعوبة الإقامة والعيش برخاء فيها، او نتيجة لما تعانيه بعض المدن من الاهمال وعدم العناية بنظافتها وكثرة الحشرات فيها .

أمّا الاتجاه الثاني : يتمثل بما ذهب اليه بعض الشعراء في انتقاد مدنهم لان فيها من ييغضونه أو نتيجة لسوء تصرفات بعض سكان هذه المدن أو ظلم بعض الحكام وجورهم . وقد تمثل انتقاد المدينة بصورة مباشرة والتذمر منها بسبب :

أ.صعوبة الإقامة والمعيشة في المدينة الاندلسية :

على الرغم من جمال البيئة الأندلسية وبهائها ورحابة العيش فيها، إلا ان للمدينة وجهاً آخر غير الذي لمسناه من العيش الرغيد والجمال الآخاذ فعلى الرغم من انها تجمع بين دفتيها مظاهر الترف والعمران لكنها في الجانب الآخر تثير الأسى الممزوج بالألم لما يعانيه المتمردون عليها ،حيث توجد فئة من الناس تنفر من المدينة ولاتطبق معها صبراً لأسباب عديدة، منها ضيق العيش وصعوبة الإقامة في المدينة، ولهذا نجد بعضهم يعمد الى شد الرحال ومغادرة المدينة الى مدينة اخرى طلباً للراحة والأمان والاستقرار.

(1) نفح الطيب : 186/1 .

فهذا الشاعر السميسر الالبيري^(*) (ت 480 هـ) الذي عُرف دائماً برؤيته النقدية لكل ما هو غير مقبول في المجتمع، يطلق صرخته المؤلمة والحزينة فضلاً عن الآهات الموجهة المعبرة عن سأمه وتدمره من مدينة " المرية"^(**)، فهو لم يجد ما كان يتمناه من عيشة هائلة، فقال :

بئس دَارُ المَرِيَّةِ اليومَ داراً لَيْسَ فيها لساكنٍ ما يُحَبِّ
بلدٌ لا ثَمَارُ إلا بريحٍ رُبَّما قد تَهْبُ أو لا تَهْبُ⁽¹⁾

وإنَّ الشاعر الاندلسي عندما يتذمر من المدينة التي يعيش فيها ويهجوها بسبب الضيق والمعاناة من المعيشة، فهو بذلك يتجه نحو الشكوى من هذه المدينة، فهذه الشكوى تعد تعبيراً (عن تأثر عاطفي يعكسه الشاعر بألفاظ رقيقة مشحونة بخلاجات وجدانية ، وانفعالات ذاتية وتتنوع الشكوى تبعاً لتنوع هذا المؤثر)⁽²⁾ .

ويعبر الشاعر الحصري القيرواني (ت 488 هـ) من خلال قصيدة مدح فيها القاضيين أبا مروان بن حسون* (ت 505 هـ) وَاِبا المطرف الشعبي** (ت 499 هـ) عن جزعه

^(*)السميسر الالبيري : هو ابو القاسم خلف بن فرج الالبيري من اعلام شعراء البيرة في مدة ملوك الطوائف، مشهور بالهجاء وكان باقعة عصره وأعجوبة دهره ، وله طبع حسن وتصرف مستحسن في مقطوعات الابيات وخاصة اذا هجا وقدح . ينظر: المغرب : 100/2 ؛ والذخيرة: م2، ق1، ص882 ؛ ونفح الطيب : 293/3 ؛ وكذلك الاعلام : الزركلي ، ط14، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 2، 311/1999، وكذلك رايات المبرزين : ص89 .

^(**) المرية : وهي مدينة كبيرة من كورة البيرة من اعمال الأندلس. ينظر : معجم البلدان : 119/5 .

⁽¹⁾السميسر ، حياته وشعره: د. حلمي ابراهيم الكيلاني ، مجلة مؤتة، م(7) ، ع (1) ، 1992 ، ص 132، وكذلك الشاعر الاندلسي السميسر الالبيري حياته وشعره: د. محمد شهاب العاني ، مجلة آداب المستنصرية ، ع(26) ، 1995 ، ص285، وكذلك الذخيرة : م2 ، ق1 ، ص884 .

⁽²⁾ القصص القرآني في الشعر الاندلسي : د. احمد حاجم الربيعي ، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001 ، ص208 .

* ابو مروان بن حسون : هو القاضي عبيد الله بن حسين بن عيسى الكلبى ، وقد عرف ابوه الحسين بـ (حسون) ، وكان ابو مروان فقيهاً نابهاً من فقهاء من ماله، واسع الادراك ، تخرج على كثير من الشيوخ وفي مقدمتهم ابي المطرف الشعبي، توفي ابن حسون سنة (505 هـ) . تنظر أخباره في : بغية الملتبس

وسأمله من الإقامة في مدينة "طنجة"*** وامنياته الكبيرة في البقاء والاستقرار بمدينة
"رية"*** فهو يقوم بعملية المقارنة بين المدينتين من خلال وصفه لمدينة "رية" بأجمل
الاصواف واحبها على قلبه ، جازعاً في الوقت نفسه من مدينة "طنجة" معلناً سأمله من
العيش والمقام فيها، بقوله :

بِريَّةٍ رِيًّا رَوْضَةٍ وَرِياضٍ	بِهَا عِلْمًا عِلْمٌ وَأَعْدَلُ قَاضٍ
مَعَالِيَهُمَا فَوْقَ النُّجُومِ مُنِيفَةً	وَرَأْيُهُمَا فِي الْمَشْرِفَةِ مَاضٍ
سَمْتُ حَيَاتِي وَالْمَقَامَ بَطَنْجَةٍ	كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ غَيْرَ عَرَضٍ
سَيُورِقُ عُودِي إِنْ سَكَنْتُ بِرِيَّةٍ	وَيَسُودُ مِنْ فَوْدَيَّ كُلُّ بِياضٍ
لَدَى قَمَرَيْهَا إِنْ فِي غُرَّتَيْهِمَا	هَدَايَةَ غُمَيَانَ وَبُرَّةَ مِرَاضٍ
أُرِيَّةَ مِرْعَايَ الْمَرِيغِ وَأَيُّقِي	وَأَنْتِ ابْنَةٌ فِي عِصْمَةِ ابْنِ عِيَاضٍ ⁽¹⁾

اما الشاعر الاعمى التطيلي فيرتفع صوته معبراً عن تدمره وشكواه من الإقامة في
مدينة إشبيلية، فعلى الرغم من انه قضى أغلب ايامه في هذه المدينة ، الا انه يعلن عن

في تاريخ رجال أهل الأندلس: الضبي، تحقيق: ابراهيم الاياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1
، 1989، 460/2، وكذلك ابو الحسن الحصري القيرواني : تحقيق: محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج
يحيى، مكتبة المنار، تونس ، 1963 ، ص 54 .

** ابو المطرف الشعبي: هو القاضي عبد الرحمن بن قاسم الشعبي المالقي ، ولي القضاء ببلده نيابة ثم
استقلاً ، وكان عالماً ، متقناً بصيراً بالنوازل ، حافظاً للمسائل .توفي سنة (499 هـ) وقد ذكر صاحب
الصلة انه توفي سنة (497 هـ) . تنظر ترجمته في : تاريخ قضاة الاندلس : النباهي المالقي ، نشر .
إ. ليفي بروفنسال ، ط1 ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1948 ، ص 107 - 108 وكذلك الصلة :
507/2 ، وكذلك الجامع : 681 /2 .

*** طنجة : بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء ،وهو من البر الاعظم وبلاد
البربر ،مدينة ازلية آثارها ظاهرة ، بناؤها بالحجارة قائمة على البحر . ينظر:معجم البلدان : 4 / 43.
**** رِيَّة : كورة واسعة بالاندلس متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبلي قرطبة ، كثيرة الخيرات . ينظر :
معجم البلدان : 116/3 .

⁽¹⁾ ابو الحسن الحصري القيرواني : ص 123 .

سأمة من الإقامة فيها وضجره منها، بقصيدة مدح فيها ابا العلاء بن زهر^(*) (ت 525 هـ) والتي مطلعها :

يُفْدِيكَ كُلَّ جَبَانٍ فِي ثِيَابِ جَرِي نَارَعْنَهُ الْوَرْدَ وَاسْتَأَثَرَتْ بِالصَّدْرِ

.....

مَلَلْتُ حَمَصَ وَمَلَّتَنِي فُلُو نَطَقْتُ كَمَا نَطَقْتُ تَلَاخِينَا عَلَى قَدَرٍ
وَسَوَّلْتُ لِي نَفْسِي أَنْ أَفَارِقَهَا وَالْمَاءُ فِي الْمَزْنِ أَصْفَى مِنْهُ فِي الْغُدْرِ
هِيَهَاتِ بَلْ رَبِّمَا كَانَ الرَّحِيلُ غَدَاً كَالْمَالِ أَحْيَى بِهِ فَقَرّاً مِنَ الْعَمْرِ
كَمْ سَاهَرٍ يَسْتَطِيلُ اللَّيْلَ مِنْ دَنَفٍ لَمْ يَدْرِ أَنْ الرَّدَى آتٍ مَعَ السَّحْرِ
أَمَّا اشْتَقْتُ مَنِّي الْإِيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تُضَاقِقَ فِيمَا عَنَّنِي مِنْ وَطَرٍ⁽¹⁾

وبعد ان أعلن التطيلي تدمره من مدينة "إشبيلية" نجد الشاعر ابن عبدون (ت 527 هـ) يجسد تدمره من مدينة "يابرة"^(**) نتيجة لصعوبة التعايش مع أهلها وعدم وجود الراحة المنشودة فيها مما دفع بالشاعر ليعلن عن سخطه ، بقوله :

أَنَا يَا ابْنَ سَيْفِي يُغْرِبُ سَيْفُكَ الَّذِي إِذَا شِمَّتَهُ لَمْ يَنْبُ وَاخْبُرَهُ تَعْلَمُ
هَجَرْتُ إِلَيْكَ الْأَقْرَبِينَ مَهَاجِراً وَلَمْ أَرْضْ أَرْضاً كُلَّ سَاكِنِهَا عَمُ
فَعَارَ عَلَى الْعِلْيَاءِ سَكَنَائِي بِلَدَةٍ كَبَلَدَةٍ عَالِي الْأَفْقِ مِنْ دُونِ أَنْجَمٍ
فَلَوْ أَنَّ غِيلَاناً حَوَّتُهُ دِيَارُهَا تَغْنَى بِمَيِّ بَيْنَهُمْ غَيْرَ مَعْجَمٍ⁽²⁾

^(*) أبو العلاء بن زهر : هو زهر بن أبي مروان بن عبد الملك ، نال منزلة رفيعة بعلم الطب ، وبنو زهر أسرة من أياد توارث رجالها الطب ، وأبو العلاء منهم ، توفي بقرطبة منكوباً واحتمل إلى إشبيلية ودفن فيها سنة (525 هـ) : تنتظر ترجمته في : عيون الانباء في طبقات الاطباء : ابن أبي أصيبعة ، تحقيق : د. نزار رضا ، مكتبة الحياة ، بيروت ، 1965 ، ص 517 ؛ وكذلك نفح الطيب : 245/2 ، وكذلك وفيات الاعيان : 436/4

⁽¹⁾ ديوان الاعمى التطيلي : ص 49 .

^(**) يابرة : بلد في الأندلس . ينظر : مرصد الاطلاع : 1470/3 .

⁽²⁾ ديوان عبد المجيد بن عبدون اليابري : تحقيق : سليم التتير ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، دمشق سورية ، 1988 ، ص 185 .

في هذه المقطوعة عبر الشاعر ابن عبدون عن ضجره من السكن والاقامة في مدينة "يابرة" ، وفي الوقت نفسه فإنه يفتخر بنفسه ويعتقد ان من العار على من كان مثله الاقامة في مكانٍ بليد يتصف سكانه بالجهل والبلادة ، ويتضح من خلال قوله :

فعارٌ على العلياءِ سكنايَ بلدةً كبلدةٍ عاليِ الافقِ من دون أنجم

إنَّ صعوبةَ التعايش والتأقلم في احدى المدن الاندلسية كان سبباً ودافعاً قوياً لاعلان التذمر من هذه المدن والرحيل عنها ومغادرتها. فكانت صعوبة الاقامة في هذه المدن احد الاسباب الرئيسة التي دفعت بالشاعر ابي عامر بن الاصيلي* لاعلان تذمره لعدد من المدن الاندلسية ، ويمتزج تذمره بالسخط والهجاء لهذه المدن التي لم يلق فيها الراحة المطلوبة ، فعبر عن استيائه وتذمره ، بقوله :

إلى أين الفرارُ ولا فرارُ ومن لي بالقرارِ ولا قرارُ
أرى الأوغادَ يعتمرون دُوراً ومالي في بلادِ الله دارُ

أجولُ فلا أرى إلا رعاغاً كبارُهُم إذا اختيروا صغارُ
أباجةٌ لا وقاكِ الله شراً فأهلكِ أهلُ مفسدةٍ شرارُ
أشلبُ لاجزأكِ الله خيراً فلا خيرَ لديك ولاخيارُ
أشتمريةٌ فُبحِتِ داراً كؤوس المخبزياتِ بها تدارُ
أشلطيشُ ألا غرقُ وشيكُ تموجُ على ثراكِ به البحارُ

بلادٌ عرَّيت من كلِّ خيرٍ فملبس أهلها مَقَتٌ وعارُ
غلطتُ فزرتُها فرأيتُ قوماً منازلهم وإن عُمِرت قفارُ⁽¹⁾

* ابو عامر بن الاصيلي : هو محمد بن الأصيلي وهو من أدباء القرن الخامس، من فحول الشعراء والكتاب وكان جوابة افاقٍ وله بيت شرف ومسابقة سلف. تنظر ترجمته في : الذخيرة : م2 ، ق3 ، ص857 . وكذلك المغرب : 444/2 ؛ والخريدة : 243/2 .

(1) الذخيرة : م2 ، ق3 ، ص861 .

وبهذا تكون صعوبة الحياة في المدينة الاندلسية ، نتيجة لصعوبة الظروف المحيطة بسكانها وعدم وجود الراحة والأمان اللذين يقصدهما كل انسان، كانت من الاسباب - واكثرها اثارة- التي دفعت بالشعراء لأعلان تدمرهم وشكواهم من المدينة الاندلسية، قاصدين الراحة والعيش الوفير في مدينة اخرى وأقليم آخر .

ب. عدم العناية بنظافة المدينة الاندلسية وكثرة الحشرات :

كان لاهل الاندلس صفاتهم وعاداتهم الخاصة بهم ، ومن هذه الصفات والعادات التي تميزهم شدة عنايتهم بالنظافة ورغبتهم في الإقامة والمكوث في المكان الرحب النظيف والخالى من الاوساخ ولعل طبيعة بلاد الاندلس الجميلة التي يعيش فيها الاندلسيون خليفة بأن تحبب اليهم ذلك، فضلاً عن ان الدين الاسلامي وهو الدين الذي اعتنقه الشعب الاندلسي كانت النظافة شعيرة من شعائره وفرضاً من فروضه⁽¹⁾ .

ولذلك اظهر الأندلسيون عناية فائقة بنظافة ما يأكلون ويلبسون ، قال المَقْرِي : (وأهل الاندلس اشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً وبيتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها)⁽²⁾ . وحب الأندلسيين الشديد للنظافة جعلهم يتعلقون بالمدن النظيفة ، ويضيقون ذراعاً من المدن القليلة النظافة ولا يفضلون الإقامة فيها لانها مملوءة بالاوساخ والبرك والحشرات .

فهذا الشاعر الناقد السميصر يعلن صراحةً ودون حرج عن تدمره من مدينة " المرية" لقذارتها واصفاً أياها بأقبح الاوصاف وبكلمات قاسية تعبر عن استيائه منها، اذ يقول :

قالوا المريّة فيها	نَظَافَةٌ قُلْتُ إِيَّاهِ
كَأَنَّهَا طَسْتُ تَبَرٍ	وَيُئِصِّقُ الدَّمُ فِيهِ ⁽³⁾

(1) ينظر : الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه : د. مصطفى الشكعة، ط3 ، دار العلم للملايين، بيروت، 1975، ص 82 .

(2) نفح الطيب : 223/1 .

(3) السميصر حياته وشعره : ص154 ؛ وكذلك الشاعر الاندلسي السميصر الالبيري حياته وشعره : ص303 ؛ الذخيرة : م2 ، ق1 ، ص 885 .

وفي قطعة شعرية اخرى يصف الشاعر السميسر مدينة "بلنسية" وما فيها من عيوب
مما يدل على قدرة الشاعر وبراعته في الوصف، وكما جاء في قوله :

بلنسية بلدة جنةٌ وفيها عُيوبٌ متى تُخْتَبَرُ
فخارجها زهرٌ كُلُّهُ وداخلها بركٌ من قَدَرٍ⁽¹⁾

من خلال هذه القطعة الشعرية نجد أنَّ السميسر استطاع برؤيته الثاقبة أن يكتشف أنَّ
ما وراء الاطار الجميل للمدينة ثمة حالات سلبية لاتنم على نظافة المدينة وحسن ترتيبها
، فلم يكن الشكل الخارجي لهذه المدينة على وفق ما قاله السميسر متناغماً مع مضمونها
الداخلي .

لقد حظيت المدينة الاندلسية بأهتمام الشعراء الاندلسيين، فكان شعرهم الصوت المعبر
عن كل ما يختلج بنفوسهم، فعبروا عن حالة الضيق والاستياء من مدن أتصفت بالاهمال
وعدم النظافة .

إنَّ الشاعر الاندلسي لم يكتفِ من التذمر من اهمال نظافة المدينة ،بل تجاوز ذلك الى
مايسببه هذا الاهمال من انتشار الاوساخ وكثرة الحشرات والبعوض التي تسبب الازعاج
لسكان المدن، فتنقل الامراض فيما بينهم وتقلق راحتهم .

وقد اعرّب الشاعر الحصري القيرواني عن سأمه وجزعه من هذه الظاهرة اللاحضارية
وهو موجود في مدينة "بلنسية" ،هذه المدينة المتقدمة علمياً وحضارياً فكانت شكواه منطلقة
من ذاته المتيقظة ونابعة من مستوى حضاري وثقافي ،قال رافضاً ومتذمراً :

ضاقَتْ بلنسيةٌ بي وذادَ عني غُمُوضي
رَقَصُ البَراغيثِ حولي على غناءِ البُعُوضِ⁽²⁾

وتعددت صيغ التعبير عن الألم من وقع البَراغيث وكثرتها التي توجع جسد
الانسان، فأصبح لايستطيع النوم براحة من أذى هذه البَراغيث والحشرات، وقد تجلّت هذه

⁽¹⁾ السميسر حياته وشعره : ص142؛ وكذلك الشاعر الاندلسي السميسر الالبيري حياته وشعره :
ص293؛ ومعجم البلدان : 491/1 .

⁽²⁾ المطرب : ص197 ؛ والذخيرة : م2 ، ق1 ، ص888 ؛ وكذلك نفح الطيب : 330/3 .

الصورة عند الشاعر الجزار السرقسطي الذي بات ليلة في "حصن بيتول" وهو حصن من عمل سرقسطة، فتألم لكثرة الحشرات وتوجع وما اغفى ولاهجع، فقال ضجراً بثلاثة أبيات مرتجلة :

لحا الله بيتول الدنية انها	بها يستزيد الحزن والفرح ينقص
لقد بت فيها ليلة اي ليلة	وبرغوئها حولي من الفرح يرقص
كأن فراشي تحت جنبي طاجن	وزريعة الكتان فيه تُحمص ⁽¹⁾

وبهذا يتضح أنه كلما أهملت نظافة المدينة فإنها تزداد قبحاً وتصبح مستودعاً لنمو الحشرات والبعوض، فكانت هذه الظاهرة من الظواهر التي دفعت بالشاعر الأندلسي ليحرب عن الاستياء والتذمر من بعض المدن التي كانت موبوءة بالحشرات والأمراض، وليعبر عن رفضه لهذه المظاهر غير اللائقة بالمدينة الأندلسية .

إن الشاعر الأندلسي عندما يتذمر من مدن إتصفت بالاهمال وعدم الاهتمام بنظافتها، فانه يتجه بتذمره هذا ليعلن عن هجائه لهذه المدن ولم يقصد الشاعر الأندلسي في انتقاده لتلك المدن التعريض للمدينة الأندلسية، انما كانت أهداف الشاعر من وراء غرض انتقاده هذا كشف الزيف وايضاح الحقائق على ما هي عليه، فلذلك كان للنقد مهمة اصلاح وتقويم لانه يعد وسيلة للعلاج⁽²⁾ .

وعندما يعبر الشاعر الأندلسي عن سخطه وتذمره للعديد من الظواهر غير اللائقة بمدينة عريقة وجميلة كالاندلس، فإنه بذلك يجسد رؤيته الشعرية الراضية لكل ما هو غير مرغوب فيه، فكان توجه الشاعر الى هجاء المدينة الأندلسية إنما هو بحقيقة الامر انتقاد لبعض الظواهر اللاحضارية التي اتصفت بها هذه المدن، وربما كان تعبيراً رمزياً لرفض كثير من الامور التي قد لا يستطيع التصريح عنها فرمز لها بما يدل على ألمه وضجره واستيائه خصوصاً وقد لاحظنا في مبحث سابق اهتمام الأندلسي بنظافة بيئته وجمالها .

ج. سوء تصرفات اهل المدينة وظلم بعض الحكام :

(1) روضة المحاسن وعمدة المحاسن : ص 178 .

(2) ينظر : تقويم جديد لظاهرة الهجاء في الشعر العربي قبل الاسلام : د. نوري حمودي القيسي، مجلة كلية الآداب، ع(30)، 1981، ص 10 .

تعد سوء تصرفات بعض اهل المدن من الاوضاع التي تثير السخط والاسى على المدينة نفسها، فيظهر الجزع من مدينة تحوي انساناً لا يحسنون التعامل مع الاخرين بل وقد يسيؤون المعاملة فيما بينهم.

فقد تذر يوسف بن عبد البر * (ت 463 هـ) من مدينة "اشبيلية " لانه عندما دخل هذه المدينة لم يلقَ فيها خيراً ، ولم يرَ من اهلها اهتماماً ، لذلك ارتحل عنها وهو يتذر ويتملل بقوله :

تتكر من كُنَّا نُسرُّ بِقُرْبِهِ	وصار زُعاقاً بعدما كان سَلَسَلا
وَحَقَّ لِحَارٍ لم يوافقَه جَارُهُ	ولا لاءَمَّته الدَّارُ أَن يتحوَّلَا
بَلِيْتُ بحمص والمقام ببلدَةٍ	طويلاً لعمرى مخلق يورثُ البلى
إذا هان حُرٌّ عِنْدَ قَوْمٍ أَتَاهُم	ولم ينأَ عنهم كان أعمى وأجهلاً ⁽¹⁾

□ يوسف ابن عبد البر: هو الحافظ ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي، امام الاندلس في علم الشريعة ورواية الحديث، توفي سنة (463 هـ) بمدينة شاطبة. تنظر ترجمته في: مطمح الانفس ومسرح التآنس في ملح اهل الأندلس : ابن خاقان، تحقيق: محمد علي شوابكة، ط 1 ، مؤسسة الرسالة ، دار عمار ، بيروت، 1983، ص 294، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي، ط 2، دار المسيرة، بيروت، 3، 1979/314، والمغرب: 2/407 وكذلك وفيات الاعيان: 66/7،⁽¹⁾ مطمح الانفس : ص 295 - 296 .

ويتقدم الاعمى التطيلي ليعلن عن شكواه من مدينة "إشبيلية" وأهلها، في صرخة مؤلمة ومؤثرة وفي الوقت نفسه نلمس افتخار الشاعر بعلمه ومعرفته، كما جاء في عينيته التي يقول فيها :

نَبْتُ بِي حِمَصْ جَادَهَا كُلُّ مُرْهِمٍ	تُهَلُّ الرُّبَا بِالشُّكْرِ أَيَّانَ يَهْمَعُ
وما كنتُ أخشى أن أُحَلَّ ببلدٍ	بها غَصَصٌ من أهلها وهي بُلُقَع
وما أحمِلوني لكن المجدَ أحمَلُوا	وما ضَيَّعُونِي لكنِ العلمَ ضَيَّعُوا
وبينَ ضُلُوعي ما لو أنَّ أَقْلَهُ	بأَكْنَافِ رَضَوَى أوشكتُ تتصدَّعُ
أشَاءُ من الأيامِ ما لا تشاؤُهُ	وأطمَعُ في ماليس لي فيه مَطْمَعُ
وينبئني الحرمانُ عن كلِّ مَطْلَبٍ	ونَقَّسني عليه حَسْرَةً تتقطعُ ⁽¹⁾

من خلال هذه الابيات نجد صورة رافضة لدى الشاعر الاعمى التطيلي لمدينة "إشبيلية" ففي الوقت الذي كان الشاعر قد أحس براحة في هذه المدينة في مرحلة ما، نجده قد غيرت رؤيته أزاء هذه المدينة والسبب في ذلك معطيات المدينة نفسها على نفسية الشاعر .

(1) ديوان الاعمى التطيلي : ص 79، ويشكو التطيلي في أكثر من موضع من مدينة "إشبيلية" والمقام فيها كما جاء في ديوانه : ص 9 وص 160 .

إن تذمر الشاعر الأندلسي من مدينته وإعلان استيائه منها لم يكن وفقاً على صعوبة الإقامة والمعيشة فيها أو عدم الاهتمام بنظافتها وجمالها، إنما تعد سوء تصرفات بعض سكان هذه المدن من الأوضاع السيئة التي يرفضها الشاعر ويضيق ذرعاً بها، فضلاً عن ان جور الحكام والامراء لعامة الناس يعد من الامور التي تبعث على التذمر والاستياء ، وأحد الاسباب التي تجبر المرء على الرحيل .

ذلك لأن الانسان بطبعه يطلب الراحة والامان ويبحث عن الحياة السعيدة الكريمة، فكان ظلم الامراء واهمالهم لعامة الناس من الامور التي جوبهت من الشاعر الاندلسي بالرفض والتكر لها.

وفي مدينة "إشبيلية" يشعر ابن الدباغ* بالإهانة نتيجة لسوء تصرف من أحد الرجال حيث قدح به في مجلس المعتمد، فشعر ابن الدباغ ان شخصيته قد تزعزعت فتأثر لنفسه بأن قال :

يُهانُ بحمصٍ عزيزُ الرجالِ	ويُعزى إليهم قبيحُ الفعالِ
ويُعزى ذوو النقصِ من إهلها	بتلطيخ أعراضِ اهلِ الكمالِ ⁽¹⁾

وبهذا يُعلن ابن الدباغ استيائه من مدينة "إشبيلية" نتيجة لسوء تصرف من احد الرجال.

أمّا الشاعر الحصري القيرواني فيتذمر هو الآخر من مدينة "إشبيلية" وذلك بسبب ما لقيه فيها من أهمال من قبل الأمير المعتمد بن عباد ، فقد اورد صاحب كتاب "شذرات الذهب" أنَّ الحصري (لما كان بمدينة طنجة ارسل غلامه الى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ... فأبطأ عنه وبلغه ان المعتمد ما احتفل به)⁽²⁾ ، فقال :

* ابن الدباغ : هو ابو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ الوزير الأديب الكاتب ، فر من ابن هود في سرقسطة إلى المعتمد في إشبيلية فأجزل عطاءه ثم نفاه المعتمد فلحق بالمتوكل في بطليوس ، ثم رجع الى سرقسطة. تنظر ترجمته في : الذخيرة : م 1 ، ق 3 ، ص 251 ؛ والمغرب : 440/2 ؛ وكذلك قلائد العقيان : ص 120 .

⁽¹⁾ الذخيرة : م 1 ، ق 3 ، ص 253 .

⁽²⁾ شذرات الذهب : 386/3 .

ولم الدهر الفجوعا
لغلامي لا رجوعا
مات في الجنة جوعا⁽¹⁾

نبه الركب الهجوعا
حمص الجنة قالت
رحم الله غلامي

وبعد أن أعلن الحصري تدمره من مدينة "اشبيلية"، يندفع الشاعر ابن الحداد وفي دعوة صريحة الى ترك مدينة "المرية" والتذمر منها، بسبب صاحب هذه المدينة المعتصم بن صمادح، فالشاعر يتذمر من معاملة الامير له ويدعو الشعراء الذين يطلبون المعروف والإحسان من الامير ان يتركوا دار المعتصم ومدينة "المرية" بأكملها لأنها أصبحت تنغص عليهم عيشهم ، والشاعر ابن الحداد يصرح بقوله بأنه لو قضى طول عمره في خدمة الامير المعتصم فأَنَّ الأخير يظل يعامله معاملة الطارئ عليه ، قال متذمراً :

يَطالِبُ المَعْرُوفِ دُونَكَ فَاتَرَكَنْ	دار المَرِيَّةِ وارْفُضْ ابن صُمادِحِ
رَجُلٌ إِذَا اعطَاكَ حَبَّةَ خَزْدَلٍ	أَلْقَاكَ فِي قَيْدِ الاسِيرِ الطَّائِحِ
لو قد مَضَى لَكَ عُمْرُ نُوحٍ عِنْدَهُ	لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَالبَعِيدِ النَّازِحِ ⁽²⁾

من خلال هذه الأبيات الشعرية يتضح أنَّ جور الحكام وابطاءهم في عطاياهم كانت سبباً من الاسباب الداعية الى رفض المدينة، والتذمر من المكوث فيها، فاتجه الشعراء الى الشكوى من هذه المدن ذلك لأن الشكوى تعد من (أدل الفنون التي تفصح عن عاطفة الانسان المتشائمة الناقمة، وتعكس اوجاع النفس في اشجانها وقنوطها)⁽³⁾ .

فعبر الشعراء بشكواهم وتذمرهم عن رؤيتهم الراضية لبعض الظواهر السلبية في المدينة ومن الامور التي اثارَت تذمر الاندلسيين اعتماد بعض ملوك الطوائف على العناصر اليهودية في قيادة بعض أمور الدولة، كما فعل أمير غرناطة عندما القى امر الوزارة الى وزيره اليهودي اسماعيل بن النغيلة فتسلط على العباد، مما جعل الشاعر ابا اسحاق اللبيري ينبه الى تصاعد الخطر اليهودي ويرفض صراحة سياسة امير غرناطة، بقصيدة طويلة منها:

(1) ابو الحسن الحصري القيرواني : ص 43 .

(2) ديوان ابن الحداد : ص 184 .

(3) الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري: جواد رشيد مجيد، رسالة ماجستير، كلية الاداب - الجامعة المستنصرية، 1988، ص 4 .

بدور الندى وأسد العرين
تقرُّ بها أعينُ الشَّامتين
ولو شاءَ كان من المُسلمينُ

.....

فكنتُ اراهمُ بها عابثينُ
فمنهمُ بكل مكانٍ لعين⁽¹⁾

الا قل لصنهاجة اجمعينُ
لقد زلَّ سَيْدُكم زَلَّةً
تخيَّر كاتبه كافراً

.....

وأني احتللتُ بغرناطةٍ
وقد قَسَموها واعمالها

بعد ان اعلن الشاعر ابو اسحاق الالبيري عن تدمره من سياسة امير غرناطة، انضم اليه عدد من الشعراء فأرتفعت اصوات الرفض وصيحات التذمر ولاسيما بعد ان قام اليهود بتحصيل الضرائب من المسلمين، مما اثار الشعراء فهذا أبو حفص الزكري* الذي عبر عن تدمره بان قال :

حكم الشريعة والمُرُوءة فينا
أمرتُ ترى نَسَخَ الاله الدِّينا
وأرى اليهود بِجْزِيَةِ طلبونا

.....

لو كان يَعِدِلُ وَزَنُهُ قاعونا⁽²⁾

ياأهل دانية لقد خالفتم
مالي اراكم تأمرون بضد ما
كُنَّا نُطالبُ لليهود بِجْزِيَةِ

.....

ايجوز مثلي ان يُمَكِّسَ عدله

فقد احس الشاعر ابو حفص الزكري بالتذمر والسخط لان الذي طالبه بدفع الضريبة جاب يهودي ، فعبّر بهذه القطعة الشعرية عن رفضه وتدمره.
وقد كان موقف اليهود العدائي للعروبة وللإسلام واضحاً وبيّناً، كما في قوله تعالى
"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا"⁽¹⁾ .

(1) تنظر القصيدة كاملة في: ديوان ابي اسحاق الالبيري: ص 108 - 112 .

* ابو حفص الزكري: هو عمر بن علي المعروف بالزكري المهدوي، الاديب الشاعر. تنظر ترجمته في: الخريدة
358/1 ؛ وكذلك معجم الادباء: 218/10

(2) معجم الادباء: 218/10-219، واخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر
للسلفي: تحقيق: د. احسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1963، ص37. وقاعون: اسم جبل بالاندلس
قرب دانية .

فكان تسلط اليهود في دولة غرناطة باعثاً قوياً لان يتجه الشعراء هذا الاتجاه الرافض
لبعض الظواهر التي كانت سائدة في المدينة الاندلسية .فأتجه الشعر نحو نقد هذه
الظواهر السلبية والتعريض بحالات الفوضى التي أصابت ملوك الأندلس ، كما في قول
ابي الحسن ابن الجدي* (ت515 هـ) :

في كل يوم غريب فيه معتبر	نلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابهم بأندلس	دوائر السوء لأتبعي ولا تذر
قد كنت أنظرها والشمس طالعة	لو صح للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدح	تحدو به مذهلات الناي والوتر ⁽²⁾

إن سوء تصرفات أهل المدينة وظلم الحكام وإهمالها لأمر الدولة وعدم الشعور
بالمسؤولية كانت من الأمور التي دفعت بالشعراء لاعلان رفضهم للاقامة بمثل هذه المدن
وهذا مما دعا اليه غانم بن الوليد** (ت470 هـ) ،بأن قال :

وإذا الديار تنكرت حالاتها	فدع الديار وأسرع التحويلا
ليس المقام عليك حتماً واجباً	في بلدة تدعُ العزيز ذليلاً
لايرتضي حُرٌّ بمنزل ذلة	لو لم يجد في الخافقين مقيلاً ⁽³⁾

(1) سورة المائدة / (آية 82) .

* ابو الحسن ابن الجدي : هو يوسف بن محمد بن الجدي ،الوزير الكاتب ينتمي الى عائلة من
الاعيان،استكتبه الوزير ابو بكر بن عمار ايام حروبه بمرسية . تنتظر ترجمته في : المغرب : 340/1

(2) الذخيرة : م1 ، ق2 ، ص256 .

** غانم بن الوليد: هو غانم بن الوليد بن عمر بن غانم الأشونى ، ابو محمد المالقي الساكن بمالقة
عالم جليل مذكور في المائة الخامسة ، توفي سنة (470 هـ) ،تنتظر ترجمته في المغرب : 317/1؛

وبغية الملتبس : 579/2 ؛ والذخيرة : م2، ق1 ، ص 853 ، ومعجم الادباء : 167/16

(3) المغرب : 318/1 .

إنَّ الشاعر يدعو الى ترك الديار التي يشعر فيها الانسان الحر بالأهانة والذل، فليس اجمل من مدينة يشعر فيها المرء بالكرامة والعزة، وما كنت اتمنى ان يدعو الشاعر إلى ترك مدينته تعيش حالة الفوضى والاضطراب ، بل كان يجب عليه ان يبقى في مدينته بوصفه صوتاً مثقفاً مسموعاً يعلن رفضه لكل ما هو غير مقبول .

ويعود الشاعر ابو عامر بن الأصيلي مرةً أخرى ليعبر عن تدمره من المكوث في جزيرة "شقر" نتيجة سوء معاملة رؤساء اهل هذه الجزيرة ، فنجدّه يذمهم ويذم أيام مكوثه في تلك الجزيرة، فكتب إلى ذي الوزارتين ابي محمد بن ابي الفرج * يعرفه بما لقيه من هؤلاء الرؤساء ، بقوله :

كتبتُ إليك أوانَ الخروجِ	حزيناً مهيناً إلى دانية
أسألك ربِّي ألا أعوَدَ	إلى أرضكم مرةً ثانية
حللتُ الجزيرة سُحقاً لها	كأنني حللت بسردانية
مُنعتُ الدُّخولَ إلى أهلها	فدرت كما دارت السانية
وبتُ ثلاثاً بها طاوياً	قراي هُمومي وأحزانية ⁽¹⁾

لقد كانت هذه الصيحات التي اطلقها الشعراء الاندلسيون نتيجة لسوء الأحوال السياسية والاجتماعية في المدينة الاندلسية ، وسوء تصرفات أهل المدينة وبعض حكامها، ماهي الا صفحة من الصفحات النقدية التي سطرها شعراء القرن الخامس الهجري ، فكان تدمر الشعراء وشكواهم من أوضاع كهذه إنما هو نقد فني معبر عن رؤية الانسان الواعي المثقف الذي لايقبل لمدينته أسباب الفوضى والضياع .

ولقد استطاع هؤلاء الشعراء من خلال رؤيتهم الشعرية أن يصوروا لنا المدينة الاندلسية ، وما أتصفت به من جانب ايجابي تمثل بجمال المدن ونضارتها، وما تمتعت به من نظافة وعيشة راضية رغيدة ، فضلاً عن صورة المدينة في الجانب الآخر والذي تمثل برفضها والتدمر منها نتيجة لأسباب عديدة منها صعوبة الإقامة والمعيشة فيها، وعدم الاهتمام بنظافتها أو نتيجة للأوضاع السيئة التي سادت المدينة بسبب سوء تصرفات سكان المدن وظلم بعض الحكام الامراء لعامة الناس .

* ابو محمد بن ابي الفرج: وهو وزير المأمون يحيى بن اسماعيل بن ذي النون بطليطلة ،وقد عهد اليه المأمون بتدبير شؤون الاجناد .ينظر: الخريدة :2/243 .

(1) المصدر نفسه : 2/243 .

فكان الشعر أفضل وسيلة جسد من خلاله الشعراء رؤيتهم للظواهر الايجابية والسلبية في المدينة الأندلسية ،فكان وثيقة فنية ناطقة عبّر عن أصالة المدينة الأندلسية من خلال اتجاهين ،الاتجاه الاول : يتمثل في جمال المدينة وعذوبتها وطيب العيش فيها . والاتجاه الثاني : يتمثل في اهمال المدينة وعدم العناية بها وصعوبة العيش والاقامة فيها .

الفصل الثاني

صورة المدينة في الأغراض الشعرية

ترتبط المدينة الأندلسية بكثير من الأغراض الشعرية التي أغنت مخيلة الشعراء، فالطبيعة الأندلسية الساحرة كانت لاتفارق أذهانهم، فنظم كثير منهم قصائد تتغنى بتلك الطبيعة التي عدوها مِيزَةً يفخرون بها على بقاع الدنيا .

وتتجسد صورة المدينة الأندلسية وملاحها عند الشعراء الأندلسيين في عصر الطوائف من خلال مدحهم لمدنهم وما تمتاز به من مميزات تدفع الشعراء للمدح والفخر بهذه المدن ، وآتجهوا أيضاً لوصف المدن الأندلسية ومواكبة ما تمر به من أحداث، ولأنَّ الشاعر أقدر من غيره على التعبير عن مشاعره وأحاسيسه بلغةٍ شعريةٍ مؤثرة، لذلك يتجه بلغته الشعرية هذه الى أظهار صورة للمدينة تتجسد هذه الصورة بوضوح وتقف بشموخ كأنها حبيبة يتغزل بها ويضفي عليها أبهى الصفات حيناً، ويبدل من اجلها الغالي والنفيس حيناً آخر .

وقد نظم الشعراء الأندلسيون في اغراض الشعر العربي جميعها ، وتوسعوا بالقول في بعضها مثل شعر وصف الطبيعة الأندلسية، وشعر رثاء المدن، وشعر الحنين وذلك لوجود دواعٍ لهذا التوسع بالقول في مدنهم .

المبحث الأول المدينة والوصف

أولاً : وصف المدينة الأندلسية :

يمثل فن الوصف اتجاهًا عامًا في الشعر العربي، وباب الوصف (عند العرب أكبر فنون الشعر ،ذلك لأنه يأتي في أكثر أغراض الشعر ممتزجاً بها،وقلَّ أن نجد قصيدة بُنيت على موضوع الوصف وحده، اللهم إلا في القطع القصار)⁽¹⁾ .

إنَّ الوصف في جملته يُعدُّ أحد أبرز أغراض الشعر الرئيسية ذلك لأنَّ الشعراء يقصدون أغراضاً متعددة مثل المديح ،والرثاء ،والغزل ،والهجاء وغيرها من اغراض الشعر العربي ، فانهم كانوا يتجهون في المديح إلى وصف خصال الممدوح وفي الرثاء الى وصف مناقب الفقيد،وفي الغزل إلى وصف محاسن المرأة⁽²⁾ .

لذلك وجد النقاد العرب القدماء ،أنَّ (الشعرَ إلاَّ أقلُّه راجعُ إلى باب الوصف)⁽³⁾وقد كانت "المدينة الأندلسية" تعج بأجمل المناظر من حدائق زاهرة، وانهار جارية، وقصور عامرة بالصور الجميلة وعيون الماء البديعة، ولذلك اتخذ الشعراء الأندلسيون من "المدينة الأندلسية" موضوعاً رئيساً لقصائدهم الشعرية، فراحوا يصفونها وما تتحلى به من طبيعة جميلة، وشواخص حضارية عامرة ويبدو (أنَّ القوم كانوا صادقين الصدق كله في تعلق كل واحد منهم ببلدته وحبها لها)⁽⁴⁾،عاشقاً لها مرتبطاً بتاريخها متفانياً من اجل الدفاع عنها، فهو يسعى بأن تكون مدينته افضل المدن جمالاً وعمراً ونظافةً، لذلك وجدنا الشاعر الأندلسي قد برع في وصف مدينته وابدع في رسم اروع اللوحات الفنية لما امتازت به مدينته من مظاهر الطبيعة .

(1) الأدب العربي في الأندلس : د. عبد العزيز عتيق ، ط2 ، دار النهضة العربية،بيروت،1976،ص 284 .

(2) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي :د. عمر الدقاق ، منشورات دار الشرق ،بيروت،1974،ص206.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق ،تحقيق : محمد محيي الدين ، ط4 ، دار الجيل، بيروت ،1972، 294/2 .

(4) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص25 .

ونظراً لما تمتعت به المدن الاندلسية من المظاهر الحضارية، والقصور، والبساتين والحدائق، فقد حظيت بالاهتمام، ومن صور اهتمام الاندلسيين بمدنهم، ما قاله المقرئ في كتابه "نفح الطيب" في وصف مدينة "اشبيلية": (انها قاعدة بلاد الاندلس وحاضرتها، ومدينة الادب واللهو والطرب، وهي على ضفة النهر الكبير، عظيمة الشأن طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم)⁽¹⁾.

وقد كان لكل مدينة من المدن الاندلسية شعراؤها المتحمسون لها، فهذا الشاعر علي بن حصن الاشبيلي * (ت 467 هـ) يصف مدينة "اشبيلية" التي تبدو له كأنها عروسٌ اكتسبت حسناتها وبهاءها من جمال الطبيعة، فأمتزج هذا الوصف بالحنين إليها، والشاعر ينتقل بين الحنين والإشتياق والوصف، فيقول:

ذكرْتُكِ يا حمصُ ذكرى هوى	أَمَاتَ الحُـسُودَ وَتَغَنَّىتُهُ
كَأَنَّكَ وَالشَّمْسُ عِنْدَ الغُرُوبِ	عُرُوسٌ مِنَ الحُسْنِ مَنْحُوتَةٌ
غدا النهرُ عقدُك والطَّودُ تاجُك	والشمسُ في أعلاه ياقوتُهُ ⁽²⁾

إنَّ الشاعر في هذه القطعة الشعرية ابداع في وصف مدينة "اشبيلية" وقد استعان الشاعر بالاساليب البلاغية للتعبير عن وصفه واشتياقه لهذه المدينة، فاستخدم الجناس الاشتقائي في لفظة (ذكرْتُكِ و ذكرى)، أمَّا في البيت الشعري الثاني فقد رسم الشاعر لنا صورة بديعة ورائعة لمدينة "اشبيلية" فكأنها عروس مزدانة بالحلي والمجوهرات رائعة الحسن والجمال فأجاد الشاعر في استخدام التشبيه حيث شبه مدينة "اشبيلية" وكأنها عروس من الحسن منحوتة.

⁽¹⁾ نفح الطيب : 208/1 .

* علي بن حصن الاشبيلي: هو ابو الحسن علي بن حصن، من مشاهير شعراء المعتضد نشأ مع المعتضد فأستوزره الا انه كان فيه طيش ادى الى حقه توفى سنة (467 هـ) تنتظر اخباره في: الذخيرة: م1

ق، 2 ص 158 ، وكذلك نفح الطيب: 266/3 ؛ وكذلك رايات المبرزين: ص39

⁽²⁾ الذخيرة : م1، ق2، ص166 ؛ ونفح الطيب : 266 /3 .

وتتجسد مدينة "قرطبة" عند الشاعر ابن سارة* (ت 517 هـ) الذي يَعُدُّها داراً للعلوم والمعرفة، ومكاناً ومستقراً للملوك والامراء، فهو يَجِدُّها دار العلم والمُلك في آنٍ واحد، فيحمد الله تعالى لدخوله الى هذه المدينة، بقوله :

الله اكبر قد وافيت قرطبةً دار العلوم وكرسي السلاطين
وقد تهلل بي وجه النجاح بها طلق الأسرّة من وجه ابن حمدين
تزهو العلا بمساعيه إذا ذكرت زهو الأنوف بأنفاس الرياحين⁽¹⁾

ولم يقتصر اهتمام الشعراء على وصف مدينتي "اشبيلية" و"قرطبة"، وإنما حظيت المدن الاندلسية الاخرى بالاهتمام نفسه، فراح الشعراء يتغنون بتلك المدن بطابع من الحب والاعتزاز ويصفونها بما ازدانت به من العمران والبناء، فلنستمع لاحد شعراء الاندلس الذي اخذ يصف المدن الاندلسية وكأنها الكواكب الساطعة المنتشرة في السماء، فيقول واصفاً:

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الاهواء
فكأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول في جنة ولعت به الافياء والأنداء⁽²⁾

ان الشاعر في هذه المقطوعة يرسم لنا لوحة جميلة للأندلس، ولعل روعة الصورة تجلّت في هذه الصياغة اللغوية التي لانلمس فيها سوى البساطة والوضوح فالاندلس في رؤية الشاعر بلدٌ رحبٌ تكثر فيه جداول المياه والبساتين والاشجار، فمزج الشاعر بين حبه للمدينة وبين وصفه لها باجمل الاوصاف، وقد عبر الشاعر عن حبه للمدن الاندلسية من خلال التعبير عن حبه واعجابه بالاندلس وطنه ومرتع صباه وذكرى طفولته.

* ابن سارة: هو ابو محمد عبد الله بن سارة البكري الشنتريني الاصل، نزل اشبيلية وسكنها وتعيش فيها بالوراقة، وتجول في بلاد الاندلس وكانت وفاته سنة (517 هـ) . تنظر ترجمته في: الذخيرة: م2، ق2، ص 834، والمغرب: 419/1، وكذلك وفيات الاعيان: 93/3، وشذرات الذهب: 55/4، والمطرب : ص 82 .

(1) ابن سارة الاندلسي حياته وشعره : د. مصطفى عوض الكريم، مصر، 1958، ص 103 ؛ وكذلك الذخيرة : م2، ق2، 850 .

(2) نفح الطيب: 1/226-227 .

وحتى جزيرة "ميورقة" بحسنها وروعها فإنّها لم تبتعد عن أذهان الشعراء، ومنهم الشاعر ابن اللبانة الذي وصف روعة طبيعتها في اطار لغوي مشحون بصورٍ فنية أثارها الشاعر في ثلاثة أبياتٍ، فوصف مياه الأمطار وكأنّها الخمرة، وارض جزيرة "ميورقة" وكأنّها الكؤوس التي ملئت بهذه الخمرة، وهذه الجزيرة لجمالها وجمال اشجارها، فهي مثل طوق الحمامة سحراً وريش الطاووس تلوناً، فيقول:

نزل الحيا بنزوله في معهد لبس المسرة ربعه المأنوس
فكأنّ ماء الغمام مذامّة وكأنّ ساحات الديار كؤوس
بلد أعازته الحمامة طوقها وكساه خلة ريشه الطاووس⁽¹⁾

إنّ هذه الاضاءات الشعرية التي وصفت المدن الأندلسية، كانت خير دليل على قدرة الشعراء الاندلسيين وابداعهم الفني في فن الوصف، ولم يقتصر وصف الشعراء على المدن الأندلسية فقط إنّما شمل أيضاً وصفاً للمظاهر الطبيعية في المدينة الأندلسية، وما امتازت به من جمال وعذوبة.

فاتجه الشعراء للتعبير عن هذه الطبيعة الرائعة الشفافة، بلوحات مملوءة بألوان بديعة وصورٍ زاهية، فكان فن الوصف عندهم فناً واسعاً اتجه لوصف المدينة الاندلسية ومكانتها العريقة، وما تمتعت به من ظواهر طبيعية كثيرة، فوصف الشاعر الاندلسي البساتين والرياض الغنية بمختلف الأشجار والثمار، وكذلك الانهار، والجداول، والوديان وكل ما امتازت به الطبيعة الاندلسية.

* ميورقة: جزيرة في شرقي الاندلس بالقرب منها جزيرة يقال لها "منورقة"، كانت قاعدة ملك مجاهد

العامري. بنظر: معجم البلدان: 246/5

(1) شعر ابن اللبانة الداني : ص55.

ثانياً: - وصف ملامح الطبيعة في المدينة الاندلسية:

الأندلس هذه القطعة الكريمة من الأرض، والغنية بأجمل الصور التي تستهوي الأفئدة وتحرك المشاعر والعواطف، فليبيئتها الطبيعية وما اتصفت به من جمال مناظرها وحسن مشاهدتها الاثر الكبير في عقول الاندلسيين وصفاء اخيلتهم، فبرع شعراء الأندلس في وصف هذه الطبيعة الخلابة التي ساعدت على نضج الشعر، ومثلما وصفوا القصور والابنية وما تحويه من صور وتماثيل، فأنهم لم يتوقفوا عند حدود الوصف هذه، بل توسعوا في ذلك ليشمل وصف المدن من خلال وصف طبيعتها، هذه الطبيعة الغنية بالبساتين والحدائق، والانهار والسواقي، والجال والادوية.

أ. وصف بساتين المدينة ورياضها:

إنَّ اهتمام الشعراء الاندلسيين بوصف مظاهر الطبيعة للمدينة الاندلسية، يعود الى جمال تلك الطبيعة ومفاتيحها الخلابة. وحين نتحدث عن فن الوصف في الشعر الاندلسي، نجد انفسنا امام عدد كبير من القصائد والمقطعات التي تتخذ الطبيعة ميداناً للوصف، ومما لاشك فيه أنَّ الطبيعة الجميلة التي تميزت بها بلاد الاندلس عن غيرها من البلدان، جعلت الشخصية الاندلسية تذوب حباً وشغفاً كلما التقت بالطبيعة أو واجهتها إذ لاتمتلك غير الاستجابة لها ملبية دعوتها الى الاستمتاع بما تزخر به من مفاتن⁽¹⁾ .

إن المدينة الاندلسية استمدت حيويتها وبهجتها من عناصر الطبيعة الاندلسية، فأبن خفاجة يصف المدينة الاندلسية في اطار لوحة فنية يتناغم فيها سحر الطبيعة المُجسد لبهاء الاندلس وأناقته ، فيقول :

مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ	إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ
وُدْجَى لِيَأْتِيَهَا مِنْ لَعَسِ	فَسَنَا صُبْحَتَهَا مِنْ شَنِبِ
صَحْتُ وَ شَوْقِي إِلَيَّ الْأَنْدَلُسِ ⁽²⁾	فَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَاً

⁽¹⁾ ينظر: في الشعر الاندلسي: د. عدنان صالح مصطفى ، ط1، دار الثقافة ، الدوحة ، 1987، ص18؛ ويرى د. شوقي ضيف إن بلداً عربياً لم يكثر شعراؤه من تشخيص عناصر الطبيعة على نحو ما اكثر شعراء الاندلس . ينظر : فصول في الشعر ونقده : دار المعارف ، مصر - القاهرة ، 1971، ص158.

⁽²⁾ ديوان ابن خفاجة : ص 136 .

إن الشاعر ابن خفاجة من خلال هذه القطعة الشعرية ،التي يصف فيها طبيعة الاندلس وحسنها قد مزج بين إعجابه بطبيعة الاندلس والشوق العميق للاندلس ذاتها فمضى يصف الاندلس برشاقة لفظ وحسن إيقاع وجمال أسلوب .

أمّا الشاعر ابنُ عمار (ت 477 هـ) فيتجه ليصف الرياض والبساتين والزهور المحملة بالندى ،وما أجمل التشبيه الذي أثاره ابن عمار في هذه الأبيات الشعرية فيصور الحدائق والبساتين وقد مرَّ بها نهزَّ كأنَّه معصم صاف على رداءٍ أخضر ، فيقول :

والروض كالحسنا كسأه زهره	وشياً وقلده نداه جوهره
أو كالغلام زها بورد رياضه	خجلاً وتاه بأسهن معذرا
روض كأنَّ النهرَ فيه معصم	صافٍ أطل على رداءٍ أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا ⁽¹⁾

إنَّ ابن عمار وفق كل التوفيق في تجسيد حبه لمظاهر الطبيعة وإعجابه بجمالها من خلال وصفه لهذه الرياض والحدائق التي شكلت في مجملها أهم أبرز المفردات الأساسية للمدينة .

وقد وظف الشاعر ابن رزين * (ت 496 هـ) عناصر الطبيعة ومفاتها ليعبر بها عن مدى إعجابه بهذه الرياض والبساتين المنتشرة ،والشاعر انما أراد أن يؤرخ لجمال بلده، حيث يقول :

وروض كسأه الطلُّ وشياً مجدداً	فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعداً
إذا صافحته الريحُ ظلت غصونهُ	رواقص في خُضرٍ من العُصبِ مُيِّدا
إذا ما أنسيابُ الماء عاينت خلتهُ	وقد كسرتهُ راحة الريح مبردا ⁽²⁾

(1) محمد بن عمار الأنديسي ، دراسة أدبية تاريخية : د. صلاح خالص ،مطبعة الهدى، بغداد ، 1957 ، ص 189-190 .

* ابن رزين هو أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن خلف بن رزين ، ذو الرياستين حسام الدولة وليّ بعد ابيه الحاجب عن الدولة ابي محمد هذيل ،وكان أبو مروان شاعراً مجيداً ، توفي سنة (496 هـ) . تنظر ترجمته في : كتاب الحلة السيرة ابن الأبار ،تحقيق: حسين مؤنس ،ط1، 1963، 108/2 ، وكذلك البيان المغرب 3:184، 309 ، وكذلك المغرب: 2/ 428؛ والمطرب : ص 44 .

(2) الحلة السيرة : 111/2 .

إنَّ اتجاه الشعراء إلى الغناء بجمال الطبيعة في بلاد الأندلس هو تعبير عن الحب العظيم والإعجاب الكبير للمدينة الأندلسية نفسها ، لان الطبيعة بألوان سحرها ووجوه جمالها إنما هي المظهر الحقيقي لمفاتيح المدينة ولذلك فان الشعر الأندلسي قد رسم (صورة أمينة دقيقة أنيقة لبيئة الأندلس ، ولما كانت طبيعة الأندلس من الفتنة والجمال والثراء ... فإنَّ شعر الطبيعة في الأندلس يُعدُّ أيضاً مرآة صادقة لطبيعة الأندلس وسحرها وجمالها)⁽¹⁾ .

فهذا الوزير الكاتب محمد بن مسلم* يتقدم واصفاً مدينة قرطبة وما تمتاز به هذه المدينة من رياضٍ وبساتينٍ ، ويذهب الشاعر الى أبعد من ذلك فيصف ليالي قرطبة الشاعرية ، وسواد هذا الليل الذي يستهام به فكأنه سواد العين والشعر ، ثم ينتقل ليصف نهار هذه المدينة المشرق المضيء ، بقوله :

سقى جديداً من الأيام قرطبةً	ماء الشباب وريق البارد الخصر
وقفاً يمدُّ الندى في روضه شرقاً	من الغمام مع الأصال والبكر
كأنه فيه والإمساء يئسُّ طُهُ	رداء إلفين قد صاراً إلى وطر
_____	_____
ليل فيه سواد يستهام به	كأنه في سواد العين والشعر
وللنهار سناً يحكي تبلُّجُهُ	نور البصيرة مقروناً مع البصر
كأنما شمسها تحت الغمام سنا	وجهُ تنفّس في مرآته نُضِر ⁽²⁾

(1) الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص 255 .

* محمد بن مسلم : هو ابو عبد الله محمد بن مسلم الداني ، الوزير الكاتب، وقال عنه ابن بسام : انه كان رسولاً الى بعض ملوك الطوائف عن اقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر احد الحصون .

تتظر ترجمته في : الذخيرة : م 1، ق 3 ، ص 427 ، والمغرب : 405/2 .

(2) الذخيرة : م 1، ق 3 ، ص 444-445 .

ومثلما جسد الشاعر بهذه الأبيات الشعرية صورة الطبيعة في المدينة الأندلسية يتجه أبو عامر بن مسلمة* (ت 511 هـ) ليصف روضة من الرياض، معبراً بهذا الوصف عن قدرة شعراء الطوائف في صياغة أشعارهم بإسلوبٍ وصفي رشيق ، فيقول :

وروضـة مشـرقـة	بكل نور مجتـى
فيها بهار باهر	ونرجس يشكو الضنى
وياسمين أرضه	ونوره تلونا
كاليـل مخضـراً	ولكن بالانجوم زينا
فـاجتـن ورداً وارداً	وسوسن ملثنا
وحولـه نيلـو وفـر	فتتـه ران إن رنا ⁽¹⁾

إنَّ الشاعر الذي يصف الطبيعة ومظاهرها يختلف عن الشعراء الآخرين، لأنَّه (رسام في نطاق شاعريته وليس كل شاعر رساماً، إن المقطوعات الجميلة التي خلفها الشعراء الأندلسيون ليست في حقيقتها إلاَّ لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال زاهية الأصباغ)⁽²⁾ .

وعند الحديث عن طبيعة البلاد الأندلسية ورياضها وحدائقها الزاهية، ينبغي أن نتذكر الشاعر ابن خفاجة لأنه يُعد في مقدمة الشعراء الذين أبدعوا في وصف البساتين والحدائق، فيرسم لنا صورة فنية بديعة تعبر عن اقتدار متميز في التصوير من خلال وصفه لروضة من الرياض، فيقول :

* أبو عامر بن مسلمة : هو محمد بن عبد الله بن مسلمة، من اهل قرطبة وكانت له عناية بالعلم وسماعه وجمعه ومعرفة بالادب واللغة ومعاني الشعر، شاعر من بيت ادب ورياسة ، توفي سنة (511 هـ) وحُمِلَ الى اشبيلية فدفن بها . تنتظر اخباره في : مطمح الانفس : ص 203-204 ، والمغرب : 96/1 ، وكذلك جذوة المقتبس : 113/1-114 ؛ والذخيرة : م 1 ، ق 2 ، ص 105 ، والصلة : 833/3 .
⁽¹⁾ شعر ابي عامر بن مسلمة : تحقيق د. هدى شوكت بهنام ، مجلة المورد ، م(18) ؛ ع(2) ، سنة 1989 ، ص 161 ، والبدیع في وصف الربيع : الحميري ، تحقيق : هنري بيريس ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، 1940 ، ص 38 .

⁽²⁾ الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ص 255-256.

وَأَرَاكِ ضَرَبْتَ سَمَاءَ فَوْقَنَا تَنَدَى وَأَفْلَاكُ الْكُؤُوسِ تُدَارُ
حَقَنْتُ بِدَوَحَتِهَا مَجَرَّةَ جَدُولٍ نَثَرْتُ عَلَيْهِ نُجُومَهَا الْأَزْهَارُ
فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ جَدُولَ مَائِهَا حَسَنَاءُ شَدَّ بِخَصَرِهَا زُنَارُ
زَفَّ الزُّجَاجُ بِهَا عَرُوسَ مُدَامَةٍ تَجَلَّى وَنُورُ الْعُصُوفِ نِثَارُ
فِي رَوْضَةِ جَنَحِ الدُّجَى ظِلًّا بِهَا وَتَجَسَّمتْ نَوْرًا بِهَا الْأَنْوَارُ⁽¹⁾

ويحاول ابن رشيق من خلال بيتين أن يصف فيهما بستاناً قد حُبَّتْ أشجاره وأغصانه
أشعة الشمس البهية، فيقول:

نَظَرْتُ إِلَى الْبُسْتَانِ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ وَقَدْ حَجَبَتْ الْأَغْصَانُ شَمْسَ الْمَشَارِقِ
بِهِ زَوْجُ رُمَّانٍ يَلُوحُ كَأَنَّهُ قَنَادِيلُ تَبْرِ مُحْكَمَاتُ الْعَلَائِقِ⁽²⁾

وقد يلجأ الشاعر الأندلسي الى رسم صورة جميلة للمدينة الأندلسية من خلال طبيعة
المدينة نفسها، فيجاء شعره قائماً على التشبيه والإستعارة وذلك ليعبر بصورة موحية لطبيعة
مدينة الساحرة، كما نلمس ذلك في قول علي بن أبي الحسين* (ت 430 هـ) :

كَأَنَّمَا الرُّوضُ هَيْفَا فِي خُلَّةٍ وَوَشَاحِ
تَشِيرُ غَمَزاً عَلَيْنَا بَنَـرْجَسٍ وَأَقْـسَاحِ
تَقُولُ مَنْ عَافَ وَصَلِي فَمَالَهُ مِنْ فَلَاحِ⁽³⁾

إنَّ البساتينَ والرياضَ المنتشرة على أرض هذه الجزيرة الكريمة والتي أبدع الشعراء في
تخليدها، من خلال وصفهم لطبيعة الأندلس كانت خير دليل على تجسيد هؤلاء الشعراء

(1) ديوان ابن خفاجة: ص 351.

(2) ديوان ابن رشيق: ص 127.

* علي بن أبي الحسين: هو علي بن محمد بن أبي الحسين الاصبحي، صاحب كتاب "اليشبيهاة من
اشعار اهل الاندلس"، وكان أديباً بليغاً حافظاً للغات ذاكراً للأدب، توفي بحدود سنة (430 هـ). وقد اختلفت
المصادر في ترجمته ولكننا أعتدنا على ما أورده الدكتور احسان عباس في ترجمته لأنها أكثر
دقة، فنتظر ترجمته في: كتاب التشبيهاة من اشعار اهل الندلس: ابو عبد الله الكتابي، تحقيق: د. احسان
عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1966 ص 324.

(3) المصدر نفسه: ص 47

لتلك المتنزهات نحو قول الشاعر ابن حزم معبراً عن إعجابه بربيع الأندلس وطبيعتها،
ويصوغ هذا الإعجاب والحب واصفاً هذه الرياض بقوله :

ولما ترَوَّحنا بأكناف روضة مهذلة الأَقنانِ في تربها النَّدِي
وقد ضحكت أنوارها وتضوعت اساورها في ظل فيء ممدِّ
وابدت لنا الأطيَّارُ حُسْنَ صريفها فمن بين شاكٍ شجوةً ومغرِّدٍ
وللماء فيما بيننا مُتصَرِّفٌ وللعين مُرتادٌ هناك ولليد⁽¹⁾

ومن شعراء الأندلس الذين سحرتهم الطبيعة الاندلسية، الشاعر عبد الواحد القبري * (ت 456 هـ) الذي ذاب حباً وإعجاباً بطبيعة الأندلس، فمزج هذا الحب والإعجاب بالحنين إلى هذه المعاهد والرياض في قوله :

يا روضتي ورياض الناس مُجذبةٌ وكوكبي وظلام الليل قد رَكَدَا
إنْ كان صرف الليالي عنك أبعدني فإنَّ شوقي وحزني عنك ما بَعْدَا⁽²⁾

وإن الشاعر الاندلسي كان دائماً يؤكِّد حبه وانتماءه لبلده، من خلال وصفه للطبيعة ومظاهرها المختلفة، ومثلها يعبر الإنسان عن حبه بوسائل مختلفة، كانت الطبيعة أيضاً تشارك الإنسان في التعبير عن حبه وهيامها، فأخضرت الأراضي، وأينعت الزهور، وأعشوشب العشب، فتبدو الأندلس في أبهى صورها، مرتدية ثوبها المطرّز بأجمل الألوان. فهي بلد المتنزهات العامرة الذي (تغلب عليه المياه الجارية، والشجر والثمر الرخص والسعة في الأحوال).⁽³⁾

(1) شعر ابن حزم الأندلسي: مجلة المورد، (26)، ع(4)، 1998، ص 67-68.

* عبد الواحد القبري: هو عبد الواحد بن محمد بن موهب بن محمد التجيبي المعروف بابن القبري، فقيه، محدث، أديب، خطيب، شاعر توفي سنة (456 هـ). تنتظر ترجمته في: بغية الملتمس: 510/2 ، وكذلك المغرب: 230/1.

(2) بغية الملتمس: 510/2 .

(3) معجم البلدان: 262/1 .

وكانت هذه الطبيعة الفاتنة لهذه البلاد، قد لامست مشاعر وأحاسيس الشاعر الاعمى التطيلي، الذي وصف هذه الطبيعة ونضارتها في قصيدة طويلة منها:

فالأرض بين روضةٍ ومُهلٍ
إلى جنابٍ للأمانِ خضيلٍ
تعانقُ الوسميُّ فيه والولي
وروضةٍ تنظمُ شملَ الجدَلِ
بكلِّ ثغرٍ بالنَّسيمِ رتلٍ
وكلِّ جفنٍ بالنَّدى مُكتحلٍ⁽¹⁾

رسم الشاعر في هذه القصيدة صورة جميلة لطبيعة المدينة الاندلسية ، التي زهت أرضها ، وتلاحمت بساكنيها ، وتراقصت أزهارها الندية فعبر الشاعر عن هذه الطبيعة الباسمة ، بلفظٍ رشيقٍ ، وصورةٍ أنيقةٍ . وقد تمثل الهيام والتغني بعناصر الطبيعة للمدينة الأندلسية ، أن عبر أبو القاسم المنيشي* عن جمال الطبيعة الأندلسية ، بقوله :

يَارَوْضَةَ بَاتَتْ الْأَنْدَاءُ تَخْدُمُهَا أَتَى النَّسِيمُ وَهَذَا أَوَّلُ السَّحَرِ
إِنْ كَانَ قَدْكَ غُضُنًا فَالثَّرَاءُ بِهِ مِثْلَ الْكَمَائِمِ قَدْ زُرْتُ عَلَى الزَّهْرِ
إِزْبًا بِبُرْدِيكَ عَنْ وَرْدٍ وَعَنْ زَهْرِ وَأَغْنِ بِقَرطِيكَ عَنْ شَمْسٍ وَعَنْ قَمَرٍ
يَاقَاتِلِ اللَّهُ لِحَظِي كَمْ شَقِيتُ بِهِ مِنْ حَيْثُ كَانَ نَعِيمُ النَّاسِ بِالنَّظَرِ⁽²⁾

وفي رقة احساسٍ وصدقٍ تعبيرٍ يتقدم الشاعر ابن سارة الشنتريني ، واصفاً حديقة زاهية بالورد وقد رفعت لواء الحسن والجمال واستمالت إليها الأفئدة والانظار لحسنها ، فقال :

⁽¹⁾ديوان الاعمى التطيلي : ص 152 .

* أبو القاسم المنيشي : هو أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي المعروف بعصا الاعمى لانه كان يقود التطيلي ، تنظر اخباره في : بغية الملتمس : 713/2 ؛ وكذلك المغرب : 289/1 ؛ والمطرب : ص 108 ، ومطمح الانفس : ص 353. وكذلك رايات المبرزين : ص 52 .

⁽²⁾مطمح الأنفس : ص 354 ، وكذلك بغية الملتمس : 713/2 مع اختلاف في الرواية وهذا لايؤثر على المعنى المراد .

وحديقة في نرجس وبهار
فكأنما هذا ضحى متهلل
أخوان أمهما معاً شمس الضحى
شرباً سلاف القطر حتى عريدا
واستودعا خبريهما نفس الصبا
فأذاع ما كتما من الاسرار⁽¹⁾
رفعت لواء الحُسن للنظار
وكانما هذا أصيل نهار
وأبوهم قمر السماء الساري
وتراجما بكواكب الأزهار

إن هذه المقطعات والقصائد الشعرية التي تغنت بالطبيعة البهية في المدن الأندلسية، كانت صفحة خالدة من الصفحات التي عبّرت عن اثر البيئة الأندلسية على الشاعر الأندلسي، فصورّ وعبر عن كل ما شاهده من صور الطبيعة المختلفة .

ب. وصف انهار المدينة وسواقيها وبركها :

إن جمال الطبيعة وكثرة الرياض والمتنزهات ، أغرت الشاعر الاندلسي بأن يذوب في هذه الطبيعة التي من مظاهر بذخها وعطائها في هذه البقعة البهية من أرض جزيرة الأندلس ، كثرة الأنهار الوفيرة فهذه (الأنهار وما يتشعب عنها من برك وخلصان وغدران ، وما ينبت على شاطئها من حدائق ورياض وما يجري على صفحاتها من زوارق وأشعة ... كل ذلك قد تنبه إليه الشعراء الأندلسيون وتأثروا به ، ف سجلوا صوراً للطبيعة من خلاله بديعة النسج عذبة الجرس ساحرة اللون)⁽²⁾ .

وقد عاشت الطبيعة بمظاهرها المختلفة من حدائق ، وأنهار ، وجبال في مخيلة معظم شعراء الأندلس ، فهذا أبو القاسم بن العطار * يرسم لنا صورة رائعة أنيقة للنهر الذي يعد مظهراً من مظاهر الطبيعة في المدينة الاندلسية ، وتتجلى هذه الصورة الزاهية بالتشبيه الرائق عند الشاعر الذي شبه النهر بالسيف في وقت الضحى ، وبالدرع في وقت الأصيل، فيقول :

(1) ابن سارة الأندلسي حياته وشعره : ص 50؛ وكذلك الذخيرة : م2، ق2، 841 .

(2) الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه : ص 310 .

* ابو القاسم بن العطار : هو أديب بليغ وشاعر مجيد احد أدباء إشبيلية ونحاتها ، العامرين لارجاء المعارف وساحاتها، لايعرج الا على ضفة نهر، ولا ييتهج الا بقطعة زهر . تنظر اخباره في : المغرب : 254/1 ؛ وكذلك نفح الطيب : 650/1 ، وبغية الملتبس : 713/2- 714 ؛ وكذلك رايات المبرزين : ص44 .

لله بهجة مَنْزِهِ ضَرَبَتْ بِهِ
فوق الغدير رُواقَهَا الأَنْشَامُ

فَمَعَ الْأَصِيلِ النَّهْرُ دِرْعُ سَابِغُ وَمَعَ الصَّحَى يَلْتَا جُ فِيهِ حُسَامُ⁽¹⁾

ويعود ابن العطار في قطعةٍ شعريّةٍ أخرى ،ليصف فيها النهر بإسلوبٍ أنيقٍ يعمد فيه الى الإستعارة الجميلة والجناس الطريف ، مشبهاً تكسر ماء النهر بالدرع ، بقوله :

مَرَرْنَا بِشَاطِئِ النَّهْرِ بَيْنَ حَدَائِقَ بِهَا حَدَقَ الْأَزْهَارُ تَسْتَوْقِفُ

وقد نَسَجَتْ كَفُّ النِّسِيمِ مُفَاضَةً

عليه وما غيرُ الحباب لها حَلَقٌ⁽²⁾

ويتقدم الشاعر ابن سارة الشنتريني راسماً صورة للنهر ، فيصف حركة مائه وأمواجه المتكسرة في وقت مساءٍ رائعٍ وهو وقت الاصيل ،عندما تحاول الشمس التعبير عن خجلها ،فتتوارى خلف الأفق وقد انعكست أشعتها فوق سطح هذا النهر الوديع ، فيقول :

النَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غُلَّالُهُ خَصَرَهُ وَعَلَيْهِ مِنْ صَبَغِ الْأَصِيلِ طِرَارُ

تَتَرَقُّ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهُا عُكْنُ الْخُصُورِ تَهْزُهَا الْأَعْبَارُ⁽³⁾

إنَّ الشاعر أبدع في هذين البيتين اللذين جسَّد من خلالهما صورة أنيقة للنهر في وقت رائع العذوبة والشاعرية هو وقت الأصيل ، والشاعر الأندلسي عندما يتجه بشعره ليرسم من خلاله لوحات رائعة الجمال لانهاريلاده وسواقيه ، فأثَّه بذلك يجسد في صورة واضحة، المكونات الأساسية التي تتكون منها المدينة ،فالانهار والسواقي ما هي إلا مفردات أساسية لأية مدينة .

ولشدة تعلق شعراء الأندلس بمدنهم نجدهم يعبرون عن هذا الحب بوصفهم ما يحيط بهم ويثير البهجة في نفوسهم فكان النهر ، والبحر ، والوادي ، والجبل ، ماهي إلا دلائل ورموز للأرض والوطن، فهي مفردات أساسية للمدينة الأندلسية .

(1) نفح الطيب : 652/1 ؛ وفي المغرب : 254/1 "الانسائم" بدلاً من "الانشائم" .

(2) نفح الطيب : 651/1 .

(3) ابن سارة حياته وشعره : ص 54 ؛ وكذلك نفح الطيب : 600/3 .

وقد أبدع الشاعر الأندلسي في نقل وتصوير جزئيات أساسية للمدينة فهو يعتمد إلى تصوير الأنهار والأودية وغيرها من المظاهر الطبيعية بقصائد شعرية مشرقة ،وبذلك فإنه يُصور المدينة الأندلسية بصورٍ ناطقة بالحياة .

ويرسم الشاعر ابن خفاجة لوحة وصفية للنهر بإسلوبٍ بديع ورقيق ،فشكل هذا النهر كما يصفه الشاعر متعطف متعرج، أمّا ماء النهر المتجمع وسط المروج فيصوره الشاعر وكأنه قرصٌ من الفضة فوق رداءٍ أخضر ، فيقول :

لله نَهْرٌ سَالٌ فِي بَطْحَاءٍ	أَشْهَى وُرُوداً مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ	وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مُجَرٌّ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظُنَّ قَوْساً مُفْرَغاً	مِنْ فِصَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضِرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفٌ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا	هُدَبٌ تَحْفٌ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ ⁽¹⁾

إنّ ابن خفاجة من خلال قصيدته هذه ،يرسم صورة بديعة الألوان فيتخذ من لوحته الفنية هذه مسرحاً لعرض فنه وإظهار براعته وقدرته في التصوير .
ولابن خفاجة قطعة شعرية يصف من خلالها البحر وأحواله ، وما تثيره صورة البحر من حالة الهياج والقلق والخوف وعدم الهدوء ،فيقول :

وَلَجْجَةٌ تَفْرِقُ أَوْ تَعَشِقُ	فَمَا تَتَى أَحْشَاؤُهَا تَخْفِقُ
شَارَفْتُهَا وَهِيَ بِمَا هَاجَهَا	مِنْ الصَّبَا مُزِيدَةً تَقْلِقُ
فَخِلْتُ فِي شَطِّهَا فَارِساً	فَرَبَّ مِنْهُ فَرَسٌ أُبْلِقُ ⁽²⁾

إنّ الشاعر ابن خفاجة أحسن في تصوير المظاهر الطبيعية في البلاد الاندلسية فجسد لنا بشعره ،صور بديعة للأنهار والبحار باعتبارها احد مظاهر الطبيعة .
وتطالعنا صورة أخرى للنهر ، فكأنّه جريح لكثرة سيره على الحصى ،وقد عَبَرَ هذا النهر المتألم الجريح عن أوجاعه وآلامه بخبره ، وبهذه الصورة الرائعة جسد لنا الشاعر ابن حمديس صورة للنهر الاندلسي ، فوصف النهر بالصفاء ، وشبهه بالثعبان ، بقوله :

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 356 .

(2) المصدر نفسه ، ص 137 .

وَمُطَرِدِ الْأَجْزَاءِ يَصْقُلُ مَثْنُهُ	صَبَا أَعْلَنْتُ لِلْعَيْنِ مَا فِي صَمِيرِهِ
جَرِيحٌ بِأَطْرَافِ الْحَصَى كُلَّمَا جَرَى	عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ
كَأَنَّ حُبَاباً رِيحَ تَحْتِ حَبَابِهِ	فَأَقْبَلَ يُلْقِي نَفْسَهُ فِي غَدِيرِهِ
شَرِبْنَا عَلَى حَافَاتِهِ دَوْرَ سَكْرَةٍ	وَأَقْتُلُ سُكْرًا مِنْهُ لَخْظُ مُدِيرِهِ
كَأَنَّ الدَّجَى خَطَّ الْمَجْرَةَ بَيْنَنَا	وَقَدْ كَلَّلْتُ حَافَاتِهِ بِبَدْوَرِهِ ⁽¹⁾

ويحاول ابن حمديس في قصيدة ثانية ، ان يرسم صوراً بديعة للنهر فيستخدم التشبيه الرائع من خلال تصويره لهذا النهر بثلاث صور رائعة ، فمرة يشبه النهر كأنه نسر ينفذ ريشه، وأخرى كأنه ثعبان يتلوى في زحفه ،وثالثة كأن هذا النهر عين لا يكف دمعها طوال الدهر، فقال :

وَمُرُو صَدَى الرُّوضَاتِ يَسْحَبُ دَائِباً	عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ جُمْلَةٌ تَتَّبَعُشْ
إِذَا مَا جَرَى وَاهْتَزَّ لِلْعَيْنِ مُزِيداً	حَسِبْتُ بِهِ فَرَوْاً مِنَ النَّسْرِ يُنْقَضْ
وَتَنَسَابُ مِنْهُ حَيَّةٌ غَيْرَ أَنَّهَا	تَطُولُ عَلَى قَدْرِ الْمَسَابِ وَتَعْرُضْ
— —	— —
وَمَا هُوَ إِلَّا دَمْعُ عَيْنٍ كَأَنَّهَا	لَطُولُ بَكَاءٍ دَهْرَهَا لَا تَغْمِضْ
إِذَا سَرَحَتْ لِلْسَّقِيِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ	رَأَيْتَ بِقَاعِ الْأَرْضِ مِنْهَا تُرَوِّضُ ⁽²⁾

كان وصف الطبيعة في الاندلس يُعد تصويراً لمناظرها وتجسيدا لمحاسنها، فأظهر الشعراء براعة في وصفهم لهذه الطبيعة ومظاهرها المختلفة من رياضٍ وانهارٍ وشواطئ .

(1) ديوان ابن حمديس : ص 186 .

(2) المصدر نفسه : ص 291-292 ، وللشاعر قطعة شعرية أخرى في وصف النهر ، ينظر : ديوانه:

أما السواقي والجداول والبرك ، فكان لها نصيبٌ - هي الأخرى - من الوصف فنجد الشاعر بن حمديس يصف " بركة" شقها نهرٌ، ويذكر الشاعر هبوب النسيم على صفحات هذه "البركة" التي يتوسطها نهرٌ يروي الرياض المزدانة بالزهور والرياحين، وإنَّ هذه الحديقة توجهُ شكرها بلسان النسيم المعطر بريحٍ طيبة ، فيقول واصفاً :

وزرقاء في لونِ السماء تَبَهَّتْ	لَتَحْبِكُهَا رِيحٌ تَهْبُ مع الفجرِ
يَشْقُ حَشَاهَا جَدُولٌ مُتَكَفِّلٌ	يَسْقِي رِياضٍ أَلْبَسَتْ حُلَّ الزهرِ
كما طَعَنَ المقدامُ في الحرب دارعاً	بِعَضْبٍ فَشَقَّ الخصرَ منه إلى الخصرِ
يُريك رؤوساً منه في جسم حَيَّةٍ	سَعَتْ من حياةٍ في حادِّقه الخضرِ
فلا روضةً إلا استعارتْ لشكره	لسانَ صَباً تَسْري مُطَيَّبَةً النَّشْر ⁽¹⁾

وبدافع الحضارة والتقدم العمراني الذي حظيت به المدن الأندلسية ، في هذا العهد أدخل الأندلسيون مياه الأنهار الى قصورهم ، فلا يكاد يخلو قصرٌ أمير من الأمراء من أفواه هذه البرك والنافورات التي بُنيت بمختلف الاشكال والهيئات ، وقد حرك تدفق المياه من أفواه هذه التماثيل خيال الشعراء وألهب جذوة الابداع فيهم .

فيصف الشاعر ابن حمديس "بركة" في قصر المتوكل بن اعلى الناس ، وقد صُممت تماثيل هذه "البركة" على هيئة أسود تقذف الماء من أفواهها ، فقال فيها :

(1) ديوان ابن حمديس : ص 187 .

وضراغم سَكَنْتْ عَرِينِ رِئَاسَةٍ	تَرَكْتُ خَرِيرَ الْمَاءِ فِيهِ زَيْيَرًا
فَكَأَنَّمَا غَشَّى النَّضَارُ جُسُومَهَا	وَأَذَابٌ فِي أَفْوَهَهَا الْبُلُور
أُسْدٌ كَانَ سَكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ	فِي النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُنَاكَ مُثِيرًا
— —	
فَكَأَنَّمَا سُلَّتْ سُيُوفُ جَدَاوِلِ	ذَابَتْ بِلَا نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرًا
وَكَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لِمَائِهِ	دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَهَا تَقْدِيرًا ⁽¹⁾

يسجل ابن حمديس من خلال هذه القطعة الشعرية ، إبداعاً آخرًا مضافاً الى ابداعاته السابقة ، فيرسم صورة جميلة لهذه "البركة" ، فكأن تدفق المياه من افواه التماثيل سيوف قد سُلَّتْ من اغمادها ، وكأن النسيم العليل قد نسج من مياه هذه "البركة" دروعاً .

أمّا الشاعر ابو محمد المصري فيجسد من خلال مقطوعة يصف فيها البركة والقبة المقامة عليها والتي بُنيت في قصر المأمون بن ذي النون، فيقول:

شَمْسِيَّةُ الْأَنْسَابِ بِدَرِيَّةِ	يَحَارُ فِي تَشْبِيهِهَا الْخَاطِرُ
كَأَنَّمَا الْمَأْمُونُ بِدْرِ الدُّجَى	وَهِيَ عَلَيْهِ الْفَلَكَ الدَّائِرُ ⁽²⁾

إنّ هذه البرك والنافورات المصنوعة التي ابدعت يدُ الانسان في إدخالها إلى القصور والبلاطات الملكية ، تعد امتداداً لمشاهد السواقي والبرك الصغيرة التي تتفرع من الأنهار والجداول، وقد ابداع الشعراء في تصوير هذه السواقي والنوافير والبرك، ونجد تشبيه الماء المتدفق من هذه النوافير والبرك، بالسيف ،وبالدرع وبالحية متداول في الاندلس⁽³⁾ .

وقد أحسن الشاعر ابن خفاجة في جمعه بين هذه الصور الثلاث ، فوصف الماء في تشبيه بالحية ، وفي انسيابه بالسيف الحُسام، وفي تجمعه بالدروع ، فقال :

(1) ديوان ابن حمديس : ص 547 .

(2) نفع الطيب : 529/1 .

(3) ينظر في ذلك : ديوان المعتمد بن عباد : ص 49 ؛ وفي المطرب : ص 41 قطعة شعرية للسلطان المعتمد بالله بن صمادح يصف فيها بركة بناها بالصمادحية ؛ وكذلك في شعر ابن وهبون المرسى : ص 143 .

وَمَسْحَبٍ ذِيْلٍ لِلسَّحَابِ بِذِي الْعَصَى بَرُودِ رُضَابِ الْمَاءِ أَحْوَى لَمَى الْمَرْعَى
فَقُلْ فِي أَتَى قَدْ تَهَادَى كَأَنَّهُ إِذَا مَا ثَنَى أَعْطَاهُ حَيَّةٌ تَسْعَى
وَمَاءٍ مَسِيلٍ سَائِلٍ لِقَرَارَةٍ فَبَيْنَا تَرَى مِنْهُ حُسَاماً تَرَى دِرْعاً⁽¹⁾

وبهذا تكون طبيعة بلاد الاندلس العذبة ، وكثرة خيراتها ووفرة أنهارها وجداولها، سبباً فيما طفحت به أشعار الأندلسيين من السرور والطمأنينة والتفاؤل ،فاتجه الشعراء للتعبير عن حالة الرضا والحب لمدنهم الاندلسية ، وما تمتاز به من طبيعة ضاحكة،تمثلت بكثرة الحدائق والمنتزهات الزاهرة ،وكثرة الأنهار والجداول الجارية .
فكان وصف مظاهر الطبيعة في المدينة الأندلسية ،أحد الأبواب التي طرقها شعراء الأندلس ، وأبدعوا فيه من خلال رسم أروع اللوحات الشعرية المعبرة عن طبيعة المدينة الأندلسية .

ج. وصف جبال المدينة واوديتها :

إن نظرة فاحصة ومتأنية للمدينة تعكس وبوضوح ما تحويه هذه المدن من رياضٍ،وأنهارٍ ، وجداولٍ، وكذلك من جبالٍ واوديةٍ ، وعندما صوّر الشاعر الأندلسي الظواهر الطبيعية للمدينة الاندلسية ، كان لابد له من التوقف أمام الجبال والأودية ،بوصفها صورة من الصور التي تمثل هيكل المدينة .

ومثلما أثارت مشاهد الحدائق والبساتين والأنهار ، الشاعر الأندلسي وحركت فيه الإبداع على تصوير أروع اللوحات الشعرية ، فقد اثارت صورة الجبل في نفسه صوراً متعددة تتمثل في الثبات ،والقوة،والشموخ،والعظمة، ومما يدل على عظمة هذا الطود وما خصه به الله تعالى في قوله "لو انزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتُه خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خَشْيَةِ اللَّهِ"⁽²⁾ .

فوقف الشاعر الاندلسي أمام هذا الجبل وقفة متميزة عمد فيها (الى تصوير ملامح هذا الجبل من خلال صفاته المعنوية وسماته النفسية ،دون أن يخرج عن اتساق التصوير في الحالين)⁽³⁾ .

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 87 .

(2) سورة "الحشر" / الآية (21) .

(3) ملامح الشعر الاندلسي : ص 248 .

وَقَدْ تَشَكَّلَتْ هَذِهِ النَّزْعَةُ الْوَصْفِيَّةُ عِنْدَ الشَّاعِرِ ابْنِ خَفَاجَةَ ،الَّذِي تَرَجَمَ مِشَاعِرَهُ وَأَحَاسِيْسَهُ مِنْ خِلَالِ امْتِزَاجِهِ بِالطَّبِيعَةِ امْتِزَاجاً وَاضِحاً ،فَوَقَفَ هَذَا الشَّاعِرُ مِنْ خِلَالِ نَظَرِهِ تَأْمِلِيَّةٍ أَمَامَ الْجَبَلِ ، وَرَسَمَ لَنَا هَيْئَتَهُ وَضَخَامَتَهُ مِنْ خِلَالِ قَصِيدَتَيْنِ وَصَفَ فِي الْأَوَّلَى هَيْئَةَ الْجَبَلِ وَصَمَتَهُ ،وَالثَّانِي مَطْلَعَهَا :

وَصَهْوَةٌ عَزِمَ قَدْ تَمَطَّيْتُ وَالْدُّجَى مُكِبٌّ كَأَنَّ الصَّبْحَ فِي صَدْرِهِ سِرٌّ

إِلَى أَنْ يَقُولَ وَاصِفاً :

وَأَشْرَفَ طَمَّاحُ الدُّؤَابَةِ شَامِخٌ وَفُورٌ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي كَأَنَّمَا تَمَهَّدَ مِنْهُ كُلُّ زُكْنٍ زَكَاةً وَلَآذَ بِهِ نَسْرُ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا قَلَمٌ أَدْرٍ مِنْ صَمْتٍ لَهُ وَسَكِينَةٌ
تَنَاطَقَ بِالْجُوزَاءِ لَيْلًا لَهُ خَصْرٌ يُصِيخُ إِلَى نَجْوَى وَفِي أُذُنِهِ وَقُرٌ فَقَطَّبَ إِطْرَاقاً وَقَدْ ضَحِكَ الْبَدْرُ يَحِنُّ إِلَى وَكْرِ بِهِ ذَلِكَ النَّسْرُ أَكْبَرُهُ سِنٍ وَقُرْتُ مِنْهُ أَمْ كِبَرُ⁽¹⁾

وَجَاءَتِ الْقَصِيدَةُ الثَّانِيَّةُ بِتِسْعَةِ عَشَرَ بَيْتاً ،عَبَّرَتْ عَمَّا يَدُورُ فِي خِلْدِ الشَّاعِرِ مِنْ مِشَاعِرٍ وَأَحَاسِيْسٍ اتَّجَاهَ الْكُونِ وَالْمَجْتَمَعِ ، قَالَ فِيهَا :

وَأَرَعَنَ طَمَّاحُ الدُّؤَابَةِ بَاذِخٌ يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ وَقُورٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَائِمٍ أَصَخْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرُسٌ صَامِتٌ وَقَالَ : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأً فَاتِكِ
يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبٍ وَيَزَحُمُ لَيْلًا شَهْبَهُ بِالْمَنَاكِبِ طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقٌ فِي الْعَوَاقِبِ لَهَا مِنْ وَمِيزِ الْبَرْقِ خُمْرُ ذَوَائِبِ فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ وَمَوْطِنَ أَوَاهٍ تَبْتَلُّ تَائِبِ

وَيَسْتَمِرُّ ابْنُ خَفَاجَةَ فِي وَصْفِهِ لِهَذَا الْجَبَلِ الْجَاثِمِ بَوْقَارٍ وَسُكُونٍ ، فَيَقُولُ :

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 150 .

فحتى متى أبقى ويطعنُ صاجِبُ
وحتى متى ارعى الكواكب ساهراً
فُرحمأك يامولاي دعوة ضارعٍ
فاسمعي من وعظه كلَّ عبْرَةٍ
أودَّعُ منه راحلاً غيرَ آيبٍ
فمن طالعٍ أخرى الليالي وغاربٍ
يَمُدُّ إلى نُعمأك راحةً راغبٍ
يُترجمُها عنه لسانُ التَّجاربِ⁽¹⁾

فقد صور ابن خفاجة ملامح هذا الجبل وشموخه فضلاً عن أنَّ الشاعر رسم صورة موحية لحجم الجبل وضخامته ، وفاض بوصف وقاره واتزانهِ ، فأجاد الشاعر في رسم سلسلة من الصور الجمالية الفنية حيثُ تبدأ الصورة الشعرية (المجمل الصفات التشخيصية للجبل التي تجسدت في الطموح ، والصلابة ، والعلو ، والوقار ، وباكتمال هذه الصفات يتبلور الجبل مثلاً للقوة التي لا تقهر)⁽²⁾ ، فضلاً عن كونه مظهراً من مظاهر الطبيعة في المدينة الأندلسية.

اما "الوديان" فإنَّها صورة أخرى من صور الطبيعة في المدينة الأندلسية، ولا تختلف طريقة وصف الشعراء لهذه الوديان وما أتصفت به من محاسن، عن وصفهم للجبال، فصور الشعراء هذه الأودية عبر لوحات جميلة، ومن تلك اللوحات ما قاله أبو محمد المالقي (ت 470 هـ) في وصف "وادي العقاب" ، بقوله :

ضحك الزمانُ بحسنه وبهائه
وكانَ إقبالَ الربيع بوصله
وكأنَّما وادي العقاب عشيةً
وكانَ رشحَ الطلِّ في روض الرُّبى
كالصبِّ يضحكُ بعدَ طولِ بكائه
وصلُ الحبيبِ أذاك بعد جفائه
مستمطرٌ دمعي بجريّة مائه
رشحُ الخدودِ بدا بنارِ حيائه⁽³⁾

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 216 - 217 .

(2) لغة الشعر في القصيدة العربية الأندلسية في عصر الطوائف: بشرى محمد البشير، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 1990 ، ص 165 .

(3) الذخيرة: 2م، ق 1، ص 858 .

ويتقدم الشاعر ابن حجاج الاشبيلي *، بقصيدة يذكر فيها أيامه الجميلة التي قضاها بين ربوع وادٍ امتلأ بالأشجار، فرف ظله، وفاحت نسائمه، فيقول:

ألا أيُّها الوادي الذي رفَّ ظلهُ وفاحت خُزاماهُ وغَرَدَ طائرُهُ
أتذكر أيامي بِدوحِكَ والحمى يياكُرنَا منه بِجزعِكَ زائرُهُ
وقد رَقَّ نسج العُتبِ بيني وبينه وما زاد منا الحب عَقَّت سرائرُهُ⁽¹⁾

وقد وصف ابن رشيق "وادي المحمدية" بيت شعري، قال فيه:

تحكي غواربه غوارب برزَلٍ جاءت بغير قوادم وهوادي⁽²⁾

وعلى الرغم من أنَّ هذه الصور الشعرية الجميلة، التي رسمها شعراء الأندلس لهذه الوديان، ألاَّ أننا لم نجد عندهم إلاَّ القليل من الوصف فيها.

وعلى الرغم من قلة هذه القصائد والمقطعات الوصفية، إلاَّ إنها تُفصِّح عن العلاقة التي ربطت بين الشاعر الأندلسي والمكان الذي يعيش فيه، ومدى تأثير ذلك المكان في نفسيته ومشاعره. فالشاعر وانطلاقاً من رؤيته الشعرية قد عبر عما تركته هذه الأمكنة من انطباع في نفسيته، فأخذ يرسم صوراً شعرية باطار وصفي جميل، جاءت ضمن صياغة لغوية بعيدة عن الغموض والتعقيد، ويتوقف الشاعر الأندلسي متأملاً-الأندلس- هذه القطعة الكريمة من الأرض، فيبدع في تصويرها من خلال وصفه للمدينة الأندلسية نفسها، وما امتازت به من أصالة وحضارة، وأيضاً بما تمتعت به من طبيعة فاتنة، فاتجه الشاعر بفنه للتعبير عن هذه الطبيعة السخية الثرية المعطاء، فصور الحقائق، والبساتين، والجدول والأنهار والسواقي، والجبال والوديان، وهو بذلك أراد أن يؤكد جمالية مدن الأندلس وأناقته ومفاتها. فكانت مظاهر الطبيعة هذه هي المعين النثر الذي أخذ منه الشاعر الأندلسي في تصوير القيمة الحضارية لمدن الأندلس، ويجسد معالم طبيعتها ولذلك رسم لنا لوحات شعرية متعددة الألوان، عذبة الألحان فيها حيوية وحركة ولون.

* ابن حجاج الاشبيلي: هو ابو بكر عبد الله بن حجاج الاشبيلي، شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد، وقال عنه صاحب كتاب بغية الملتبس: انه شاعر منتجع مات بعد سنة (430هـ). تنتظر اخباره

في: المغرب: 260/1، وكذلك بغية الملتبس: 445/2

⁽¹⁾ المغرب: 261/1.

⁽²⁾ ديوان ابن رشيق: ص 67.

المبحث الثاني المدينة والأغراض الشعرية الأخرى

أولاً : المدينة والرتاء :

يُعدّ "الرتاء" فن شعري تمتد جذوره الى المشرق، وهو تعبير عن (حالة نفسية تُصيب الشاعر في مناسبة محزنة، تهيج بها كوامن شجونه وتدفعه الى البكاء أو الأسف والحزن، وإنّ هذا البكاء والأسف يحتاجان إلى الإعراب عنهما، فكأنّ الشاعر يعطي برثائه المبرر الذي يدفعه لذلك الحزن والجزع مما تعرض له من خسارة ونكد)⁽¹⁾.

وهذا الفن آخذ في الأندلسيون حذو المشاركة، وقد عرف شعراء الأندلس لونيّن من الرتاء، رتاء الأفراد، ورتاء المدن والممالك، وبرزوا في الثاني بروزاً حتى كادوا أن ينفردوا به.

إنّ (طُبِعَ هذا اللون من الشعر بطابع أندلسي خاص، فعَدَّ أبرز معالم الشخصية الأندلسية، وتفوق على شعر الرتاء بصورة عامة، وعلى قصائد رتاء المدن والممالك في المشرق بصورة خاصة، والأمر يعزى إلى وجود الدوافع والمحفزات التي لم يحصل مثلها في المشرق).⁽²⁾ فعَبَّر شعراء الأندلس بصدق وصراحة عن أسباب سقوط هذه المدن فكانوا يرون في فساد الحكم وطمع حكام الأقاليم وأنانيّتهم وتناحرهم، ونشوب الحروب بينهم ونسيان العدو المتربص بهم، فضلاً عن الترف الشديد الذي انغمس فيه الأندلسيون في حياتهم فكان هذا سبباً رئيساً في ضياع المدن الأندلسية وسقوطها)⁽³⁾.

وقد أحب الأندلسي بلاده وعشق مدنها وأوفى لها لأنه قضى في ربوعها أيامه الوديعه وذكرياته الجميلة، فيظهر هذا الحب لمدينته ويتجسد بوضوح في قصائد شعرية تمجد المدينة الأندلسية، ويتحول هذا الحب للأندلس إلى بكاء إذا ما تعرضت مدينته

(1) أثر البيئة في أدب المدن العراقية في القرن التاسع عشر: د. محمد حسن علي مجيد، المكتبة العصرية، بغداد، 1988، ص 33.

(2) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: د. منجد مصطفى بهجت، دار الكتب، الموصل، 1987، ص 304.

(3) ينظر: الادب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ص 560

للخراب أو الفتن أو العدوان الخارجي، ويبدو أنَّ الأندلسي كان يشعر بحالة الفقد هذه ويتوجس منها، وذلك لأن الظروف السياسية التي ألمت بالاندلس منذ سقوط الخلافة الأموية وأنفراط عقد الدولة الأندلسية، وتوزعها على شكل ممالك ودويلات صغيرة في أوائل القرن الخامس الهجري... أدت هذه الظروف إلى حالة من التوجس والخوف المتسلط على الحواس من العدوان الخارجي المتربص بهم بآستمرار من أعالي جبال الشمال⁽¹⁾.

وبحلول القرن الخامس الهجري ونتيجة للأوضاع السياسية المضطربة وضعف الحكم، تفرقت كلمة الأندلسيين شيعاً وأحزاباً وأدت كل هذه الظروف إلى التخاضع والتناحر فيما بينهم ، وأيضاً إلى أن تتساقط المدن الأندلسية بيد الأعداء الواحدة تلو الأخرى .

وهذه المصائب العامة كانت أحد ابرز عوامل تطور فن الرثاء في الاندلس، فالأندلسيون لم يقفوا فيه (عند حد رثاء موتاهم من الملوك والرؤساء والأقارب والأحباب، وإنما نراهم ولأسباب خاصة بهم يتوسعون فيه ويطورون مفهومه وذلك برثاء مُدُنهم) (2) .

ولقد شهدت الأندلس في هذه الفترة - القرن الخامس الهجري - تهاوي عروش الدول والممالك عرشاً بعد عرش ، حتى أصبحت الأندلس وممالكها ذكرى مؤلمة . وكان حرياً بهذه الصدمة أن تنتج شعراً يتشح بالمرارة والدموع الغزار ، ويتسم بالصدق وعمق التأثير لأنه ناجم عن دوافع قوية عايشها الأندلسي .

فبكاء الأندلسي على مدينته ورثاؤه لها ، أصبح غرضاً من أغراض الشعر التي ظهر فيها انعكاس البيئة الأندلسية بشكل مميز ، ويُعد (بكاء الأندلسيين لمَدُنهم أكثر حرارة ، وهو بكاء تمتزج العاطفة الدينية فيه بالعاطفة الوطنية امتزاجاً يُحيله إلى استصراخ للمسلمين كي يستنفذوا من براثن الأسبان المدن المفقودة) (3) .

(1) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: د. محمد مجيد السعيد، ط2، الدار العربية

للموسوعات، بيروت-لبنان، 1985، ص307.

(2) الادب العربي في الأندلس : ص 319 .

(3) فصول في الشعر ونقده : ص 162 .

ومن أولى النكبات التي أصابت الأندلسيين هي سقوط مدينة "بربشتر" * سنة (456هـ) ومع أنَّ هذا الحدث ينطوي على أهمية بالغة لأنه كان (بمثابة أجراس الخطر ومع ذلك لم تظفر من الشعراء الكبار... بما يليق بها من استشعار النكبة، وإثارة الحماسة في جماهير المسلمين لإنقاذ بربشتر)⁽¹⁾. وقد ترك سقوط المدينة، جُرحاً بليغاً ظل ينزف وحزناً في (كتابات الأندلسيين) ⁽²⁾.

ولكن أكثر هذه الكتابات لايتعدى أن يكون صيحات من الفقهاء الذين أشتشعروا الخطر النازل بالوطن، (فقد سحت قرائح عدد من الفقهاء الشعراء في وصف تلك النكبة، بعد أن تأججت عواطفهم لعظم المأساة) ⁽³⁾

إنَّ سقوط مدينة بربشتر بيد الأعداء قد أثارَ مشاعر الفقيه الزاهد ابن العسال** (ت487هـ)، فرسم لنا صورة الرعب المتفشي وجرائم الغزاة البشعة، بقوله:

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ	لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الْإِصْمَاءُ
هَتَكُوا بَحْثِيهِمْ قُصُورَ حَرِيمِهَا	لَمْ يَبْقَ لِأَجْبَلٍ وَلَا بَطَحَاءُ
جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا	فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شَعَوَاءُ

وبسقوط المدينة بيد الأعداء تسقط المعالم النبيلة فيها، وتهتك ستور العذارى بعد أن كانت ترفل بالصونِ، فيصور الشاعر ذروة المأساة التي تثير الأحاسيس، فيقول:

* بربشتر: هي حصن على نهر مخرجه من عين قريبة منها، وهي من امهات مدن الثغر الفائقه في الحصانة. ينظر: الروض المعطار: ص90 ؛ ومعجم البلدان: 1/370؛ وصفة جزيرة الاندلس: ص39.

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف: ص317.

(2) ينظر: فصول من رسالة ابي حفص الهوزني (ت460هـ) في الذخيرة: م1، ق2، ص83-89، وتأريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص144-146. ولمزيد من الاطلاع حول سقوط مدينة بربشتر. ينظر: نفح الطيب: 4/449م1، وكذلك الذخيرة: م1، ق3، ص179.

(3) الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص313.

** ابن العسال: هو أبو محمد عبد الله بن فرج ويعرف بأبن العسال، عالم بالحديث واللغة والأدب والتفسير كان شاعراً توفي سنة (487هـ). تنظر ترجمته في: المغرب: 2/21، والصلة: 2/435؛ وكذلك رايات المبرزين: ص81.

كم مَوْضِعٍ غنموه لم يُرَحَمَ به
ولكم رضيعٍ فَرَّقُوا من أُمِّهِ
ولرُبَّ مولودٍ أبوه مُجَدَّلٌ
ومصونةٌ في خدرها محجوبةٌ

طفلاً ولا شيخاً ولا عذراء
فَلَهُ إليها ضَجَّةٌ وبَغَاءٌ⁽¹⁾
فَوْقَ الثُّرابِ وفَرَشُهُ البيداء
قد أبرزوها مالها أَسْتخفاء⁽²⁾

إنَّ الشاعر الفقيه ابن العسال من خلال هذه الأبيات الشعرية، يعرض صورة للأعداء وهم يرتكبون الآثام بحق الطفل الرضيع، والشيخ العاجز، والفتاة المصونة. فالطفل الرضيع يفرق عن أمه فيا لها من صورة توجي بالآلم، والشاعر عندما جسد هذه الصورة المؤلمة كان نتيجة لشعوره بالضياح وذلك لضياح الأمن والطمأنينة والسكينة، وهذه القطعة الأدبية أجدها لم تقم على فنون البديع وإنما هي صورة ادبية مستوحاة من الواقع لكنها صيغت بأسلوب شعري وأدبي.

فهذه المدينة التي تنعم بالخير وتحتضن أبناءها بحنان كالأم الحانية على وليدها. بضياحها وسقوطها يضع الإحساس بالدعة والسكينة والاستقرار. بعد أن صور ابن العسال سقوط مدينة "بريشتر"، تُطالعنا مدينة أندلسية أخرى كُتِبَ لها السقوط بيد الأعداء، وهي مدينة "طليطلة". (ولم يحدث في تاريخ الأندلس أن تسقط مدينة كبيرة مثل طليطلة، التي وصفت بأنها دار الملك بالأندلس، كما لم يحدث أن تسقط مدينة مثلها إلى غير رجعة، مثلما حصل معها عام (478هـ))⁽³⁾.

وقد اكتسب هذا الحدث أهمية بالغة في تاريخ العرب في الأندلس، أهتزت له النفوس وهلعت له القلوب، بوصفها أول حاضرة يستولي عليها الأسبان، (فقد انتزعها ألفونسو

⁽¹⁾ ما يشبه هذا المعنى قول ابن الرومي في ديوان ابن الرومي: تحقيق: كامل كيلاني، مطبعة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، 423/3

كم رضيعٍ هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام

⁽²⁾ الروض المعطار: ص 90 - 91 ؛ وكذلك صفة جزيرة الأندلس : ص 40-41 .

⁽³⁾ الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص 315.

السادس ملك قشتالة، من أيدي المسلمين في منتصف محرم سنة (478هـ)، بعد أن حاصرها سبع سنين) (1) .

وإنّ هذه الكارثة بسقوط هذه المدينة العظيمة فهي من حيث النتائج (أعظم خطراً من سابقتها بكثير، وبها يرتبط التحول الخطير الذي تم في التأريخ الأندلسي فأدى إلى دخول المرابطين، ثم إلى سقوط دول الطوائف واندثارها) (2).

فهذه المدينة المنيعه لم يخسرها المسلمون في حربٍ أو قتالٍ، وإنما ذهبت نتيجة خدعة مأكرة من ألفونسو السادس واستسلام مهين من القادر يحيى بن ذي النون، فكان سقوط طليطلة محنة حقيقية لما تمثله هذه المدينة من ثقل في حياة الأندلس السياسية والشعرية (3) .

وعلى الرغم من فداحة الموقف وجسامة الخطب، إلا أنّ ما وصلنا من رثاء طليطلة قليل لا يتناسب مع هول الكارثة ويعلل الدكتور الطاهر أحمد مكي ذلك بقوله : (بأنّ الحرب كانت ماتزال سجالاً، وإنّ المسلمين ثاروا لهزيمتهم في معركة طليطلة قبل مضي عام واحد بانتصار حاسم ورائع في معركة الزلاقة) (4) .

والذي أعتقده أنّ الشعراء قالوا في سقوط مدينة "طليطلة" قصائد شعرية توضح هذه المأساة ، إلا أنّ الأحوال المضطربة أدت إلى فقدان هذه القصائد . فمن غير المعقول أنّ لا يعبر الأندلسي عن إحساسه حالة الفقد والشعور بالآلم بقصائد ومقطعات شعرية ، تعبر عن حالته التي تثير المشاعر والاحاسيس فكان لابد له من ان يبكي مدينته، فهو بهذا البكاء إنّما يبكي اهله واصحابه ، ودياره ومرباع صباه . وكان لابد للشعر الأندلسي ان يرافق مسيرة المدينة عبر مراحلها كلها، مراحل قوتها وحصانتها، ومراحل ضعفها وإنحسارها .

(1) في الشعر الأندلسي: ص 139.

(2) تأريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين): ص 147.

(3) ينظر: دراسات أندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة : د. الطاهر أحمد مكي ، ط1 ، دائرة المعارف، القاهرة ، 1980 ، ص 253 .

(4) ملحمة السيد ، ط1 ، دار المعارف ، مصر ، 1970 ، ص 150 .

وقد حفظت لنا كتب الأدب ثلاثة أبيات للشاعر ابن العسال في مدينة "طليطلة" لأنها (بلده ومسقط رأسه، ومنها أخرج عندما استولى عليها الروم، ولكن صوته في هذه المرة غريب أجش في الأسماع، لأنه بدلاً من أن يبكي على ما حل ببلده، يحذر الأندلسيين من الإقامة في بلدهم ويدق لهم ناقوس الخطر، ويقول لهم: الرحيل الرحيل)⁽¹⁾ .
فقال الشاعر مخاطباً أهل الأندلس:

يا أهل أندلس حُثُّوا مطيِّكُمُ فما المُقامُ بها الامِنُ الغَلَطِ
الثوبُ ينسلُّ من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحن بين عدوٍّ لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيّات في سَفَطِ⁽²⁾

لقد أسأثرت هذه المقطوعة باهتمام الباحثين الأجلاء، بما توحيه من موقف انهزامي سلبي على نحو ما ذكره الدكتور نافع محمود بقوله : ومع ما نلمسه في هذه القطعة من جمال صياغة وحسن تصوير الا انها انطوت على عمق خوف وضعف صمود⁽³⁾ .
إلا أن الدكتور إحسان عباس يعتبر هذا (اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يؤمئذ مبالغة في التنبيه والتذكير)⁽⁴⁾ .

ولم يتسرع الدكتور سعد اسماعيل شلبي في إصدار حكم خاطئ، بل اعتبر قول الشاعر الفقيه (بمثابة التحذير وتجسيم الخطر لتتحرك النفوس وتهب دفاعاً عن طليطلة ، فإنَّ الدفاع عنها دفاع عن النفس ، فالخطر لا يلبث أن يستشري حتى يصيب المتقاعسين، ويؤكد هذه النظرة أنَّ الشاعر الزاهد عندما أنشد هذه الأبيات كان بغرناطة)⁽⁵⁾ . وهذا يعني ان الشاعر ابن العسال لم يكن يفكر بالإنهزام لأنه أصلاً كان خارج حدود مدينة " طليطلة " عندما سقطت المدينة بيد الأعداء .

(1) تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين):ص147 .

(2) الذخيرة: م1، ق2، ص250 مع اختلاف في الرواية وهذا لايؤثر على المعنى؛ وكذلك نفح الطيب: 352/4؛ وكذلك وفيات الاعيان: 28/5.

(3) ينظر: الوطن ودلالته في الشعر الاندلسي : د. نافع محمود خلف، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 1990، ص 140 .

(4) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص 147 .

(5) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر : ص 318 .

وقد عبّر الدكتور الطاهر أحمد مكي عن رأيه حول موقف الشاعر الزاهد، فيقول: (ولو فهمنا الأبيات على ظاهرها لقلنا إنَّها تمثل موقفاً أنهمازياً ، ولكن هذا اللون من التعبير السلبي ، يستهدف في الحقيقة المبالغة في الند والتذكر) ⁽¹⁾ بعد عرض هذه الآراء القيمة أجد أنَّ الشاعر الفقيه ابن العسال كانت عقيدته توحى له بأنَّ حب الأوطان والديار من الايمان فكان محباً لمدينته " طليطلة " ونتيجة لحبه وتعلقه الشديد هذا قال هذه المقطوعة .

وعندما تسقط مدينة عظيمة مثل مدينة " طليطلة " بيد الأعداء ، كان من الطبيعي ان يرثيها الشعر الأندلسي تفجعا وبكاء لما حل بالأندلسيين من تشرد وهوان فقد أورد المقرئ في كتابه نفح الطيب ⁽²⁾ ، قصيدة للشاعر الوقشي * (ت 489 هـ) تبلغ اثنين وسبعين بيتاً تعبر عن حالة الاسى والحزن على هذه المدينة، ومطلعها :

لثُكِّكِ كيف تَبَنَسِمُ الثُّغُورُ	سُروراً بعدما سَبَيْتُ ثُغُورُ
—	—
طليطلةُ أباحَ الكفرُ منها	حماها إنَّ ذا نبأ كبيرُ
فليس مثالها إيوانُ كسرى	ولا منها الخورنقُ والسديرُ
مُحصنةٌ مُحسَّنةٌ بعيدٌ	تناولها ومطابها عسيرُ
ألم تكِ معقلاً للدين صعباً	فذلُّه كما شاء القديرُ

ويمضي الشاعر متحسِّراً على ضياع " طليطلة " لكنه رغم ذلك لم ينقطع عن استنهاض الهمم ، والتطلع الى ظهور رجل أصيل وقائد غيور ، يحرر المدينة من أسرها :

الا رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ	به مما تُخَاذِرُ نَسَاجِيرُ
يكسر إذا السيوف تناولته	وأيّن بنا إذا ولّتْ كُرُورُ

⁽¹⁾ دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة : ص 254 .

⁽²⁾ تنظر القصيدة كاملة في : نفح الطيب : 483/4 وما بعدها .

* الوقشي : هو هشام بن احمد بن خالد بن هشام الكناني ، يعرف بالوقشي ويكنى بأبي الوليد ، كاتب قاضي ، مهندس ، اديب له شعر جيد ، من اهل " طليطلة " ولد في " وقش " وولي قضاء " طليطلة " من اعمال مدينة " طليطلة " ، توفي سنة (489 هـ) تنظر ترجمته في : الاعلام : 84/8 ؛ وكذلك وفيات الاعيان : 1 / 246 ، والصلة : 938/3-939 ؛ وكذلك الخريدة : 55 / 2 .

ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمحُ : ما هذا الخطيرُ
بيادرُ خرقَها قبلَ اتساعِ لخطبٍ منه تنخُ سفُ البُدورِ
عظيمٌ ان يكونَ الناسُ طرّاً بأندلسٍ قتيلاً أو أسيرُ

إنَّ الشاعر يدعو إلى الكفاح والاستشهاد من أجل الوطن والديار، والكفاح ضد الاعداء ، وان دعوة الشاعر الى حماية المدينة من الاعداء ، والتضحية من أجلها خير دليل على عواطفه النبيلة السامية .

وبدت روعة هذه القصيدة من خلال طول نفس الشاعر ، الذي رسم لنا الأحداث بدقة وأمانة، وايضاً من خلال معانيها السهلة وألفاظها الواضحة الجزلة .

وقد أهنَز الإسلام بأسره لسقوط مدينة " طليطلة " ، (وادرك العقلاء سوء المصير لأنَّ ذهاب هذه القاعدة من أيدي المسلمين كان مقدمة لحوادث كبار توقعوها ولم يخطئوا في حسابهم لها)⁽¹⁾ .

وبعد سقوط مدينة "بربشتر" ومدينة " طليطلة " ، تسقط مدينة "بلنسية" ويعد سقوطها ثالث الكوارث الكبرى التي حلت بالمسلمين في الأندلس في عصر الطوائف . فقد استسلمت سنة (487 هـ) الى قوات الأسبان بعد عامين من الحصار عانت فيهما ألوان الذل والهوان⁽²⁾ .

وهذه المدينة الرائعة بجمالها وبساتينها عندما سقطت بيد "القمبيطور" بكأها الشعر بكاءً حاراً ، ورثاها عدد من الشعراء المرموقين وذلك لأن بلنسية تُعدُّ موطناً لمشاهير شعراء الأندلس منهم ابن خفاجة، وابن الزقاق ، والرصافي ، وابن الأثير وغيرهم⁽³⁾

فهناك العديد من القصائد والمقطعات التي نظمت في رثار " بلنسية " فكانت هذه المدينة تتمتع بالقسط الوافر الزاخر من ذلك الميراث الأدبي المتمثل بقصائد قيلت للاستنفار والاستصراخ ، أو التي نظمت في رثائها وبكاء مجدها الآفل⁽⁴⁾ ، إلا أنَّ هذه

(1) تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي : د. علي محمد حمودة ، ط1، دار الكتاب العربي، مصر ، 1957 ، ص267 .

(2) ينظر : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي : ص 234-235 .

(3) ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس : ص 321 .

(4) ينظر : المصدر نفسه : ص 319 .

القصائد التي نظمت لرثاء " بلنسية " قد كُتِبَ لها الضياع ، وخير دليل على ما أقول كتاب "البيان الواضح في الملم الفادح " لأبي عبد الله بن علقمة الصدي* (ت 509 هـ).
وتُطالِعنا مقطوعتان في رثاء " بلنسية الاولى لابي عبد الله بن خلصة
البلنسي** (ت 470 هـ) حيث وقف على أطلال مدينة " بلنسية " ، وقد تغيرت معالم الجمال
فيها ، وزال حُسنها وبهاؤها ، فقال :

وَرَوْضَةٌ رُزُّهَا لِلْأَنْسِ مُبْتَغِيًّا فَأَوْحَشْتَنِي لِذِكْرِ سَادَةٍ هَلَكُوا
تَغَيَّرَتْ بَعْدَهُمْ خَرِبًا وَحَقًّا لَهَا مَكَانَ نَوَارِهَا أَنْ يَنْبُتَ الْحَسَكُ
لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ قَالَتْ لَفَقْدِهِمْ "بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا"⁽¹⁾

وعلى الرغم من قلة هذه الابيات إلا أنَّ الشاعر وفق في هذه المقطوعة المملوءة
بعاطفة حزينة ، في التعبير عن حزنه على مدينته بعد أن بُدِلَ حسنُها وجمالها.
أما المقطوعة الثانية للشاعر ابن خفاجة يرثي فيها مدينته "بلنسية"، بقوله :

عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ الْعِدَى يَادَارُ وَمَحَا مَحَاسِنَكَ الْبَلَى وَالنَّارُ
وَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكَ نَاطِرُ طَالَ أَعْتَبَارُ فَيْكِ وَأَسْتَعْبَارُ
أَرْضٌ تَقَادَفَتْ الْخُطُوبُ بِأَهْلِهَا وَتَمَحَّضَتْ بِخَرَابِهَا الْأَقْدَارُ

* ابو عبد الله بن علقمة الصدي: هو محمد بن الخلق بن الحسن بن اسماعيل الصدي ، المعروف بابن
علقمة ، مؤرخ اندلس من اهل بلنسية . تنتظر ترجمته في : الاعلام : 115/6 .

** ابو عبد الله بن خلصة البلنسي : هو محمد بن خلصة الشذوني الضرير ، كان أحد العلماء بالكلام
وله حظ من النثر والنظام . تنتظر ترجمته في : الذخيرة : م 1 ، ق 3 ، ص 322 ؛
والمغرب: 393/2؛ وكذلك نفح الطيب: 156/4 .

⁽¹⁾ الروض المعطار : ص 97 . والشطر الثاني من البيت الاخير تضمين لشطر بيت شعري لزهير بن
ابي سلمى ، في : شرح ديوان زهير بن ابي سلمى : صنعة . ابو العباس احمد بن يحيى الشيباني،
تحقيق : احمد زكي العدوي ، دار الكتب المصرية، القاهرة ، 1944، ص 164 :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا وَرَوْدُكَ أَشْتِيَاقًا أَيَّامًا سَالَكُوا

كَتَبْتُ يَدُ الْحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا " لا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدَّيَّارُ دِيَارُ" (1)

إنَّ الشاعر ابن خفاجة من خلال قطعته الشعرية هذه ، يقف متحسراً على دياره التي عاثت بها يد الأقدار ومحت محاسنها البلى والنار وصارت إلى الخراب ، فحز في نفسه ما حدث "بلنسية " من دمار على يد جحافل الأسبان، فعبّر عن ذلك بهذه القطعة المملوءة بالحزن والاستنكار والاستهجان .

ويستبعد الدكتور إحسان عباس أنَّ يكون الشاعر ابن خفاجة قد اكتفى بهذه الأبيات الأربعة لثناء " بلنسية " ، بقوله: (وأقدر أنَّ قصيدة ابن خفاجة كانت أكثر أبياتاً ، ولم يبق منها إلا هذه الأربعة ،ذلك أنَّ بلنسية كانت جزءاً من معاهد الشاعر ، وعهوده وأم وطنه " شقر " ، فلا بد أن يكون ضياع بلنسية قد حَزَّ في نفسه) (2). والحقيقة إن الشاعر لم ينظم هذه الابيات بعد سقوط مدينة "بلنسية " مباشرة ، وإنما بعد خروج الاعداء منها، لذلك قال هذه الأبيات الشعرية التي جاشت بها قريحته وفاضت بها شاعريته .

وترى الباحثة أنَّ الشاعر لو نظم هذه الأبيات الشعرية بعد سقوط المدينة بفترة وجيزة ، لكانت قصيدة طويلة معبرة عن وقائع الاحداث ودقائق الامور في تلك الفترة. وعندما سقطت مدينة " بلنسية " عانى اهلها (من أهوال الاحتلال مالم يعانیه أحد قبلهم ، ذلاً وجوعاً ... ومع ذلك فإن سقوط بلنسية لم يكن له من الصدى بين الشعراء ، ماكان لسقوط طليطلة) (3) .

وفي حدود سنة (464 هـ) تسقط مدينة "صقلية " فكانت مصيبة الشاعر ابن حمديس كبيرة ، لضياع مدينته ووطنه ، فحزن عليها وبكاها بأروع قصائده وأكثرها أصالة ، قائلاً قصيدة مطلعها :

لأمرٍ طويلٍ الهمُّ نَزَجِي العَرَامِسا وتطوي بنا أخفافُهنَّ البَسَابِسا

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 354 . (وهذه الابيات قيلت بعد خروج الغزة من بلنسية سنة 495 هـ). وعجز البيت الشعري الاخير للشاعر ابي تمام في : ديوان ابي تمام : شرح الخطيب التبريزي، تحقيق : محمد عبده عزام ، ط2، دار المعارف ، مصر - القاهرة ، (د.ت) ، 166/2 حيث يقول :

لا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدَّيَّارُ دِيَارُ خَفَّ الهوى وتولت الأوطارُ

(2) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : ص 150 .

(3) ملحمة السيد : ص 154 .

— — —

أَعَاذَلُ دَعْنِي أَطْلِقِ الْعِبْرَةَ الَّتِي عَدِمْتُ لَهَا مِنْ أَجْمَلِ الصَّبْرِ حَابِسَا
فَإِنِّي أَمْرُو آوِي إِلَى الشَّجَنِ الَّذِي وَجَدْتُ لَهُ فِي حَبَّةِ الْقَلْبِ نَاحِسَا
لَقَدَّرْتُ أَرْضِي أَنْ تَعُودَ لِقَوْمِهَا فَسَاءَتْ ظُنُونِي ثُمَّ أَصْبَحْتُ يَائِسَا
وَعَزَّيْتُ فِيهَا النَّفْسَ لِمَا رَأَيْتُهَا تَكَابَدُ دَاءً قَاتِلَ السَّمِّ نَاحِسَا

— — —

صَقْلِيَّةٌ كَادَ الزَّمَانُ بِلَادَهَا وَكَانَتْ عَلَى أَهْلِ الزَّمَانِ مُحَارِسَا
فَكَمْ أَعَيْنَ بِالْخَوْفِ أُمْسَتْ سَوَاهِرًا وَكَانَتْ بِطَيْبِ الْأَمْنِ مِنْهُمْ نَوَاعِسَا
أَرَى بَلَدِي قَدْ سَامَهُ الرُّومُ ذَلَّةً وَكَانَ بِقَوْمِي عِزَّةٌ مَتَقَاعِسَا

في هذه القصيدة التي تفيض حباً وحنناً على المدينة المنكوبة ، والوطن الضائع انتفض الشاعر ابن حمديس منتحباً وباكياً على مدينة " صقلية " فعبر الشاعر عن ألمه وحسرتة وأيقن أن ما قُدِّرَ عليه هو الغربة المستمرة .

وبهذا نلمس أن الشاعر الاندلسي عندما يبكي ويتحسر على مدينته ، لم يكن بكائه على طلل ، وتحسره على جماد ، إنما هو بكاء وتحسر على قيم ومبادئ كبيرة في نفس الشاعر . ولأن للمدينة في نفسه حباً واعتزازاً كبيرين ، فهي تمثل رمزاً للبطولة والعروبة ، والشموخ والآباء .

فكان تجاسر الأعداء على المدينة الأندلسية ، إنما هو تجاسر على كل تلك القيم النبيلة ، وإن سقوط المدينة بيد الأعداء له أثر مؤلم وإهانة قاسية للإنسان بصورة عامة ، وللإندلسي بصورة خاصة ، فلم يجد إلا تلك الصيحات الشعرية الحزينة للتعبير عن إحساسه الوطني الصادق ، ويستمر ابن حمديس بإطلاق صيحات الألم ، بقوله :

وَأُضْحْتُ لَهُمْ سَرْقُوسَةً دَارَ مَنْعَةٍ يَزُورُونَ بِالْدِيرِينَ فِيهَا النُّوَاوِسَا
مَشَوْا فِي بِلَادِ أَهْلِهَا تَحْتَ أَرْضِهَا وَمَا مَارَسُوا مِنْهُمْ أَبِياً مُمَارِسَا
وَلَوْ شَقَّقْتُ تِلْكَ الْقُبُورُ لَأَنْهَضْتُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ أَسْدًا عَوَابِسَا
وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْغِيلَ إِنْ غَابَ لَيْثُهُ تَبَخَّرَ فِي أَرْجَائِهِ الذُّئْبُ مَائِسَا⁽¹⁾

(1) ديوان ابن حمديس : ص 274 - 276 .

على أنَّ ثمة قصائد ومقطعات شعرية نظمت في رثاء المدن الأندلسية ، في فترة الفتنة سنة (401هـ) منها قصيدة الشاعر ابن شهيد ، وقصيدة ابن حزم في رثاء مدينة " قرطبة " ، وقصيدة لأبي جعفر بن جرج وقطعة للسميسر في رثاء مدينة " الزهراء " ، وقصيدة لأبي اسحاق الألبيري التي رثى فيها مدينة " البيرة " .

إلا أنني أثرت ادراج هذه القصائد والمقطعات الشعرية مع قصائد الرثاء التي قيلت في المدن الأندلسية في فترة الطوائف ، لما تحمله من معاني صادقة ونبرات حزينة ، فكانت تعد (أعمق تعبيراً عن الأحوال التي أنتابت الوطن وأدق تصويراً لها ، وفيها نرى ما جرى على الأندلس من محن ومصائب ، وما لقيه الناس من قتل وظلم)⁽¹⁾ . وأجد من الضرورة الاقرار على أنَّ هذه المدن لم تسقط بيد عدو أجنبي ، إنما سقطت بسبب ظروف داخلية أدت إلى تغيير معالمها .

وعندما خربت مدينة " قرطبة " على يد البربر ، فإنها لم تغب عن مشاعر ابن حزم وأحاسيسه فرثاها بقصيدة تتم عن تأثر عميق ممزوج بحسرة وألم على تلك الايام التي تنعم فيها الشاعر ، وهو يعيش " بقرطبة " مسقط رأسه ، لذا وقف الشاعر على أطلالها باكياً عليها وعلى اهلها ، قائلاً :

سلام على دارِ رَحْلنا و غُودِرْ	خلاء من الأهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا	ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيادار لم يقفزك منا إختيارنا	ولو أننا نستطيع كُنت لنا قبرا
ولكن اقداراً من الله أنفدَتْ	تُدَمِّرنا طوعاً لما حلَّ او قهرا

ثم يطلب الشاعر السقيا لهذا الأطلال ، بقوله :

وياخير دارٍ قد تُركت حميدة	سَقَّتكَ الغوادي ما اجلّ وما أمرا
ويا مُجتلى تلك البساتين حفها	رياض قوارير غدت بعدنا غبرا
ويا دهر بَلَّغ ساكنيها تحيّي	ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النهر ⁽²⁾

(1) الوطن ودلالاته في الشعر الأندلسي : ص 109 .

(2) شعر ابن حزم الأندلسي: مجلة المورد ،م(26) ، ع(4) ، 1998، ص72 .

ومضى الشعر يسجل أحداث هذه الفتنة وما نتج عنها ، فيصور لنا الشاعر ابن شهيد
ملاح الظروف القاهرة والمصائب التي مرت على مدينة "قرطبة" بقصيدة مطلعها:

مافي الطلول من الاحبة مخبرُ	فمن الذي عن حالها نستخبرُ؟
لاتسألنَّ سوى الفراقِ فإنَّه	يُنْبِيكَ عنهم أنْجِدُوا أمْ أَعُورُوا
جارَ الزَّمانِ عَلَيْهِمْ فَتَقَرَّقُوا	في كُلِّ نَاحِيَةٍ وبَادَ الْأَكْثَرُ
جَرَّتِ الخُطوبُ على محلِّ ديارِهِم	وَعَلَيْهِمْ فَتَغَيَّرَتْ وَتَغَيَّرُوا
فَدَعِ الزَّمانَ يصوغُ في عرصَاتِهِم	نُوراً تَكَادُ له القُلُوبُ تُثَوِّرُ
فلمثلِ قُرْطُبةٍ يقلُّ بُكاءُ مَنْ	يَكِي بعينِ دَمْعِهَا مَنَجَّرُ

إنَّ الشاعر وقف أمام أطلال الاحبة مستقهماً عنهم ، وعندما لم يجد جواباً علل غيابهم
بظلم الزمان الذي يُفَرِّقُ الأحباب ، ثم يمضي الشاعر يتحدث عن أيام المدينة السالفة حين
كانت قصورها وجوامعها وأسواقها تَعُجُّ بالناس عامرة باجتماع شمل اهلها، فيقول:

دارُ أقالَ الله عشرة أهْلَها	فَتَبَرَّروا وَتَغَرَّبُوا وَتَمَصَّروا
في كُلِّ نَاحِيَةٍ فَرِيقٌ مِنْهُمْ	مُتَقَطَّرٌ لِفِرَاقِها مُتَحَيَّرٌ
عَهْدِي بها والشَّمْلُ فيها جَامِعٌ	مِنْ أَهْلِها وَالْعَيْشُ فيها أَخْضَرُ

ثم يحاول الشاعر ان يدخل في تصوير دقيق لعمارة المدينة وقصورها، ويبعث فيها روح
الحركة فيقول :

والْقَصْرُ قَصْرُ بني أُمَيَّةٍ وإِفْرُ	من كُلِّ أَمْرٍ والخِلافَةُ أَوْفَرُ
والزَّاهِرِيُّ بِالْمَرَاكِيبِ تَزْهَرُ	والعَامِرِيُّ بِالْكَواكِبِ تُعْمَرُ
والجامعُ الأعلى يَغصُّ بِكُلِّ مَنْ	يَتَلَوُّ وَيَسْمَعُ ما يَشَاءُ وَيَنْظُرُ
ومسالكُ الأسواقِ تَشْهَدُ أَنَّها	لا يَسْتَقِلُّ بِسالكِها المَحْشَرُ (1)

(1) تنظر القصيدة كاملة في : ديوان ابن شهيد : ص 109 - 111 .

لقد وقف ابن شهيد امام مدينة " قرطبة " راثياً لها ، وكأنه يندب شخصاً عزيزاً فقدّه،
وتكاد هذه القصيدة تحمل جميع المعاني التي يركز عليها الرثاء من ألم وحسرة وندب
وتوجع .

وقد بكى مدينة " قرطبة " شاعر آخر ، جاعلاً من حسن المدينة ونضارتها سبباً في
اصابتها بعين الحسد ، فقال :

ابكٍ على قرطبة الزين	فقد دَهَتْهَا نظَرُ العَيْنِ
أنظرها الدهر بأسلافه	ثمَّ تقاضى جملة الدَّينِ
كانت على الغاية من حُسْنِها	وعَيْشِها المستَعْدْبِ اللَّيْنِ
فأنعكس الأمرُ فما إن ترى	بها سروراً بين أثْنينِ
فأغْدُ وِدْعِها وسِرْ سالماً	إن كنتَ أزمعتَ على البَيْنِ (1)

ويتقدم الشاعر أبو اسحاق الالبيري ، معاتباً أهل زمانه الذين يضيعون الفروض
ويغفلون عن الواجب ، جاعلاً كثرة الذنوب والمعاصي سبباً في حدوث الفتنة وما لحقها
من خراب ، فقال :

يُضَيِّعُ مفروض ويغفل واجِبُ	وإني على اهل الزمَّانِ لعَاتِبُ
أَتَدْبُ أَطْلَالَ البِلَادِ ولا يُرى	لِالبَيِّرةِ مِنْهُمْ على الأرضِ نَادِبُ
على أَنَّهَا شَمْسُ البِلَادِ وأنْسُها	وكلَّ سِوَاهَا وَخَشَّةٌ وَغَيَاهِبُ
وكم من مجيب كان فيها لصارخٍ	تُجَابُ إلى جدوى يَدِيهِ السَّبَاسِبُ

ويستمر الشاعر الى ان يقول :

لَعَهْدِي مُبِیْضَةُ اللَّيْلِ فَاتَدَتْ	وأيامُها قد سَوَدَّتْهَا النَّوَائِبُ
وما كان فيها غير بُشْرَى وأنعم	فلم يَبْقَ فيها الآنَ إلاَّ المصائبُ (2)

(1) البيان المغرب: 110/3 .

(2) تنظر القصيدة الكاملة في ديوان ابي اسحاق الالبيري : 85-88 .

وقصيدة الألبيري هذه تقع في خمسة وعشرين بيتاً ، وإنَّ الألم والحسرة باديان في اغلب أبياتها ، ويبين الشاعر أهمية مدينة " البيرة " التي حفلت بالفضائل فهي مطمح الآمال بعلمائها الذين أفادوا طلاب العلم والمعرفة ، وهي شمس البلاد وماعداها وحشة .

ثم يرتفع صوت الشاعر السميسر نادباً أطلال مدينة "الزهراء " التي دمرها أصحاب الفتنة سنة (402هـ) ، فيقف الشاعر يتحسر على معالم المدينة التي تمثل (رمزاً من رموز الحضارة الاندلسية ، ويخاطبها مخاطبة الأحياء بصيغة الحوار ويسألها أن ترجع إلى ما كانت عليه من جمال وبهاء وتألّق حضاري)⁽¹⁾

فيقول الشاعر نادباً :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِراً	مُعْتَبِراً أَنْدُبُ أَشْهَاتاً
فَقُلْتُ : يَا زَهْرًا الْإِفْرَاجِي	قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مِنْ مَاتَا ؟
فَلَمْ أزل أَبْكِي وَأُبْكِي بِهَا	هِيَهَاتَ يَغْنِي الدَّمْعُ هِيَهَاتَا
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى	نَوَادِبُ يَنْدُبْنَ أَمْوَاتَا ⁽²⁾

إنَّ السميسر في هذه الابيات الشعرية التي بكى فيها مدينة " الزهراء " تظهر براعته ولاسيما في البيت الاخير ، وقد اعتبر الدكتور بدير متولي ، إنَّ التشبيه الوارد فيه محكم ، (وخيال الشاعر واسع حين رأى أن الآثار تتكر رجوع الموتى ، ثم قيامها لتندب ساكني الزهراء)⁽³⁾

وهذا مما يدل على سعة خيال الشاعر ، ويندفع أبو جعفر بن جرج نادباً مدينة "الزهراء" ايضاً، بقوله:

(1) الوطن ودلالته في الشعر الاندلسي : ص 111 .

(2) السميسر حياته وشعره : ص 132 ، وكذلك الشاعر الاندلسي السميسر الالبيري : ص 286 . وكذلك نفح الطيب : 527/1-528 . وقد وردت هذه الابيات في ملامح الشعر الاندلسي : ص 277 على انها في رثاء مدينة " قرطبة " ، والصحيح انها في رثاء مدينة " الزهراء " كما يذكر الشاعر ذلك في ابياته .

(3) قضايا أندلسية ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1964 ، ص 326 .

* أبو جعفر بن جرج: هو أحمد بن جرج وكان وزيراً لابن عمار لما ثار بمرسية، وإن بيت بني جرج من بيوتات قرطبة النبوية.تتظر ترجمته في:الذخيرة:م1، ق3، ص 448 ؛ وكذلك المغرب:2/305 .

سقى الله زهراء القصور وإن بدت لعينيك غبراء الدثور حيا المزن
فلاجو كالجو الصقيل بأفقنا وذاك الهواء الغض كالملمس اللدن
على قدر ما أعطى العيون من الحسن سناها غدت تعطي النفوس من الحزن
وكم قد حنت تلك المنى أهلها المنى فأضحت وما غير الأسى رائد اللحن

ويقف الشاعر ليصور لنا بكل براعة صورة أزهار المدينة وسط هذه الخرائب وهي تفوح برائحها العطرة، فتذكرنا هذه الرائحة بالملك الزائل، والزهر بالوجوه الجميلة، فيقول:

عفا حسننها إلا أزهار دمنة وعزفاً كأن المسك فيها من الدمن
تذكرنا تلك المباني بعزفها وبالزهر تلك الأوجه الزهر في الحسن
إذ الملك فيها والملوك أعزاً وفيها الغنى لو كان ذاك الغنى يغني⁽¹⁾

بعد هذا العرض الشعري المؤلم لتساقط المدن الأندلسية، المدينة تلو الأخرى حيث كانت البداية بمدينة "بربشتر" التي سقطت سنة (456هـ)، ثم "طليطلة" سنة (478هـ)، ثم "بلنسية" سنة (487هـ)، "وصقلية" سنة (464هـ).

واستمرت المدن الأندلسية بالسقوط فيما بعد حتى سقوط مملكة "غرناطة" سنة (897هـ). فكأننا (أمام شجرة مثقلة بالثمار مزدانة بها تخطر في خيلاء ونعماء. ولم تزل كذلك يستمتع بها الناظرون... فإذا هي تنفض ثمارها في غير ما أوانها، وتساقط أوراقها لا من هرم أو شيخوخة، فقد تساقطت هذه المدن تساقط الشهب وهي أشد ما تكون لمعاناً وبريقاً، فحسف نورها وكسفت بشاشتها وبهجتها بدخول الاسبان)⁽²⁾.

وكان من الطبيعي بعد هذه الأحداث المحزنة أن يقف الشعراء راثياً وباكياً المدن الأندلسية، فأنبثق فن "رثاء المدن الأندلسية"، الذي كان فناً أندلسياً أصيلاً. (وإذا كان الشعراء بكوا بعض الدول الزائلة، فإنهم بكوا أيضاً البلدان حين نزلت بها الحوادث

(1) الذخيرة: م 1، ق 3، ص 455، 454.

(2) الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة: ص 329.

القاصمة⁽¹⁾ فعبروا عن احساساتهم أزاء ما حدث للمدن الأندلسية وللدول الزائلة بقصائد تعد بحق وثائق تاريخية أرخت فناً لما حدث لمدن الأندلس.

إنَّ بكاء المدن الذاهبة (فَنَّا أندلسيا إصيّلاً وجُدَّتْ بعض دوافعه في المشرق والمغرب على السواء)⁽²⁾ ، إلا إنَّ الأندلسيين تفوقوا فيه على المشاركة⁽³⁾ فكان الشاعر الأندلسي صادقاً في نقل ما يشعر به من ألم وحسرة على مدينته المنكوبة. ويرى أحد الباحثين أنَّ الرثاء الذي قيل في المدن الأندلسية كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة عاشها الأندلسي، بقوله: (لعل المراثي التي قيلت في سقوط قلاع الأندلس الإسلامية تفوق كل رثاء الممالك الأخرى في العالم ... فأعتبر ما قيل في رثاء الممالك الأندلسية أصدق ما قيل في الأندلس ذاتها لأنَّ قائلها هذا الشعر نظموا هذه الأشعار وهم ينتظون بنار الأسبان ، فكانت قلوبهم تحترق على الاسلام والمسلمين)⁽⁴⁾ .

وقد حرص الشاعر الأندلسي على توضيح صورة المدينة الأندلسية بوجهيها، المشرق المضيء والقاتم المفجع من خلال رثائه للمدينة الأندلسية وإظهار صورة واضحة (للك المدينة قبل أن تسقط بيد الأعداء وإبراز وجهها المشرق ، وأيام سعادها وعهود الأمن والسلام ، ثم يعود الشاعر إلى تصوير حاضر المدينة وما آلت إليه بعد أن وقعت بيد الأعداء ، فيركز على صورة المدينة القاتمة المفجعة وما أنطوت عليه من دمار وأسى)⁽⁵⁾ بعد أن اتضحت صورة رثاء المدينة الأندلسية كغرض رئيس ، لا بد من الإشارة إلى أنَّ " المدينة الأندلسية " كانت حاضرة في قصائد الشعراء عندما اتجهوا بقصائدهم لرثاء موتاهم . وإنَّ تطرق الشعراء لذكر مدنهم ضمن سياق قصائد الرثاء ، إنَّما هو دليل على عمق مكانة " المدينة الأندلسية " في أذهانهم ونفوسهم ، فراحوا يذكرونها بصورة عرضية في مراثيهم .

فهذا الملك الشاعر المعتمد بن عباد يبكي ولديه المأمون والراضي ، فقال راثياً إياهما :

بقصيدة مطلعها :

(1) الرثاء : د. شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، مصر، 1955، ص47.

(2) ملحمة السيد: ص148.

(3) ينظر : ظهر الاسلام : احمد أمين ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1959 ، 203/3 .

(4) الرثاء في الشعر العربي : د. محمود حسن ابو ناجي ، ط2 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان ، 1402 هـ ، ص 292-294 .

(5) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي : ص 277 - 278 .

بكت أن رأيت إلفين ضمهما وكرُ مساءً وقد أخنى على إلفها الدهرُ

فمالي لا ابكي أم القلبُ صخرة ؟
بكت واحداً لم يُشجها غيرُ فقدته
بُنَيٍّ صغيرٍ أو خليلٍ مُوافق
ونجمان زَيْنٌ للزمان احتواهما
عُذرتُ إذا إن ضنَّ جفني بقطرةٍ
فقل للنجوم الزهر تبيهما معي
وكم صخرة في الأرض يجري بها نهرُ
وأبكي لآلافٍ عيدهم كثرُ
يُمزق ذا قفرٍ ويَغرقُ ذا بحرُ
بقرطبة النكداء أو رُنْدَة القبرُ
وان لُؤمت نفسي فصاحبُها الصبرُ
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهرُ⁽¹⁾

فإنَّ المعتمد بن عباد في ابياته الشعرية الحزينة التي بكى فيها ولديه المأمون والراضي ، تطرق عبر رثائه هذا إلى ذكر مدينة "قُرطبة " و " رنْدَة " فكانت المدينة الاندلسية حاضرة في ذهن المعتمد بن عباد ، الذي صور هذا الحضور للمدينة بشعره .

وتتجسد مدينة " أغمات " * عند الشاعر ابن خفاجة وهو يرثي ابن أخته محمداً وقد توفي بالصحراء ، فيبكيه الشاعر بكاءً مُراً وقد فاجأه الموت وهو في عهد الشباب ، فيقول من قصيدة مطلعها :

أرقتُ أكفُ الدَمعِ طوراً وأسَفَحُ وأنصَحُ خَدَيَّ تارَةً ثُمَّ أَمْسَحُ
ويستمر الشاعر الى ان يقول :

أرامٍ بأغماتٍ يُسَدِّدُ سهمه
فيالغريبِ فاجأتَه منيةٌ
جلستُ أسومُ الدهرَ فيه ملامه
تري بى إذا اعولتُ حزناً حمامه
غريقاً ببحر الدمع والهمم والدجى
فيرمي وقلبُ بالجزيرة يُجرُ
أنته على عهدِ الشباب تجلُحُ
وكنْتُ كما قد قُمتُ أنْتِي وأمدُحُ
تُرنُ وطوراً أيكه تترنُحُ
ولو كان بحراً واحداً كنتُ أسبحُ⁽²⁾

(1) ديوان المعتمد بن عباد : ص 164 - 165 .

* أغمات : ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير .
ينظر: الروض المعطار : ص46 ؛ وكذلك معجم البلدان : 225/1 ؛ مرصد الاطلاع : 98/1 .

(2) ديوان أبْن خفاجة : ص 268 .

أما الشاعر أبْن حمديس فقد تجسدت ملامح مدينة " سفاقس " لديه من خلال قصيدته التي يرثي فيها عمته وقد توفيت في هذه المدينة ، فبكاه الشاعر بدموع حارة متواصلة وناح عليها بقوله :

ألم تأتِ أهل الشرقِ صرخةً نائحٍ يُفيضُ غروبَ الدمعِ من بلد الغربِ
سقى الله قبراً ثائراً بسفاقسٍ سواجمَ يَرْضَى الترابَ فيها عن السحبِ
فقد عمَّه الاعظامُ من قَبْرِ عمّةٍ أنوحُ عليها بالحنيبِ إلى النَّحبِ
بدمعٍ يمدُّ البحرُ في السَّيْفِ نحوهِ إذا الحزنُ منه واصل السكبَ بالسكبِ⁽¹⁾

إنَّ الشاعر من خلال هذه القطعة الشعرية الباكية كان كل همه رثاء عمته والبكاء على فراقها وقد تطرق إلى ذكر مدينة " سفاقس " لكن ابن حمديس في هذه المرة لم يذكر المدينة بقصيدته هذه بوصفها حالة رئيسة ، إنَّما وردت عرضاً بشعره فهو لم يقصد ذكر المدينة لذاتها وإنما لان عمته قد دُفِنَتْ فيها . وبهذه الرؤية الشعرية للمدينة الأندلسية من خلال قصيدة الرثاء عند الشعراء الأندلسيين ، نستطيع القول إنَّ الشاعر الأندلسي جسد ببراعة صورة واضحة الملامح والسمات للمدينة التي أحبها وعشقها وبكاهها اشد البكاء .

فكانت رؤية الشاعر لمدينته ضمن غرض الرثاء قد آتخذت اتجاهين ، الاتجاه الأول: في رثاء المدينة الأندلسية نفسها والتفجع عليها ، وعلى أيامها الزاهية التي مضت فلذلك يعد (رثاء الدول من أغراض الشعر الأندلسي الأصيلة ... لانه نابع من صميم الواقع الأندلسي نظراً لما وقع في الأندلس من كوارث وويلات وتساقط الدول الواحدة تلو الاخرى)⁽²⁾ . فيكون ذكر المدينة في هذا المقام بصورة اساسية .

أمَّا الاتجاه الثاني فتمثل في : ذكر المدينة الأندلسية بصورة عرضية ، فتزد صورة المدينة بقصائد رثاء الموتى بصورة هامشية لا يقصدها الشاعر لذاتها إنَّما يتطرق إلى ذكرها ضمن قصيدة رثاء لأحد الأحباب الذين ودعوا الحياة .

(1) ديوان ابن حمديس : ص 35 .

(2) التجديد في الادب الأندلسي : د. باقر سماكة ، بغداد ، 1971 ، ص 58 .

فنلمس من خلال هذين الاتجاهين ابداع الشاعر الاندلسي وأقنتداره الفني على توظيف " المدينة الاندلسية " ضمن غرض الرثاء ، ورسم صورة لهذه المدينة تضج بالبكاء والأسى والتفجع .

ثانياً : المدينة والغربة والحنين :

يرتبط الإنسان بوطنه ارتباطاً وثيقاً ولأن الإنسان مكمل لبيئته، وهي مكملته له في نشأته وتطوره ومن هنا كان للأقليم الذي يعيش وينشأ فيه الإنسان أثر كبير في أخلاقه وتكوينه النفسي وأبداعه الفكري والعقلي. والإنسان محبٌ لبيئته ومدينته وهو متمسك بهذه المدينة ومرتبطة بها، يحنُّ إليها ويدافع عنها ويبذل في سبيلها كلَّ غالٍ ورخيص للدفاع عنها.

والحنين إلى المدينة التي وُلِدَ فيها الإنسان وعاش وترعرع، وله فيها أجمل الذكريات ظاهرة إنسانية عامة. فالعرب وموقفهم من الحنين إلى البلدان واضح في مختلف عصور الأدب العربي القديم والحديث.

وهذا الأصمعي يُحَدِّثُنا أحاديث طويلة عن ولع العربي بوطنه وتعلقه بمدينته التي كانت مرتع ذكرياته، بقوله: (دخلتُ البادية فنزلت على بعض الأعراب، فقلتُ: أفدني، فقال: إذا شئت أن تعرف وفاء الرجال، وحسن عهده وكرمه وأخلاقه، وطهارة مولده فأنظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه)⁽¹⁾.

وقديماً قالوا : (عَمَرَ اللهَ الْبُلْدانَ بِحَبِّ الْوَطانِ)⁽²⁾ وقد قيل لإعرابي : (أتشتاق إلى وطنك؟ قال: كيف لا أشتاق إلى رملة كنتُ جنين رُكَّامها ورضيع غمامها)⁽³⁾. إذاً فالغربة والحنين عنصران مترابطان في معادلة إنسانية نبيلة، لا يمكن فيها لجذوة الحنين أن تتوقد ما لم تكن هناك غربة فلولا الغربة ما كان الحنين، ولولا الرحيل والفرق ما كان الشوق.

وقد كان امتداد الحكم الإسلامي للأندلس ثمانية قرون كفيلاً بأن يخلق أجيالاً ترتبط بالوطن الأندلسي وتعشقه، فالمدينة الأندلسية بكل ما تحمله من مباحج وفتنة كانت شاخصة نابضة بالحياة في مخيلة الأندلسي عامة، والشاعر بصورة خاصة لأنه إنسان مرهف الحس، يشعر بما يحيط به من مؤثرات تتغلغل إلى أعماق ذاته، فيتأثر بها ويعبر عنها تعبيراً صادقاً بألفاظ رقيقة وجمل مشحونة بانفعالاته النفسية، وكان حب المدينة من القضايا الراسخة في نفس الشاعر تثيرها الغربة وتؤججها .

(1) مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين الغزولي، ط1، إدارة الوطن، القاهرة، 1299هـ، 2/292.

(2) كتاب الحيوان: الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 3، 1938/227.

(3) الوطن في الأدب العربي: إبراهيم الأبياري، دار القلم، 1962، ص48.

وبهذا تكون المدينة مَعِيناً لا يُنضب لشعر الحنين المملوء بالصدق والشوق. والعربي معروف بحبه لدياره وهو متمسك بها ،فالإنسان المحب لمدينته لا يرغب في الإبتعاد عنها، إلاَّ أنَّ هناك اسباب عديدة تضطر الأندلسي إلى أن يشد الرحال ويغادر دياره التي قضى في ربوعها أحلى وأجمل أيام عمره.

إن الشاعر الأندلسي وهو في غربته يربط بين مدينته الحبيبة وبين شعوره بالغربة والحنين لهذه المدينة، فيعبر عن هذا الشعور بقصائد تفيض حباً واشتياقاً لتلك الديار، فظهر شعُر الغربة والحنين الذي هو تعبير صادق عن موقف الشاعر أزاء مدينته التي ترك فيها ذكرياته وأيامه الجميلة وأحبته .

ومن الجدير بالذكر أنَّ نميز بين القصائد التي قيلت في الحنين إلى المدن التي أرتحل عنها الشاعر رغبةً بالتزود بالعلم، وبين ما قيل من قصائد في الحنين لهذه المدن أثر ظروف سياسية قاهرة أضطرت الشاعر أن يرتحل عنها ،كما إن الشعور بالغربة والحنين لبعض المدن يأتي إثر سقوط هذه المدن بيد الاعداء ، فنجد الشاعر الأندلسي يقف مودعاً لمدينته وباكياً عليها، فالبكاء على المدينة والوقوف على أطلالها الخربة يبعث الحنين لهذه المدينة، والحنين إلى سواقيها وأنهارها وقصورها وحدائقها، ومثل هذه القصائد يغلب عليها روح اليأس والتشاؤم، ولابدَّ من القول إنَّ هذا الشعور بالحنين والإحساس الذي يشعر به الأندلسي من غربة واعتراب هو الذي يعنينا في مجال دراستنا هذه.

إنَّ الأحداث السياسية التي شهدتها الأندلس وبخاصة في فترة الطوائف، جعلت كثيراً من الشعراء ينزحون عن مواطنهم الأصلية، فذاقوا مرارة البعد والتشرد عن تلك الديار التي نشأوا وترعرعوا فيها.

وقد عبر الأندلسيون عن حالة البعد هذه بعواطف جياشة مرتبطة بحنين ولوعة وشكوى، ولهذا فقد حفل الشعر الأندلسي بأروع الأشعار التي جادت بها قرائح الشعراء حنيناً وشوقاً كبيراً لأوطانهم .

وخير ما يُطالعُنا من صورة واضحة جلية لأرتباط الشاعر الأندلسي بمدينته وخاصة في هذه الفترة -عصر الطوائف - هي صورة الشاعرين المعتمد بن عباد ومحمد بن عمار. حيث يلمع اسم مدينة "شلب" لدى الشاعرين لما لهذه المدينة الخلافة والجميلة من أثر كبير في نفسيهما، وقد أصبحت مدينة "شلب" بيد العباديين عام (445هـ)⁽¹⁾. وقد عهد المعتضد ولاية العهد لابنه المعتمد وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وكان طبيعياً لأمر في مثل سن المعتمد أن ينغمس في اللهو والملذات، يرافقه صديقه الشاعر ابن عمار الذي لا يقل عنه حماساً واندفاعاً ، ولحرص المعتضد وخوفه على ولي العهد من الغواية يتدخل لينهي هذه الصداقة والصحبة، فيبعد ابن عمار وينفيه إلى مدينة "سرقسطة"، وبذلك يكون بعيداً عن "شلب" المدينة التي أحبها وعشقها وقضى فيها أجمل أيامه، فكان حنينه إليها حنيناً صادقاً وهو اشتياق لتلك الأيام الهانئة، فقال مشتاقاً من قصيدة مطلعها:

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم	وفي وإلا ما نياح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب	لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها	لغيري ولا قامت له في مآتم
وهل شققت هوج الرياح جيوبها	لغيري أو حنت حنين الروائم
— —	
الا قاتل الله الجياد فانها	نأت بي عن أرض العلى والمكارم
أشلب ولا تتساب عبرة مشفق	وحمص ولا تعتاد زفرة نادم
ذكرتُ بها عهد الصبا فكأنما	قدحت بنار الشوق بين الحيازم ⁽²⁾

* شلب: وهي مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام وهي غربي قرطبة، ولها بسائط فسيحة وبطائح عريضة ولها جبل عظيم منيف كثير المسارح والمياه. ينظر: معجم البلدان: 3/357؛ وصفة جزيرة الأندلس: ص 106؛ وآثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، 1960، ص 541.

(1) ينظر: البيان المغرب: 3/298.

(2) محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية تاريخية: ص 209-210.

إنّ هذه القطعة الشعرية تُفصِّحُ عن مدى ارتباط ابن عمار بمدينة "شلب" وتعلقه بها، فالشاعر يتذكر أيام الشباب التي قضاها مع الأمير المعتمد، وبعد أن ابتعد ابن عمار مرغماً عن المعتمد وعن مدينة "شلب"، تعمق إحساسه بالحنين والاشتياق وراوده الشعور بالغربة لأنّه بعيد عن مدينته، فلذلك نجده يلجأ إلى الطبيعة كي تساعد وتأخذ بيده وتقاسمه همومه وقد كان حزنه عميقاً لفراق موطنه، فرسم لنا الشاعر صورة موحية للغمائم وهي تشاركه البكاء والحمائم تنوح، والرعد يصرخ صرخة طالبٍ ثائرٍ، والبرق يحارب والنجوم حزينة تقيم المآتم، والرياح تشق الجيوب فالشاعر يحن لدياره التي هي أرض العلى والمكارم.

وإنّ إحساس الشاعر العميق هذا بالطبيعة دليل واضح على قوة حنين ابن عمار إلى طبيعة بلاده وتعلقه الشديد بكل مظاهر الطبيعة، فيشده الحنين لمدينته وبعد أن يبلغ به الشوق حد اللوعة، يطلب من البرق أن يكون رسوله إلى ضواحي مدينة "شلب"، فيقول :

يـابـرـق أدّ رـسـالـتي	تـقـديـك نـفـسـي مـن رـسـول
عـرـج بـشـاب مـحـيـيـاً	ما شئت من تلك الطلول
وأطلع على شرفات حمـ	ص قراره الشرف الأثيل
فاذا أجتلاك ابو الوليـ	د بناظر الـيقظ النبيل
فأقرأه من قلبي سلا	مأ يقتضي حسن القبول ⁽¹⁾

يبحث ابن عمار من خلال هذه الابيات الشعرية بأشواقه إلى مدينة "شلب"، ويطلب من الشاعر ابن زيدون أن يشفع له عند المعتضد وهو يتمنى العودة إلى مدينة "شلب"، ثم تتحقق أمنيات ابن عمار بعد تولي صديقه الأمير المعتمد بن عباد الحكم في مدينة "أشبيلية"، فيستدعيه ويعينه حاكماً على مدينة "شلب".

ويبقى المعتمد وحيداً في "أشبيلية" يضح في صدره الحنين لأيامه الجميلة التي قضاها في "شلب"، وهو مجبر على البعد عنها نظراً لانشغاله بأمور الحكم والدولة في "أشبيلية"، فأرسل المعتمد تحياته وسلامه إلى مدينة "شلب" مع حاكمها الجديد ابن عمار، قائلاً :

(1) المصدر نفسه : ص 224 .

أَلَا حَيَّ أَوْطَانِي بِشَلْبِ أَبَا بَكْرٍ وَسَلُّهُنْ هَلْ عَهْدُ الْوَصَالِ كَمَا أُدْرِي
وَسَلَّمَ عَلَى قَصْرِ الشَّرَاجِبِ عَنْ فَتَى لَهُ أَبْدَأُ شَوْقٌ إِلَى ذَلِكَ الْقَصْرِ
مَنَازِلُ أَسَادٍ وَبَيْضِ نَوَاعِمِ فَتَاهِيكَ مِنْ غِيلٍ وَنَاهِيكَ مِنْ خِدرِ
وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّ أَنْعَمُ جُنَحَهَا بِمَخْضَبَةِ الْأَرْدَافِ مُجَدَّبَةِ الْخِصرِ
وَبَيْضِ وَسْمِرٍ فَاعْلَاقٍ بِمُهْجَتِي فِعَالِ الصَّفَاحِ الْبَيْضِ وَالْأَسْلِ السُّمْرِ
وَلَيْلٍ يَسْهَدُ النَّهْرَ لَهَوًا قَطَعْتُهُ بِذَاتِ سِوَارٍ مِثْلَ مُنْعَطَفِ الْبَدْرِ⁽¹⁾

إنَّ هذه القطعة الشعرية التي صاغها المعتمد بن عباد تضحج بالاشتياق والحنين إلى معاهد لهوه وصباه في " شلب " ، فبيعت الشاعر إلى مدينته الجميلة بتحياته وسلامه ويخص "قصر الشراحيب " ومجالسه مع الحسان ، فالمعتمد يتشوق إلى حياته الماضية في مدينة " شلب " تلك المدينة التي أودع فيها أجمل الذكريات وغادرها مضطراً لانشغاله بأمور الدولة وتولييه حكم مدينة " أشبيلية " ، لكنه رغم مشاغل المنصب الجديد إلا أنَّ ذكريات مدينة " شلب " ما تزال عبققة في ذاكرته .

وإذا كانت مدينة " شلب " قد تمنعت عن المعتمد وهو مشغول عنها بمهامه السياسية وشؤون البلاد ، فإنَّ مدينة " أشبيلية " هي الأخرى قد تمنعت عنه بعدما أقتيد أسيراً إلى مدينة " أغمات " . وعاش منفياً فيها فكثر حنينه إلى مدينة " أشبيلية " وإلى قصور بني عباد التي شيدها في تلك المدينة ، فقال :

غَرِيبَ بَأَرْضِ الْمَغْرِبِينَ أَسِيرُ سَيِّبِكِي عَلَيْهِ مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
وَتَتَدَبُّهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَيَنْهَلُ دَمْعٌ بَيْنَهُنَّ غَزِيرُ
سَيِّبِكِي فِي زَاهِيهِ وَالزَّاهِرُ الْندَى وَطَلَابُهُ وَالْعَرَفُ ثَمَّ نَكِيرُ
إِذَا قِيلَ فِي أَغْمَاتٍ قَدْ مَاتَ جُودُهُ فَمَا يُرْتَجَى لِلْجُودِ بَعْدَ نُشُورُ
مَضَى زَمَنُ وَالْمَلِكُ مُسْتَأْنَسٌ بِهِ وَأَصْبَحَ مِنْهُ الْيَوْمَ وَهُوَ نَفُورُ

لقد أجاد الشاعر من استخدام الجناس بلفظة (زاهيه ، وزاهر ، واغمات، ومات) ، وكذلك استخدام الطباق بلفظة (مستأنس ونفور).

⁽¹⁾ ديوان المعتمد بن عباد : ص 47-48 .

ونتلمس من خلال هذه القطعة الشعرية أنَّ الشاعر بث شوقه ولواعجه إلى أيَّام أنسه وهو يتذكر مدينة " إشبيلية " فيحن إليها وإلى معاهدها ورياضها وقصورها ، والشاعر يجمع بين تشوقه وبين أساه لكل ما أعجبه وتمتع به من البساتين الزاهرة والقصور العامرة ، فيقول :

بمنبتة الزيتون مُورثة العُلى	يُغني حماماً أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا	تشير الثريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده	غيورين والصَّبُّ المُحب غيورُ
تراه عسيراً أو يسيراً مناله	الأكلُ ما شاء الأله يسيرُ
قضى الله في حمص الحمامِ وبُعثرت	هنالك منا للنشورِ قبورُ ⁽¹⁾

ومثلما أعرب المعتمد عن حنينه لمدينة "إشبيلية" يُطالعنا الشاعر ابن عمار بقطعة شعرية أخرى يُعرب فيها عن اشتياقه الشديد لهذه المدينة، بقوله :

حيران أعمى الطرف وهو سماؤه	وأذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو مثواه فكم	قد احرقت عود العفارة ناره
إن يهنه اني أضعت لحبه	قلبي وذاعت عنده اسراره
فليهن قلبي ان شكاه وشاحه	لسواره فاققص منه سواره
فوحسنه لقد أنتدبت لوصفه	بالخل لولا أن حمصاً داره
بلد رمتني بالمنى أغصانه	وتجبرت لي بالندى انهاره
بلد متى أذكره هيج لوعتي	وإذا قدحت الزند طار شراره ⁽²⁾

وإذا كان ابن عمار يتشوق إلى مدينة " إشبيلية " ويشعر بالحنين إليها وهو بعيد عن هذه المدينة ، فإنَّ الشاعر ابن زيدون عندما آرحل إلى مدينة " إشبيلية " تاركاً مدينة " قرطبة " وفيها أهله وأصحابه وحببيته ، ولم يحمل معه سوى الذكريات التي تشده إليهم . وكان ابن زيدون كثيراً ما يذكر في قصائده أسماء المواضع و الأمكنة التي لها أثر كبير

(1) ديوان المعتمد بن عباد : ص 171-172 .

(2) محمد بن عمار الأندلسي : ص 222 .

في حياته ، وقد كان " لرصافة قرطبة " أثر بالغ في نفسه ووجدانه فكان الشاعر يحن إلى " الرصافة " لأنها مكان ولادته وموطن طفولته .

وكانت طبيعة هذه المدينة تمتاز بجمالها وصفاء جداولها ، فتركت هذه الطبيعة الخلابة ملامحاً واضحة السمات في نفسية الشاعر ابن زيدون ، فقال متشوقاً :

على الثَّغْبِ الشَّهْدِيّ مَنِي تَحِيَّةٌ	زَكْتُ وَعَلَى وادي العَقِيقِ سَلامُ
و لا زَالَ نَوْرٌ فِي الرُّصَافَةِ ضَاجِكُ	بأَرْجَائِهَا يَبْكِي عَلَيْهِ غَمَامُ
مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا	تُدارُ عَلَيْنَا لِلْمَجُونِ مُدامُ
فإن بَانَ مَنِي عَهْدِهَا فَبُلُوعَةٌ	يُشَبُّ لَهَا بَيْنَ -الضُلُوعِ - ضِرَامُ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا فَتَبَادَرْتُ	دُمُوعُ كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نَظَامُ
وَأَحْوَرُ سَاجِي الطَّرْفِ حَشَوُ جُفُونِهِ	سَقَامُ بَرَى الْأَجْسَامِ مِنْهُ سَقَامُ
فَمَنْ أَجَلُهُ أَدْعُو لِقَرطِبةِ الْمُنَى	بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهُوَ رَهَامُ ⁽¹⁾

إن ابن زيدون يبدع في استخدام المجاز العقلي بقوله : (يشب لها بين الضلوع ضِرَام) والشاهد هنا بلفظة (بين الضلوع) ، فالضلوع هي ما تحل في صدر الإنسان والتي عَبَر من خلالها ابن زيدون عن حرارة الشوق والحنين لمدينة "الرصافة" وحسرتة عليها وقد شبت النار في ضلوعه .

ونجد ان " المدينة الأندلسية " عند ابن زيدون لها خصوصية خاصة بكل ما تحويه من معاهد ، ويمضي الشاعر يتذكر " قرطبة " ويتشوق إليها متذكراً أيام حبه ووصاله ، ويتطلع إلى العودة إلى مدينة " قرطبة " متسائلاً بنبرة يغلفها الألم ، هل من عودةٍ إليها؟ بقوله:

أَقْرَظُبةُ الْعَرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ؟
وَهَلْ كَبَدُ حَرَى لَبِينِكَ تُنْقَعُ؟
وَهَلْ لِلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرَجِعُ؟
إِذَا الْحُسْنُ مَرَأَى فِيكَ وَاللَّهُوْ مُسَمَّعُ وَإِذَا كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مَوْطَأُ
أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ؟
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْشَ نَفْحَ جَنَابِكَ

(1) ديوان ابن زيدون : ص 152-153 .

ولم يَلْتَمِ شَعْبِي خِلالِ شَعَابِكِ

ولم يَكْ خَلْقِي بِدَوِّهِ مِنْ تَرَابِكِ ولم يَكْتَفِنِي مِنْ نَوَاحِيكِ مَنْشَأُ

ويمضي الشاعر في هذه القطعة الملتهبة بالحنين الى "قرطبة" ومعاهدها، فهو يصرح بحبه الشديد لهذه المدينة وتعلقه بها ، وقد أكثر ابن زيدون من ذكر أسماء بعض المواضع مثل "العقاب والرّصافة" وغيرهما من المعاهد، وان دل هذا على شيء فهو دليل واضح على حب الشاعر لهذه المعاهد وحنينه إليها ، فالمدينة ما تزال شاخصة في ذاكرته ومخيلته وهذه المعاهد ما هي الا مكونات اساسية للمدينة، فيقول :

أُنْسَى زَمَاناً "بِالْعُقَابِ" مُغْفَلاً ؟

وعيشاً بِأَكْنَافِ "الرُّصَافَةِ" دَغْفَلاً

ومغنى . إزاء الجعفرية . إقبلاً⁽¹⁾

فمشاهدُ مدينة "قرطبة" لم تَغِبْ عن بال ابن زيدون ولا ذكرياته الحبيبة هناك في ربوعها، فيتذكر قصر الفارسي، وجوفي الرصافة، وبعد أن عرج الشاعر على "بطليرس" أثناء هجرته من "قرطبة" إلى " اشبيلية " فأخذ يقارن بين ما لاقاه من راحة ونعمة وهو في " قرطبة " وما يقاسيه من تشرد وضياح وهو في " بطليوس " ولاسيما عندما حل العيد، ووجد الشاعر نفسه نائياً عن أهله وأصحابه بعيداً عن بلده فهاجرت به الذكريات وتذكر مدينته، أرسل هذه الآهات بأبيات مملوءة بالحزن والاشتياق، بقوله:

خَلِيلِي لَافْطَرَّ يَسْرُ وَلَا أَضْحَى	فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقَنِي شَرْقُ الْعُقَابِ فَلَمْ أَزَلْ	أَخْصُ بِمَحْوُوسِ الْهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا
وَمَا انْفَكَّ جُوفِي الرُّصَافَةِ مُشْعَرِي	دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرْحَا
وَيَهْتَاجُ قَصْرَ الْفَارِسِيِّ صَبَابَةً	لِقَلْبِي لَا تَأَلَوْا زِنَادَ الْأَسَى قَدْحَا

(1) ديوان ابن زيدون: ص 133-134 .

* بطليوس: مدينة كبيرة بالاندلس من اعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة. ينظر: معجم البلدان: 1/447؛ والروض المعطار: ص 93.

* قصر الفارسي : من القصور المقصودة للنزهة بخارج قرطبة وقد ذكره ابن زيدون عندما فرّ من قرطبة ايام بني جهور . ينظر : نفح الطيب : 1/473

وليس نذيماً عهد مجلس ناصحٍ فأقبل من فرط الولوع به نصحا
كأنني لم أشهد لدى عين شهدة نزال عتاب كان آخره الفتحا

انه اشتياق كبير وهيام شديد بشرق العقاب ، والرصافة ومجلس ناصح وعين شهدة،
ثم يعود ويتذكر ضاحية " الزهراء " التي قضى بين ربوعها أجمل الاوقات ،فقال:

ألا هل إلى الزهراء أوبئة نازحٍ تقصى تنائيهامدَامِعُهُ نَزَحَا
— —
يُمَثِّلُ قُرْطِيهَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً فَتَقُبَّتْهَا فَالْكُوكَبُ الرَّحْبُ فَالْسَطْحَا
مَحَلُّ ارْتِيَاكِ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طَبِيئُهُ إِذَا عَرَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى
أَجَلُ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نَيْطَةٍ لِأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بَأَنَةٍ فَالْبَطْحَا⁽¹⁾

إن الشاعر من خلال هذه القطعة الشعرية يتساءل هل من عودة إلى مدينة "الزهراء
" ؟ فالشاعر على الرغم من البعد لكنه يراها بعين الوهم ان المدينة تتمثل دائماً أمام عينيه
، فيرى القرطين والقبة والكوكب الرحب والسفح فتطيب نفسه، وهو يعترف بأن ليالي أنسه
على شاطئ نيطة قصيرة لانها حافلة بالنعيم ، أما ليلاليه في آنة والبطحاء فإنها طويلة
لانها حافلة بالمتاعب والاحطار .

أما الشاعر أبو عمر الباجي ** (ت 435 هـ) فيتشوق وهو في الغربة الى مدينته
"سرقسطة" فيعبر عن حنينه واشتياقه،بأن قال:

فلا أنس لا أنس ذاك الحيا وتلك المعالي وتلك الشيم
وَدُنْيَا بَكْمَ طَلْقَةِ الْمُجْتَلَى وَدَهْرًا بَكْمَ وَاضِحِ الْمُبْتَسِمِ

(1) ديوان ابن زيدون : ص 158 – 161 ، وللشاعر قصيدة أخرى يتشوق فيها إلى مدينة " قرطبة "
وهو في مدينة "بطلوس " . ينظر في ذلك : ديوانه : ص 154 – 155 .

** أبو عمر الباجي : هو يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي ، من بلغاء الكتاب ، كان فقيهاً جليل
القدر ، رحل إلى المشرق وحج وولي قضاء حلب ،وعاد الى الاندلس فجل قدره عند المقتدر بن هود
ملك سرقسطة.توفي سنة (435 هـ) ، تنظر ترجمته في: الذخيرة:م1،ق2،ص186؛ وكذلك
المغرب:1/405 ؛ والخريدة :2/251

أَحْسَنُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ شَاقَهُ تَذَكَّرُ عَهْدَكُمْ لَمْ يُلَمَّ⁽¹⁾

نجد من خلال هذه القطعة الشعرية أنَّ الشاعر أجاد من استخدام المجاز العقلي بقوله (ودهرًا بكم واضح المُبتَسَم) فالدهر هنا لا يكون واضح المبتسم بحد ذاته، وإنما قصد الأحداث والليالي التي تضمنها ذلك الدهر، وكان الشاعر يستعين بهذه الأساليب البلاغية ليعبر عن شدة وجده وحنينه.

وقد يجبر الإنسان على الرحيل عن أرضه ووطنه فيترك خلفه أهله وأصحابه ومدينته، وكل ذكرياته بتلك المدينة فيأخذه الشوق، فهذا الشاعر ابن الحناط* (ت 430هـ) الذي اضطر لترك مدينته "قرطبة" لأسباب سياسية، وذلك بسبب ما شاع عنه من أبيات في هجاء أبي الحزم بن جهور فأبعده عن "قرطبة"، وهذا البعد ولَّدَ عند الشاعر الاشتياق والحنين لأهله وبلده، فقال وهو في الغربة:

تقرَّغتُ من شُغلِ العداوةِ والظَّعنِ	وصرتُ إلى دارِ الإقامةِ والأمنِ
أمقتولةُ الأجفانِ من دمعِ حُزنها	أفيقي فإني قد أفقتُ من الحزنِ
قللهِ سيرى يومَ ودَّعتُ صُحبتي	زماعاً ولم أقرعِ على ندمِ سنِّي
رحلتُ فكم من جؤذرٍ وغضنفرٍ	يُروِّي الثرى من فضلِ أدمعه الهتنِ
وما عن قلى فارقْتُ تربةِ أرضكم	ولكنني أشفقتُ فيها من الدفنِ ⁽²⁾

لقد أبدع الشاعر ابن الحناط في استخدام ألفاظه ومعانيه وهو يعبر عن حزنه وحسرتة عندما رحل عن "قرطبة".

⁽¹⁾ المغرب: 405/1

* ابن الحناط: هو ابو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني، وكان متقدماً في الآداب والبلاغة والشعر، مدح الملوك والوزراء مات قريباً من سنة (430هـ) وفي الصلة أنه توفي سنة (438هـ). تنتظر ترجمته في: الذخيرة: م 1، ق 1، ص 437؛ وبغية الملتبس: 107/1-108؛ وكذلك المغرب: 121/1؛ وكذلك الصلة: 1004/3.

⁽²⁾ الذخيرة: م 1، ق 1، ص 450؛ وكذلك المغرب: 121-122.

ومثلما اضطر الشاعر ابن الحنات الى أن يغادر مدينة " قرطبة " نجد الشاعر أبا الحكم بن مذج* ، يجبر على مغادرة مدينته " إشبيلية " وهو غير راغب في الرحيل عنها ، بسبب والد حبيبته الذي يظطره الى البعد والرحيل وهذا البعد والفراق عن المدينة هو الذي يثير جذوة الحنين عنده ويولد الاشتياق لوطنه ، فهاجت به ذكريات "إشبيلية " ، فقال :

ضَعِ الرَّحْلَ فِي حِمَصٍ بِأَيْمَنِ طَائِرٍ وَوَالِ اصْطِنَاعَ الْخَيْرِ فِيهَا وَظَاهِرِ
فَمَا هُوَ إِلَّا السَّرُّ بَيْنَ مَوَارِدِ تُصَاحِبُهُ طَوْلَ الْمَدَى وَمَصَادِرِ
— —
وَلَابَتْ وَالظُّلُمَاءُ إِيْمُدُ مُقْلَتِي يُؤَرِّقُهَا بَيْضُ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ⁽¹⁾

ويبدو ان المنازعات القائمة في مدينة " سرقسطة " قد اجبرت الشاعر أبا عامر بن الاصيلي على مغادرة المدينة ، فهو يبكي دماً ، لانها موطن صباه وقد تركها مضطراً ، فوصف ذلك شاكياً لأحد أصدقائه بقوله: (كانت سبباً لانزعاجي دون تسليم ولا توديع ، وفراري فرار الخائف المروع)⁽²⁾ ، وظل الاشتياق والحنين يراوده لهذه المدينة ، فقال:

على سرقسطة أبكي دماً وأموهها العذبة المحيية
وقوم كرام فوا حسرة على الجمع منهم او التثنية
وأصبحث في بلدة أهلها سباع لاهل النهى مؤذية
كان بنسبة زينت لشاطبة ما حنفت مرسية
تعوضت منها بارض اري أفاعيل أربابها ملهية⁽³⁾

* ابو الحكم بن مذج : هو عمرو بن مذج بن حزم الاشبيلي . تتظر ترجمته في المغرب : 1 / 238

؛ والذخيرة : م² ، ق² ، ص 588 .

(1) الذخيرة : م² ، ق² ، ص 593 .

(2) المصدر نفسه : م² ، ق³ ، ص 858 .

(3) المصدر نفسه : م² ، ق³ ، ص 859 .

ومثلما بقيت مدينة " سرقسطة " عالقة في ذاكرة الشاعر أبي عامر بن الأصيلي ،
نجد الحال نفسه مع الأمير عبد الله الجذامي* فقد غادر مدينة " سرقسطة " مجبراً بعد ان
طرده ابن عمه المقتدر حاكم سرقسطة ، فقال متألماً من الفراق والغربة :

إِنْ بِنْتُ عَنْ سَرْقُسْطَةٍ فَبِرْغَمِ أَنْفِي لِأَخْتِيَارِي
مَا جَالَ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ وَقَدْ نَأْتُ عَنْهَا دِيَارِي
إِلَّا وَخَلْتُ قَصُورَهَا بَرِيَاضَهَا هَذَا الدَّرَّارِي⁽¹⁾

إن أبيات الشاعر الأمير عبد الله الجذامي تُفصِّح عن حنين جارفٍ لمدينة "سرقسطة"
فابتعاده عنها لم يكن باختياره بل كان مضطراً للمغادرة والرحيل عن هذه البلدة التي ما
تزال ذاكرته تحتفظ بصورة لها ولبساتينها ، وهو كلما قلب بصره في السماء وجد "
سرقسطة " ماثلة أمام عينيه .

فالمدينة وبكل ما تحمله من عبق التاريخ وذكريات الطفولة كانت دوماً وطن الاجداد
وتربة الميلاد ، تبقى دائماً هاجساً يبعثُ على الشعور بالحنين والاشتياق كلما تغرب المرء
عنها وابتعد ، فهو يدافع عنها إذ ما تعرضت للأخطار والمحن ويحنُ إليها إذا باعدت بينه
وبينها الأيام .

* ابو محمد عبد الله : هو عبد الله بن هود الجذامي ، يعد واحداً من الادباء الظرفاء النجباء كانت نشأته
في بيت الملوك بسرقسطة ، والحدث المؤثر في حياته هو طرده من سرقسطة من قبل ابن عمه المقتدر
الذي كان يحسده حسداً كبيراً . تنظر ترجمته في : الذخيرة : م2 ، ق2 ، ص 803 ؛ وكذلك المغرب
: 439/2 .

(1) المغرب : 435 /2 .

فهذا الشاعر الجزار السرقسطي يُعرب عن اشتياقه لـ "شيقر" * وإلى ذكرياته الجميلة التي اودعها فيها ، فيقول :

عسى وطن أودى بألفتنا شحطا	يقربنا زلفى وينظمننا سمطاً
لأسرع ما أمضى التفرق سهمه	فأسمى فؤاد القرب منا وما أخطا
ألا ليت شعري هل يرى بُعداً سامحاً	بعهد تصابٍ كنت في عقده وسطى
وهل يُسعفني فيك يوماً بأوبةٍ	يُضيءُ بها أرجاء شيقرٍ والشطاً
أتذكركم من طيبةٍ إثر طيبةٍ	سحبنا لها في فنتنيط** العلا مرطاً

ثم يتذكر الشاعر جمال الطبيعة في " شيقر " فيأخذه الشوق إلى البساتين وجدول ماء، فيقول من القصيدة نفسها :

وجدول ماء كالمجرة أسبغت	بحافاتها الأنواء من نسجها بسطاً
صفا ماؤه حتى كأنّ انصبابه	حسامٌ إذا يُستلُّ أو حيّةٌ رقطاً
بساتين بزت حسن جنة مأربٍ	لذيذ حلاها ليس أثلاً ولا خمطاً
ولو ان امرأ القيس بن حجر يحلّها	لأقصر عن أن يذكر الجزع والسقطا ⁽¹⁾

لقد شبه الشاعر جدول الماء وكأنه المجرة وشبه تدفق مائه الصافي كأنه الحسام الذي استلّ من غمده أو كأنه حية رقطاء فأبدع الشاعر وأجاد في تصويره هذا .
وما زال جمال الطبيعة الأندلسية يغري الشعراء على قول الشعر العذب الرقيق، فهذا الشاعر ابن اللبانة بعد مغادرته مدينته " دانية " متوجهاً إلى " بطليوس " حيث وفد على

* شيقر : نهر يخرج من أرض جليقة وتقوم عليه مدينة "لاردة" إحدى مدن الثغر الأعلى ، وفي معجم البلدان هواسم لمدينة لاردة بالأندلس . ينظر : الروض المعطار : ص 507 ؛ ومعجم البلدان: 3/385.
** فنتنيط : الراجح فيها انها اسم موضع في الأندلس . ينظر : روضة المحاسن وعمدة المحاسن : ص

(1) المصدر نفسه ، ص 166-168 . والجزع والسقط اسم موضعين ذكرهما الشاعر امرؤ القيس في شعره ، ينظر: ديوان امرئ القيس : تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط3 ، دار المعارف ، مصر ، 1969 ، ص 8 و 88 و 201 .

أميرها المتوكل بن الأفتس ، ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة " إشبيلية " فأخذ الشوق والحنين إلى بطليوس " وتحسر على مفارقتها متذكراً قصة آدم (ع) أبي البشر عندما تحسر على مفارقة جنة الله عز وجل ، فقال :

رضى المتوكل فارقته فلم يرضني بعده العالم
وكانت بطليوس لي جنة فجننت بما جاءه آدم⁽¹⁾

لقد أجاد الشاعر ابن اللبانة في هذين البيتين فقد أستخدم الجنس الاشتقائي مرتين، الاول في لفظة (رضى ويرضني) والثاني في لفظة (فجننت وجاءه) .
وقد كثرت عند الشاعر الأندلسي معاني الشوق والحنين إلى الأهل والأصحاب ولاسيما عندما يكون الشاعر مضطراً للرحيل عن مدينته لأسباب سياسية او اجتماعية ، وهذا ما نجده عند الشاعر أبي عامر بن الأصيلي الذي نزل بمدينة " قلمرية " * بعد أن غادر سرقسطة ، فوصف ما لاقاه من أذى ، بأن قال :

وَرَدْتُ قَلْمَرِيَّةً طَامِعِياً فَلَـمِ أَلْفِ بَرٍّ وَلَا مَرْفَقَا
حُرْمَتُ كَأَنِّي دُونَ الْوَرَى طَابَتْ الْعُقُوقُ بِهَا الْأَبْلَقَا
وَرَمْتُ الرَّجُوعَ وَمَنْ لِي بِهِ وَقَدْ غَلَقَ الْبَابَ مِنْ غَلَقَا
إِذَا الشَّوْقُ مَرَّ عَلَى خَاطِرِي شَرِقْتُ وَحُقَّ بَأْنِ أَشْرَقَا
أَحْبَابُنَا هَلْ لَنَا رَجْعَةٌ وَهَلْ لِي بِكُمْ أَبَدًا مُلْتَقَا
تَوَرَّكْتُ بَحْرَ الْأَسَى بَعْدَكُمْ وَإِنِّي لِأَحْزَرُ أَنْ أَغْرَقَا⁽²⁾

ولمدينة " شلب " ذكرياتها الجميلة التي ما تزال تحملها مخيلة شعراء الاندلس وكما لمسنا أثر هذه المدينة عند الشاعرين المعتمد بن عباد ، وابن عمار نجد أبا عمرو بن مالك بن سبدمير وهو أديب من مدينة " شلب " يتذكر بلده بقطعة شعرية تفيض حباً وأشتياًقاً ، فقال :

(1) شعر ابن اللبانة الداني : ص 91 .

* قلمرية : مدينة بالأندلس . ينظر: معجم البلدان : 391/4 .

(2) الذخيرة : م 2 ، ق 3 ، ص 860 .

أشجَاك النسيمُ حينَ يَهْبُ أم سنى البرق إذ يُخْبُ ويخْبُو
 أم هتوفُ على الأراكِ تشدو أم هتوُنُ من الغمامة سكبُ
 كلُّ هذاك للصَّابِبة داحٍ أي صَبٍ دموعه لا تَصُبُ
 أنا لولا النسيمُ والبرقُ والور ق وصوبُ الغمام ماكنتُ أصبو
 ذكرتني شلاباً وهيَّات منِّي بعدما أستمحکم التباعد شلابُ (1)

لقد أبدع الشاعر في استخدام الاستعارة بقوله : (أشجأك النسيم حين يهب) حيث شخّص الشاعر النسيم وهو يقوم بأفعال إنسانية حيث يثير شجون الشاعر في أثناء هبوبه مذكراً إياه بأيامه الماضية ، وهو يشكو من غربته ، فضلاً عن الاستعارة أستخدم الشاعر الجنس في الالفاظ (هتوف وهتون ، والصابابة وصب وتصب ، والبرق والورق ، وصوب وأصبو) .

اما الشاعر ابن حمديس ومن خلال مطالعة متأنية لديوانه وجدتُ الديوان وقد حفل بقصائد تعبر عن الحنين لمدينته " صقلية " ، فهذه المدينة موطنه الاصلي ومسقط رأسه وقد عبر الشاعر في قصائده عن شعوره بالغربة والحنين وتحسر لضياع عهد الصبا وأيام الشباب في صقلية ، فقال من قصيدة مطلعها :

قَصَّتْ فِي الصَّبَاِ النَّفْسُ أَوَّارَهَا وَأَبْلَغَهَا الشَّيْبُ إِنِّ ذَارَهَا
 — —
 ذَكَرْتُ صِقْلِيَّةً وَالْأَسَى يُهَيِّجُ لِلنَّفْسِ تَذَكَارَهَا
 وَمَنْزِلَةً لِلتَّصَابِي خَلَّتْ وَكَانَ بَنُو الظَّرْفِ عُمَّارَهَا
 فَإِنْ كُنْتُ أُخْرِجْتُ مِنْ جَنَّةٍ فَإِنِّي أُخْرِجْتُ أَخْبَارَهَا
 وَلَوْ لَا مَلُوحَةٌ مَاءِ الْبُكَاءِ حَسِبْتُ دُمُوعِي أَنْهَارَهَا (2)

نجد في هذه القطعة الشعرية أن الشاعر ابن حمديس ظل دائم الشوق والحنين لمدينة " صقلية " إلى الحد الذي جعله يرى فيها الجنة ، فتذكّر في حسرة ولوعة هذه المدينة . وقد توهجت في صدر الشاعر جذوة الحنين لمدينة " صقلية " خاصة بعد أن سقطت هذه المدينة بيدي النورمان سنة (484 هـ) ، فلم يستطع الشاعر حبس مشاعره وحنينه إلى الوطن ومرابعه ، فقال في وداع مدينته والبكاء عليها :

(1) نفح الطيب : 184/1 .

(2) ديوان ابن حمديس : ص 183 .

ولو أن أرضي حُرَّةً لَأَتَيْتُهَا بَعَزْمٍ يُعَدُّ السَّيْرَ ضَرْبَةً لَازِبٍ
ولكنَّ أرضي كيف لي بفكاكها من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

— —

أَلَا فِي ضَمَانِ اللَّهِ دَارِ بُنُوطِ وَدَرَّتْ عَلَيْهَا مُعْصِرَاتُ الْهَوَاضِ
أَمَثَلُهَا فِي خَاطِرِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَمْرِي لَهَا قَطَرُ الدَّمْعِ السَّوَاطِ
أَحْنُ حَنِينِ النَّيْبِ لِلْمَوْطِنِ الَّذِي مَغَانِي غَوَانِيهِ إِلَيْهِ جَوَازِ
ومن سار عن أرضٍ ثَوَى قَلْبُهُ بِهَا تَمَتَّى لَهُ بِالْجِسْمِ أَوْبَةً آيِبٌ (1)

ومن خلال هذه القطعة الشعرية الصارخة بالحنين لمدينة " صقلية " يتضح أن هذه المدينة كانت تتمثل في خاطر الشاعر ابن حمديس وذاكرته ، فيشتاق إليها ويذرف الدموع على فراقها ، وقد مزج الشاعر بين البكاء على هذه المدينة وبين الحنين إليها .

وفي قطعة شعرية أخرى يُطلعنا ابن حمديس وقد أبدع في أن صور حنينه واشتياقه لمدينة " صقلية " ، وذلك في أن مزج بين طبيعة هذه المدينة وما تمتاز به من فتنة وجمال وبين حنينه إليها ، فكان الشاعر يشعر بالمرارة لابتعاده عن تلك الطبيعة الفاتنة ، فحنينه لطبيعة " صقلية " هو حنين لأيام شبابه الماضية فيها ، وقد تجسد الشعور بالغربة والألم عند الشاعر عندما شاهد وهو في غربته (النيلوفر) ، فتذكر وطنه وهاج ب صدره الحنين لبلاده ، فقال :

وَنَيْلُوفِرٍ أَوْرَاقُهُ مُسْتَدِيرَةٌ تَفْتَحُ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَهُ زَهْرُ
كما اعترضتُ خضِرُ التَّرَاسِ وَبَيْنَهَا عَوَامِلُ أَرْمَاحٍ أَسْتَنُّهَا حَمْرُ
هو ابنُ بِلَادِي كَأَغْتَرَابِي أَغْتَرَابُهُ كَلَانَا عَنِ الْأَوْطَانِ أَرْعَجَهُ الدَّهْرُ (2)

إن طبيعة بلاد الأندلس الخلابة وخاصةً مدينة " صقلية " تركت في نفس الشاعر ذكريات جميلة ، وقد حاول ابن حمديس أن يبيث همومه وأشجانه وحنينه لمدينته وهو يناجي الريح ، قائلاً :

(1) ديوان ابن حمديس : ص 31-33 .

(2) المصدر نفسه ، ص 185 .

وَيَارِيحُ إِمَّا مَرِيَّتِ الْحَيَا	وَرَوَّيَتْ مِنْهُ الرِّبْعَ الظَّمَاءَ
فَسَوْقِي إِلَيَّ جِهَامَ السَّحَابِ	لَأَمْلَأَهُنَّ مِنَ الدَّمْعِ مَاءَ
وَيَسْقِي بَكَائِي رُبْعَ الصَّبَا	فَمَا زَالَ فِي الْمَحَلِّ يَسْقِي الْبَكَاءَ
— —	
دِيَارٌ تَمْشَتْ إِلَيْهَا الْخُطُوبُ	كَمَا تَمْشَى الذَّنَابُ الضَّرَاءُ
صَحْبْتُ بِهَا فِي الْغِيَاضِ الْأَسْوَدِ	وَزُرْتُ بِهَا فِي الْكُنَاسِ الظُّبَاءِ
وَرَاءَكَ يَا بَحْرُ لِي جَنَّةٌ	لَبَسْتُ النِّعِيمَ بِهَا لَا الشَّقَاءَ
إِذَا أَنَا حَاوَلْتُ مِنْهَا صَبَاحاً	تَعَرَّضْتُ مِنْ دُونِهَا لِي مَسَاءُ (1)

هذا الحنين الجارف والاشتياق الصادق لمدينة " صقلية " أوحى لابن حمديس أن يرسل عواطفه إلى تلك الجنة مدينة -صقلية- التي ترقد وراء البحر ، والتي لم ير فيها إلا النعيم والرفاه ، وهذا الشعور الذاتي المتدفق لابن حمديس وإحساسه الصادق هو الذي إثمر مثل هذه القصيدة الرائعة ، ومثل هذا التعاطف الصادق بينه وبين الطبيعة .

وقد أجاد ان حميدس في تصويره معاناة البعد والفراق وما شعر به من إحساس يغلفه ألم والغربة ، فلنستمع إليه وهو يعبر عن حنينه بأن قال :

أَلَا حَبَّذَا تِلْكَ الدِّيَارُ أَوَاهِلًا	وَيَا حَبَّذَا مِنْهَا رَسُومٌ وَاطِلَالُ
وَيَا حَبَّذَا مِنْهَا تَنْسَمُ نَفْحَةٌ	تُؤَدِّيهِ اسْحَارُ الْإِنَا وَأَصَالُ
وَيَا حَبَّذَا الْأَحْيَاءُ مِنْهُمْ وَحَبَّذَا	مَفَاصِلُ مِنْهُمْ فِي الْقُبُورِ وَأَوْصَالُ
وَيَا حَبَّذَا مَا بَيْنَهُمْ طَوْلُ نَوْمَةٍ	تُبَبِّهُنِي مِنْهَا إِلَى الْحَشْرِ أَهْوَالُ (2)

إنه حنين إلى الوطن والأهل إلى الديار والرسوم ، إلى الهواء و الأحياء والاموات ، وهذه الابيات الشعرية على بساطتها وعفويتها إلا أنها توحى بعمق الإحساس بالحنين .

اما الشاعر ابن خفاجة فيتجلى شعوره بالغربة والحنين في أن يتشوق لجزيرة "شقر" ويتذكر أيامه الهانئة ويندب ماضي زمانه ، فيقول :

بَيْنَ شُقَرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا	حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا
---------------------------------------	--

(1) ديوان ابن حمديس : ص 4 .

(2) المصدر نفسه : ص 359 .

وَيُعْزِّي الْمَكَاءُ فِي شَاطِئِهَا يَسْتَخْفُ النَّهْيَ فَحَلَّتْ حُبَاهَا
عِيشَةً أَقْبَلَتْ يُشْهِى جَنَاهَا وَارْفَ ظِلُّهَا لَذِيذُ كَرَاهَا

— —
ثم ولت كأنها لم تكذب تلبثُ إلا عشيةً أو ضحاها

وتطالعنا الطبيعة مرة أخرى وهي تشارك ابن خفاجة في التعبير عن حُبِّه وحنينه
لجزيرة " شقر " فالشاعر أمام هذه الطبيعة الساحرة وهو مندمج بها وبمباهجها ، ثم
يصحو ليصطدم بواقع مرير فيجد الشاعر نفسه وهو غريب عن دياره ، وقد جمع ابن
خفاجة بين الصوت والصورة ، صوت المكاء وصورة الظلال الوارفة ، ويستمر الشاعر
معبراً عن لوعة الفراق والغربة ، بقوله :

أَهْ مِنْ غُرْبَةٍ تُرْقِرُ بَثًّا أَهْ مِنْ رَحْلةٍ تَطُولُ نَوَاهَا
أَهْ مِنْ فُرْقَةٍ لَغَيْرِ تَلَاقٍ أَهْ مِنْ دَارٍ لَا يُجِيبُ صَدَاهَا

— —
فتعالي ياعينُ نبيك عليها من حياةٍ إن كان يُغني بُكَاها
وشبابٍ قد فَاتَ إلا تناسيه ونفسٍ لم يَبْقَ إلا شجاها
مالعيني تبكي عليها وقلبي يتمنى سوادهُ لو فَدَاهَا⁽¹⁾

وقد كانت جزيرة " شقر " مسرح إلهام الشاعر ابن خفاجة دوماً، لما تمتاز به من
جمال الطبيعة وصفاء المياه ، فقال متشوقاً :

وَحَنٌّ إِلَى شُقْرٍ فَخَفَّ عَلَى السُّرَى يَخَوْضُ خَلِجاً أَوْ يَجُوبُ كَثِيبَا
يَوْمٌ بِهَا أَرْضاً عَلَيَّ كَرِيمَةً وَمُرْتَبِعاً فِيهَا إِلَيَّ حَبِيباً
ونهرًا كما ابيضُّ المُقْبِلُ سَلْسَلًا وجزعاً كما اخضرَّ العِذَارُ خَضِييبَا⁽²⁾

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 364-365 .

(2) المصدر نفسه : ص112؛ ولابن خفاجة قطعة شعرية أخرى يعبر فيها عن حنينه واشتياقه لجزيرة
"شقر" في ديوانه : ص128 .

أما الشاعر محمد بن قاسم* ، فقد عبر عن حنينه وأشتياقه للاندلس، بعدما شعر به من غربة وذلك بعد رحيله من الأندلس متوجهاً الى العراق ، واجتاز بجلب ودمشق وكان قبل ذلك بحضرة مجاهد العامري ملك "دانية" ، فأخذ الشوق والحنين إلى بلاده وموطنه الأندلس ، فقال :

أين أقصى الغرب من أرض حَلَب أمل في الغرب موصول التَّعب
حَنُّ من شوقٍ إلى أوطانِهِ من جفاه صبرُهُ لما اغتَرَب
جال في الأرض لاجأ حائراً بين شوقٍ وعناءٍ ونَصَب
ويستمر الشاعر بقوله :

يا أحبائي اسمعوا بعض الذي يتَلَقَّاه الطريدُ المُغْتَرِبُ
وليكن زَجْراً لكم عن غُرْبَةٍ يَرِجُّعُ الرأسُ لديها كالذَّنْبِ⁽¹⁾

(وكان من الطبيعي أن تكون الأماكن ومعاهد الشباب ، سبباً أصيلاً في عاطفة الحنين الانساني ، لما لها من التعلق بما فطرت النفس على الالتذاذ به والتألم منه كالذكريات للعهد الحميمة والمتصرمة ، التي تلتذ النفوس بتخيلها وتتألم من تقضيها وانصرامها)⁽²⁾.

أما الشاعر ابن حزم فقد عانى من ألم البعد والفرق وهو في الحبس ، فبث حنينه وأشواقه إلى أهله ودياره فكانت أبياته الشعرية خير دليل على معاناة ابن حزم وهو في غياهب السجن، وذكريات الأهل والوطن ماتزال خالدة في ذاكرته ، فقال :

مُسَهَّدُ القلب في خَدْيِهِ أدمعُهُ قد طالما شرقت بالوجد أضلعه

* هو ابو بكر محمد بن قاسم اشكهاط ، وأصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة وساد فيها ، وارتحل الى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تغلب دولها ، ثم رجع الى الاندلس . تنظر اخباره في المغرب : 31/2 .

(1) المصدر نفسه : 31 / 2 ؛ وكذلك دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة : ص 234 .

(2) ابن بسام وكتابه الذخيرة : حسين يوسف خريوش ، دار الفكر ، عمان - الاردن، 1984 ، ص175

رجعُ الأنين سكيبُ الدمع مُفرَّعُهُ	دانني الهموم بعيدُ الدارِ نازحها
قاسي الحديد فواقاً ذابَ أجمعه	ياؤي الى زفراتٍ لو يياشرها
ظلت قواصِفُها باليأس تفرُّعه	إذا تخلَّلَ في أرجائها فرحاً
— —	
تسقيه سماً نقيعاً بات يجرحه	كم فكرةٍ داهمتُهُ في مسارحها
توحي إلى القلب أسراراً تقطِّعه	نكرى أفيراحه في كلِّ ناحيةٍ
نضوا بنا بلذِيزِ النوم مضجعه	كم قد تحمَّلَ من أعباء نأيهم

إنَّ الشاعر ابن حزم عندما صوّر في هذه القطعة الشعرية غربته وحنينه لأهله ودياره ، فإنّه بذلك يجسّد معاني الغربة عن الوطن فاشتياقه إلى الأهل والأصحاب والديار إنما هو اشتياق إلى الوطن ، اشتياق إلى المدينة التي ظلت دائمة الحضور في ذاكرته ، فصاحبه الأرق والسهاد وهو دائم التفكير بالوطن يذرف الدموع اشتياقاً ولوعةً، ويستمر ابن حزم في الإعلان عن معاناة الألم والفراق ، فيقول :

ياراحلاً عند حي عنده رمقي	أقر السلام على من لم أودعه
وسله بالله عن عهدي أيقظه	فعهدُهُ بمكانٍ لا أضيعه
وكيف عني وعن أنسي تضبِّره	أم كيف بعد بعادي عنه أربُّعه ⁽¹⁾

لقد كان للأحداث السياسية التي تعرض لها الشعراء في الاندلس ، فضل كبير في ظهور نزعة الحنين إلى المدن والأوطان ، فقد أثرت هذه الأوضاع السياسية على العديد من شعراء الطوائف ، كالمعتمد بن عباد، وابن عمار، وابن زيدون ، وأبو عيسى بن لبون* وقد كان هذا الأخير يشعر بالحنين إلى " لورقة " ** وإلى ليااليه الماضية وظلال أنسه الوارفة ، فقال :

ياليت شعري وهل في ليت من أربٍ هيهات لا تُقتضى من ليت آرابُ

(1) شعر ابن حزم الاندلسي : مجلة المورد ، م(27) ، ع (2) ، 1999 ، ص 98-99 .
 * أبو عيسى بن لبون : أحد وزراء ابن ذي النون المعتزين في دولته المُعدين لبأسه وصولته ، ولكنه ثار وخاض الهول المثار . تنظر ترجمته في : الذخيرة : م1، ق3، ص 104 ، والمغرب : 2 / 376 .
 ** لورقة : مدينة كبيرة بالاندلس ، قاعدة كورة تدمير ، وهي اكبر بقاع الأندلس وأكثرها خيراً . ينظر:الروض المطار : ص512 ؛ وأثار البلاد وأخبار العباد : ص 555 .

أين الشموُس التي كانت تطالعنا والجوُّ من فوقه لليلِ جلاباب
وأين تلك الليالي إذ تلمُّ بنا فيها وقد نام حُرَّاسٌ وحجاب(1)

ونَجِدُ الشاعر يفيض في حبه وحنينه لمدينته من خلال استخدامه أُسلوبِ التمني في لفظة (ليت) ، وتكرار هذه اللفظة ثلاث مرات هو لتأكيد شعوره بالحنين، وللشاعر قطعة شعرية أخرى تضج بالحنين إلى ملكه الزائل فيقول ، وقد نعى ملكه :

خليلي عوجا بي على مسقط الحمى لعلَّ رسوم الدار لم تتغيرا
فأسأل عن ليلٍ تولَّى بأنسنا وأندب أياماً خلت ثم أعصرا
ليالي إذ كان الزمانُ مسالماً وإذ كان غُصنُ العيش مَيَّاسَ أخضرا
ولكنَّها الدنيا تخادعُ أهلها تغرُّ بصفوٍ وهي تطوي تكذرا
لئن ساءَ تمزيق الزمان لدولتي لقد ردَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبصرا(2)

فقد تذكر الشاعر الليالي الهائنة والعيش الرغيدَ عندما كان ينعمُ بملكه ودولته قبل تغيير الأيام وتكدر صفوها ، وقد نجح الشاعرُ من استخدام الطباق الإيجابي بلفظة (بصفوٍ وتكدرا) ، واستخدام هذا الأسلوب البلاغيّ - الطباق - ماهي الا حالة من الحالات التي يؤكد من خلالها الشاعرُ على حنينه واشتياقه لمدينته وأيامه الماضية فيها . من خلال ما تقدم من القصائد الشعرية التي تغنت بحب المدينة والحنين إليها ، يتضح أنَّ للمدينة مكانةً متميزةً وبارزةً عند الإنسان عامة والأندلسي خاصة . فظهر هذا الحنين والاشتياق إلى الديار والأحباب وكان مما يستثير شوق الشعراء وحنينهم إنما هو مشهد مدنها أو انه نسيم عليل ، أو بريق يبعث في نفوسهم الذكرى ، أو سحابة عابرة ترجع إلى ذاكرتهم رسوم الديار فتَهَيِّج في نفوسهم أصدق العواطف وأنبأها (3) .

ومثلما كانت جذوة الحنين والاشتياق إلى المدن الأندلسية ملتهبة عند شعراء الأندلس ، كانت كذلك عند الملوك والقادة كالمعتمد بن عباد، والأمير عبد الله بن هود ، والقائد أبي

(1) الذخيرة : م1، ق3، ص 107 .

(2) المصدر نفسه، م1، ق3، ص 107-108 .

(3) ينظر: ابن بسام وكتابه الذخيرة : ص 174 .

عيسى بن لبون ، ووجدت أيضاً أنّ القصائد التي قيلت في الحنين إلى المدن الأندلسية وإلى الطبيعة الخلابة فيها ، برزت بصورة واضحة في عصر الطوائف وذلك لان هذه السمة على ما أعتقد لا يمكن أن تظهر على الأجيال الأولى من المسلمين الذين جاءوا من المشرق ، لأنّ حنينهم واشتياقهم كان لمدنهم المشرقية ، ثم ظهر بعد ذلك جيلٌ أحب بلاد الأندلس وتعلق فيها وهام حباً وعشقا بطبيعتها ، فعبر شعراء الأندلس عن حبهم هذا بالعديد من قصائد الحنين التي تحمل النزعة الإنسانية والنزعة الوطنية للمدينة الأندلسية .

وقد أظهر الاندلسيون براعةً في شعر الحنين ، وهذا مما أكدّه الدكتور الطاهر أحمد مكي بقوله : (لست أزعم أنّ شعر الحنين وقف على الأندلسيين دون المشاركة ، لكن حنين الاندلسيين جاء خاصاً ، وصادقاً ، ومتميزاً ، وكثيراً)⁽¹⁾ .

(1) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة : ص 232 .

ثالثاً: المدينة والفخر :

يُعد الفخر باباً واسعاً من ابواب الشعر العربي⁽¹⁾ ، وهو مدح الذات والتغني بمجادها وبصفات الأباء والاجداد وبطولاتهم واعمالهم الحسنة، وهو في مفهومه العام اشادة بالاعمال الطيبة والصالحة .

والنقاد القدماء لايقرون رأياً واحداً في غرض الفخر بل يتبارون في ذلك، فمنهم من عده ضمن غرض المديح⁽²⁾ ، في حين جعله ابن رشيق فناً شعرياً مستقلاً⁽³⁾ . وكان الشاعر الأندلسي عندما يفخر فإنه يفخر بأصله ونسبه وقومه وكذلك أرضه وموطنه، ومن هنا يأتي دور " المدينة الاندلسية " لتكون المحور الاساس الذي يفخر به الاندلسيون عامة والشعراء منهم بصورة خاصة ويتجسد الفخر بمدينة "قرطبة" عند الشاعر ابن زيدون وهو يجدها المدينة التي تستحق أن يفخر المرء بالانتماء اليها ، لأنها دار الأكارم، فيقول :

سقى جَنَبَاتِ القَصْرِ صَوْبُ العَمَائِمِ
وغنى على الأغصانِ وَرَقُ الحَمَائِمِ
بقرطبة العَـزَّاءِ دَارِ الأَكْـرَامِ

بلادٌ بها عَقَّ الشَّبَابُ تمائمي وأنجبنِي قومٌ - هناك - كِرَامٌ⁽⁴⁾

ونظراً لمكانة مدينة " قرطبة " العلمية والادبية واصالتها العريقة نجد شعراء الاندلس يفخرون بهذه المدينة ، ومثلما عبر الشاعر ابن زيدون عن اعتزازه وفخره بهذه المدينة ، يطالعنا الشاعر الحصري القيرواني فيتجسد الفخر عنده بمدينة " قرطبة " بعد ان أشاد بآل عباد ونسبهم العربي الاصيل ومناقبهم المشهودة ، ثم انتقل الشاعر الى الفخر " بقرطبة "

(1) ينظر: الفخر والحماسة : حنا فاخوري، ط2 ،دار المعارف ،مصر ، 1968 ، ص5 .

(2) ينظر: الصناعتين : ابو هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم

، ط2 ، عيسى البابي الحلبي، 1971، ص137 .

(3) ينظر : العمدة : 120/1 .

(4) ديوان ابن زيدون : ص 129 - 130.

ومكانتها العلمية والادبية والتي تضاهي مدينة " بغداد " دار السلام، والعلم والمعرفة ، فقال :

أبني عبّادٍ ما حَسَنَتِ	الآ بكمُ الدُّنيا فقَدِ
نقدَ الكُرماءِ الدَّهرُ معي	فتخيّرْكم في المُنتقَدِ
وقضى لكم بالفضلِ على	من في أدنى أو في البُعْدِ
دانَتِ بغدادُ لقرطبةِ	وخلائفُها للمعتمَدِ
—	—
يافرع المُنذر والنِّعما	ن بلغت النّجَمَ فطُلَّ وزدِ
مُرْ وافتح باقي اندلسِ	ما في صبيبٍ أو في صَعْدِ ⁽¹⁾

ويجد الشاعر الحصري القيرواني من خلال قصيدة مدح بها المقتدر بن هود أن المجالَّ واسعٌ ليعبر عن فخره بمدينة "سرقسطة" وانها موطن القوة، والمُلك والحصانة، فقال مفتخراً :

كذا تفتضُّ أبقارَ البلادِ	ولا مَهْرٌ سوى البيضِ الحدادِ
هَدَيْتِ العَسْكَرَ الجرَّارَ ليلاً	فأهديتِ الطُّبَّاءَ الى الهوادي
وكان مرامُ دانيةٍ عزيزاً	فهان على المُسَوِّمةِ الجيادِ
فأثرتِ العوالي في المعالي	وأثرتِ الصَّلام في الصَّلاَدِ

ثم ينتقل الشاعر الى الفخر بمدينة " سرقسطة " بعد ان مدح المقتدر بن هود ووصف شجاعته وبسالته في الاستيلاء على " دانية " وضمها الى ملكه ، فقال :

فتحت معاقلاً لو أبصروها	لقالوا انت لُقمان بنُ عادِ
وفي سرقُسطة لك دارُ مُلكِ	زَريتَ بها ذاتِ العمادِ ⁽²⁾

(1) ابو الحسن الحصري القيرواني : ص 118 – 119 .

(2) المصدر نفسه : ص 117 .

وما دمنا نتحدث عن نشوة الانتصار التي تخلف الحروب ، فلا بد من التطرق الى ذكر الانتصارات التي حققتها دولة بني عباد على بعض الامارات الصغيرة وقامت بضمها إليها ، وقد أوحى هذه الانتصارات إلى امرائها بقصائد يعبرون من خلالها عن سعادتهم بالانتصار ويفخرون بشجاعتهم وعزيمتهم على اخضاع الاعداء ، فعبر المعتضد بن عباد (ت 461 هـ) عن سعادته بعد ان ظفر بحصن " رندة " ، فقال مفتخراً :

لقد حصـلت يارنـده	فصـرت لملـكنا عـقده
افـداد تـتـاك ارمـاح	واسـياف لـها حـده
واجنـداد اشـداء	الـيهم تـنتـهي الشـده
غـدوت يرونـني مـولا	هـم وأراهم عـده
سأفـنى مـدة الـاعداء	ان طـالت بي المـده ⁽¹⁾

ويتقدم ابن بسام ليعلق على هذه القصيدة قائلاً : (وأعجب المعتضد ... بهذه القطعة الرندية ، عجب حسان بن ثابت بقصيدته الميمية⁽²⁾ ، واخذ الناس بحفظها وحملهم على ضبط معانيها ولفظها)⁽³⁾ . فضلاً عن اعجاب المعتضد بقصيدته هذه فانه أراد منها اثاره نفوس ابناء شعبه ضد الاعداء .

ويمضي المعتضد معبراً عن أفراحه وانتصاراته في حروبه ، فيتقدم لينتزع مدينة " مالقة " التي كانت بيد باديس بن حبوس زعيم البربر ، الذي كان فيما يبدو قاسياً على أهلها الذين سئموا حكم البربر وتاقت نفوسهم للتخلص منهم⁽⁴⁾ ، فاستطاع المعتضد انقاذ المدينة

⁽¹⁾ ديوان المعتضد بن عباد : تحقيق ، الدكتور محمد مجيد السعيد ، مجلة المورد ، م (5) ، ع (2) ، 1976 ، ص 116 .

⁽²⁾ يعني قصيدته التي يقول فيها :

لنا الجفـنات الغـرُّ يلمـعن بالصُّحـى وأسـيافنا يـقـطـرن من نـجـدة دما

ينظر : شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري : تحقيق ، عبد الرحمن البرقوقي ، دار الاندلس ، بيروت ، 1978 ، ص 427 .

⁽³⁾ الذخيرة : م 1 ، ق 2 ، ص 32 .

⁽⁴⁾ ينظر : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، دراسة ادبية تاريخية ، : د. صلاح خالص ، دار الاخبار ، بغداد ، 1958 ، ص 36 .

وتخليص اهلها مما هم فيه ، وفي تلك اللحظات يعرب المعتضد عن افتخاره بنفسه ويهنيء أهل مدينة " مالقة " بالعيش الرغيد والحياة الكريمة ، بقوله :

أريّة انت فائدة الزمان	فقد فقت الممالك في معانٍ
وقد رمناك من بلدٍ بعيد	فأدناك الأله بلا تـوان ⁽¹⁾
بذلنا جهدنا عزما وحزما	ووطننا الكماة على الطعان
واجهدنا العزائم والمساعي	واعملنا الحسام مع السنان
ليهنيء اهل مالقة انتصاري	واعزازي لهم بعد الهوان ⁽²⁾

أن ابیات هذه القصيدة تفصح بوضوح عن نشوة فرح المعتضد بانتصاراته وحروبه ، فالشاعر قد مزج بين افتخاره بنفسه وبطولاته ، وبين حصوله على مدينة "مالقة" بعد جهدٍ مبذول باصرار وعزيمة .وبهذا نجد إن مدينة "مالقة" تشارك المعتضد نشوة الانتصار . وتتضح صورة الفخر بمدينة " اشبيلية " عند الشاعر المعتمد بن عباد من خلال بيتين شعريين قالهما رداً على ما قاله الشاعر ابن الدباغ الذي شعر بالاهانة في هذه المدينة ، مما ادى به الى أن يغادرها نتيجة سوء تصرف من قبل احد رجالها ، فقال المعتمد مفتخراً بمدينة اشبيلية :

شُعِرْتُ فجئْتُ بعين المُحال	وما زلتَ ذا خطلي في المقال
متى عزَّ في حمص غيرُ العزيز	او ذلَّ غيرُ الدَّميمِ الفَعالِ ⁽³⁾

ان المعتمد من خلال هذين البيتين الشعريين يوضح مكانة مدينة " اشبيلية " العريقة التي تحفظ للعلماء والادباء مكانتهم المرموقة، فيجد المعتمد في "اشبيلية " بأنها المدينة التي يفخر المرء بالانتماء إليها وانها جديرة بهذا الفخر .

(1) هذا البيت الشعري موجود في : ديوان ابن زيدون ، تحقيق ،كامل كيلاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، 1932، ص 376 (ملحق شعر الملكين) .

(2) ديوان المعتضد بن عباد : 115 .

(3) ديوان المعتمد بن عباد : ص134 .

ونلمح الفخر بمدينة "البيرة" عند الشاعر ابي اسحاق الألبيري عندما توقف امام
اطلال هذه المدينة بعد دمارها، فقال :

أَتَدَبُّ أَطْلَالَ الْبِلَادِ وَلَا يُرَى	لِلْبِيرَةِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ نَادِبٌ
عَلَى أَنَّهَا شَمْسُ الْبِلَادِ وَأَنْسَاهَا	وَكُلَّ سِوَاهَا وَحْشَةً وَغَيَاهِبٌ
— —	
وَكَمْ مِنْ نَجِيبٍ أَنْجَبْتُهُ وَعَالِمٍ	بِأَبْوَابِهَا كَانَتْ تُتَاخُ الرِّكَائِبُ
وَكَمْ بَلَّغْتَ فِيهَا الْأَمَانِي وَقُضِّيتْ	بَصَبٍ لُبَانَاتُ بِهَا وَمَآرِبُ ⁽¹⁾

فمن خلال هذه القطعة الشعرية نلمح روعة الانتماء للوطن، فكانت مدينة " البيرة"
رمزاً للحب وللارض المعطاء وهي كالشمس التي تشع نوراً وضياءً .
وفي مدينة " المرية " يجسد الشاعر ابن عمار حبه واعتزازه الكبيرين لها ،بان راح
يفخر بها من خلال قصيدة تضح بالحب الكبير لهذه المدينة ولصاحبها المعتصم بن
صمادح، فقال :

أَلْفَاظُكَ أَمْ كَأْسُ الرَّحِيقِ الْمَعْتَقِ	وَخَصَّكَ أَمْ رَوْضُ الرَّبِيعِ الْمَنْمَقِ
وَنَظْمُكَ أَمْ سَلَكُ مِنَ الدَّرِّ نَاصِعِ	يُرُوقُ عَلَى جِيدِ الْعُرُوسِ الْمَطُوقِ
— —	
أَمْعَتَصَمًا بِاللَّهِ وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي	بِأَبْطَالِهَا وَالْخَيْلُ بِالْخَيْلِ تَلْتَقِي
دَعَتْنِي الْمَطَايَا لِلرَّحِيلِ وَإِنِّي	لَأَفْزَعُ مِنْ ذِكْرِ النُّوَى وَالتَّفَرُّقِ
وَإِنِّي وَإِنْ غَرِبْتَ عَنْكَ فَاِنَّمَا	جَبِينُكَ شَمْسِي وَالْمَرِيَّةُ مَشْرِقِي ⁽²⁾

ومثلما عبر ابن عمار عن حبه بمدينة " المرية " وصاحبها المعتصم بن صمادح ،
نجد الشاعر ابن الحداد يعمد هو الآخر إلى الفخر بمدينة " المرية " هذه المدينة الكريمة
المعطاء ، فيعبر عن فخره بهذه المدينة بأن ربط هذا الحب والفخر للمدينة وبين حبه
لمعتصم بن صمادح حيث لمس الشاعر في هذا الامير الكرم والبطولة والشجاعة ، فقال:

(1) ديوان ابي اسحاق الألبيري : ص85-88 .

(2) محمد بن عمار الأندلسي: ص267-268 .

ياوَأَفْدِي شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا أَكْرَمْتُمَا خَيْلَ الْوَفَادَةِ فَأَرْبَطَا
وَرَأَيْتُمَا مَلِكَ الْبَرْيَةِ فَأَهْنَا وَوَرَدْتُمَا أَرْضَ الْمَرْيَةِ فَأَحِطَطَا⁽¹⁾
يُدمي نُحُورَ الدَّارَعِينَ إِذَا أَرْتَأَى وَيُذِلُّ عِرَّ الْعَالَمِينَ إِذَا سَطَا⁽²⁾

ويمضي ابن الحداد معبراً عن اصالة الانتماء للاندلس ولمدينة " المريّة " خاصة فنجدّه في موضعٍ آخر يعبر عن فخره واعتزازه لهذه المدينة بأسلوب جميل يحمل الولاء والاخلاص إلى ارض نشأته، وانه مهما باعدته الايام ورمت به بعيداً ، ومهما اغرته مصر بنيلها أو بغداد بماء فراتها، فابن الحداد لم تستهوه مصر بجمالها ولا بنيلها ولا ببغداد بعذوبة مائها ، بقدر ما استهوته مدينة " المريّة " ، فقال مفتخراً :

وَكَمْ خَطَبْتَنِي مَصْرُ فِي نَيْلِهَا وَرَامَتْ بِنَا بَغْدَادُ وَرَدَ فَرَاتُهَا
وَلَمْ أَرْضْ أَرْضاً غَيْرَ مَبْدَأِ نَشْأَتِي وَلَوْ لَحِثَ شَمْساً فِي سَمَاءِ وَلَاتِهَا
وَلِي أَمَلٌ أَنْ يُسْعِدَ السَّعْدُ ثُلُثَهُ وَيَقْهَمُ سِرُّ النَّفْسِ فِي رَمَزَاتِهَا⁽³⁾

وقد ترد المدينة الأندلسية بصورة عرضية ضمن غرض الفخر ، فنجد الشاعر الأندلسي عندما يفخر بنفسه وشجاعته فانه يتجه إلى ذكر "المدينة الاندلسية " لتشاركه هذا الفخر ، فهذا المعتمد بن عباد يتطرق إلى ذكر مدينته " اشبيلية " وهو يفخر بنفسه ومقدرته على خوض القتال، فيقول مفتخراً :

مَوْلَايَ يَا إِذَا الْأَيَّادِي كَوَاكِفَ أَتِ الْغَوَادِي
أَنَا عُيَيْدٌ مُعَدٌّ لِحَسَمِ دَاءِ الْأَعْيَادِي
واعتَادَتِ النَّفْسُ مَنِّي تَصَيِّدَ الْأَسْيَادِ
مَلَكَتْ مِنْ أَرْضِ جِمص أَلِي قُورَى سَنَدَادِ
إِنِّي عَلَيْهَا مُقِيمٌ لِرَاحِ أَوْ لَغِيَادِ
أَكُرُّ بِالضَّرْبِ فِيهَا وَالطَّعْنِ عِنْدَ الْجِلَادِ⁽⁴⁾

(1) فأحططاً : هنا جعل الشاعر همزة القطع ، همزة وصل ليستقيم الوزن من (الكامل) .

(2) ديوان ابن الحداد : ص 233 .

(3) المصدر نفسه : ص 167-168 .

(4) ديوان المعتمد بن عباد : ص 84 .

فقد تجسد الفخر بمدينة " اشبيلية " عند الشاعر من خلال فخره بنفسه وجلالته على مقارعة الخطوب . وعندما حصل المعتمد بن عباد على مدينة " قرطبة " بعد ان استعصت على الملوك، فكان حصوله هذا باعثاً على ان يفخر بنفسه ، بقوله :

هَيْهَاتَ جَاءَتْكُمْ مَهْدِيَةَ الدُّوَلِ	مَنْ لِلْمُلُوكِ بِشْأَوِ الْأَصِيدِ الْبَطْلِ
مَنْ جَاءَ يَخْطُبُهَا بِالْبَيْضِ وَالْأَسْلِ	خَطَبْتُ قُرْطَبَةَ الْحَسَنَاءِ إِذْ مَنَعْتُ
فَأَصْبَحْتُ فِي سُرَى الْخُلَى وَالْخُلَلِ	وَكَمْ غَدَّتْ عَاطِلًا حَتَّى عَرَضْتُ لَهَا
كُلَّ الْمُلُوكِ بِهِ فِي مَأْتَمِ الْوَجَلِ	عَرَسَ الْمُلُوكُ لَنَا فِي قَصْرِهَا عُرْسَ
هَجُومَ لَيْثٍ بَدْرَعِ الْبَأْسِ مُشْتَمَلٍ ⁽¹⁾	فَرَاقِبُوا عَنْ قَرِيبٍ - لِأَبَا لَكُمْ -

وبهذا نجد أن الشاعر الاندلسي قد عبر عن حبه واعتزازه " بالمدينة الاندلسية " ، فكان الفخر أحد الابواب التي طرقها الشاعر ليعلن عن هذا الحب والانتماء لوطنه الاندلس .

(1) ديوان المعتمد بن عباد : ص 105 - 106 .

رابعاً : المدينة والمديح :

يُعَدُّ غرضُ المديح من الأغراض الشعرية العريقة التي رافقت قيثارَ الشعر العربي منذ القدم وحتى عصرنا الحاضر فكان وتراً رخيماً الصوت فيها⁽¹⁾. ولقد وجد الدارسون أنَّ دافع المديح لا يكاد يخرج عن جانبين اثنين ، الاول : هو الثناء الطيب النابع من النفس إعجاباً بالمدح ، والثاني : هو دافع التكسب والاستجداء وطلب العطاء إلى المدح وهو الجانب الأكثر بروزاً منذ الأعشى الذي (جعل الشعرَ متجراً يتجر به نحو البلدان)⁽²⁾. إذ كانت العرب تأنف أن تتكسب بالشعر لكنه لم يلبث أن أصبح بعد ذلك سلعة من السلع يتاجر به الشعراء على أبواب الأمراء ، والحق أنَّ الشاعر الاندلسي في نطاق قصيدة المديح لم يكن ليخرج عن الدافعين الأولين .

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ ما ينبغي التنبيه إليه أن قصيدة المديح - في كل احوالها - استطاعت أن تُجسِّد قيماً وفضائل كبرى من الكرم ، والشهامة ، والبطولة ، والمروءة، والعدل، إنَّ لم تكن في المدحون فهي في الاقل مما ينبغي أن تكون فيهم . وإن الدكتور شوقي ضيف يعد هذا الشعر مدرسة خلقية يتخرج فيها الناشئة على مبادئ الشجاعة ، والكرم ، والإباء ، وحب المجد⁽³⁾ ، لأنَّ من دواعي المديح الإعجاب بشخصية المدح وإظهار فضائله.

ويعد عصر الطوائف من أزهى العصور الشعرية في التاريخ الاندلسي ، ولقد كان للمديح فيه حصة كبيرة ومهمة ،(إذ أسرف ملوك الطوائف في عطاياهم للشعراء المادحين، وعدُّوا ذلك وسيلة من وسائل الدعاية لدعم حكمهم وتقوية سلطانهم ، فكانوا يتنافسون في اجتذاب الشعراء ويشترون ألسنتهم ، فكثر شعر المديح في هذا العصر)⁽⁴⁾.

ولم تكن المدينة بعيدة عن مضامين فن المديح ، فقد كانت المدينة الأندلسية شاخصة بوضوح في كثير من جهد شعراء المديح ؛ لان المدح - وكما يبدو - من النصوص الشعرية قد ارتبط بالمدينة ارتباطاً واضحاً ، وخاصة إذا علمنا أنَّ الشاعر

(1) ينظر: فن المديح وتطوره في الشعر العربي : أحمد ابو حاقه ، ط1، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت ، 1962 ، ص 14 .

(2) العمدة : 81/1 .

(3) ينظر : فصول في الشعر ونقده : ص 13-15 .

(4) قضايا اندلسية : ص 91 .

الاندلسي كان ارتباطه بمدينة كبيرة ، لأنها تشكل أحد أبرز مفردات حياته فنجدته قد ارتمت في أحضانها حباً وعشقا وموقفاً وتاريخاً أو قل ارتبط بها ارتباطاً مصيرياً ، يدافع عنها دفاعاً قوياً ، وإذا اضطرَّ إلى تركها أو الرحيل عنها بكأها أشد البكاء .

وهذا الارتباط المتين بين الشاعر الأندلسي ومدينته ، جعله يفيض في التعبير عن هذا الارتباط والحب لمدن بلاده بأرقى الإحساسات الإنسانية صاغها صياغة فنية راقية أصيلة مؤثرة ، عبرت عن هذا الحب وهذا الارتباط ، فكان "مدح المدن" نمطاً شعرياً مما تميز به الشاعر الأندلسي .

ويعد هذا اللون من المدح في نطاق الشعر العربي ، من الاتجاهات الجديدة التي اتجه إليها الشعر العربي منذ القرن الثاني الهجري ، عندما كانت قصائد الشعراء تدور حول مدح المدن ، مثل البصرة والكوفة وبغداد بوصفها من المراكز الرئيسة للحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، التي أفاض الشعراء في تعداد محاسنها والتغني بجمالها⁽¹⁾ .

وإذا كان الشاعر المشرقي قد عبر عن إحساساته تجاه مدينته فإن الشاعر الأندلسي قد عبر هو الآخر عن حبه لمدينته ووفائه لها فسجل لنا أجمل القصائد التي خلدت المدينة الأندلسية وعبرت عن موقف الشاعر تجاه مدينته ، وقد لمسنا تفوق الشاعر الأندلسي في هذا الميدان من الشعر بسبب تعرض مدن الأندلس إلى النكبات والمحن القاسية ، وذلك لأن الأندلس بمدنها المختلفة كانت أشبه بقاعدة حربية عاشت جهاداً مستمراً ضد الأعداء الطامعين الذين كانوا يتربصون بها . وقد عبر شعراء الأندلس عن حبهم وتعلقهم بمدنهم بقصائد تسيل فيها عواطف الحب والوفاء . فالمدينة الأندلسية وبكل ما امتازت به من جمال ساحر وطبيعة خلابة تُعد رمزاً ذا قيمة فنية تؤدي في سياق النص الشعري إحياء ذات أبعاد فنية وإنسانية وتاريخية ، وهذا يبدو واضحاً من خلال القصائد الشعرية التي تغنت بحبها للمدينة الأندلسية .

(1) ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : الدكتور محمد مصطفى هدارة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963، ص 375 .

ولم يقتصر مدح الأندلسيين لمدنهم على قول الشعر فحسب إنما مدحوها بأسلوب
نثري يدل على اهتمامهم بالمدن⁽¹⁾ .

وتتجسد المدينة عند الشاعر ابن زيدون بإطار من الحب والحنين ، فبعد أن اضطرته
ظروفه إلى الابتعاد عن مدينة " قرطبة " وشد الرحال إلى مدينة "إشبيلية " ، تذكر الشاعر
" قرطبة " وحدائقها وكل ما يثير فيه الحب والإعجاب ، فقال فيها مادحاً :

نهارُك وضاحٌ وليلُك ضُخيانُ
وتربُّك مصبوحٌ وعُصنُك نشوانُ
وأرضك تُكسى حين جُوك عُريانُ
ورِيّاك رَوْحٌ للنفوس وريحانُ وحسبُ الأمانِي ظُلك المتقياً⁽²⁾

ومثلما ارتبط مدح مدينة " قرطبة " بالحنين إليها عند الشاعر ابن زيدون ، فإن
الشاعر أبا بكر المخزومي يطرق المعنى نفسه ، فيقول :

أقرطبة الغراء هل لي أوبةٌ إليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربي منك غمامةٌ وقعقَ في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارٌ وأرضك روضةٌ وتربُّك في استنشاقيها عنبرٌ وردُ⁽³⁾

(1) ينظر: فضائل الأندلس وأهلها : ابن حزم وابن سعيد والشقندي ، تقديم : د. صلاح الدين المنجد ،
ط1 ، دار الكتاب الجديد ، 1968 ، ص 52 في ذكر مدينة " قرطبة " ومحاسنها ، وص 55 في ذكر
مدينة " جيان " ومفاخرها ، وص 56 في وصف مدينة " غرناطة " ، وص 57 في ذكر مدينة " مالقة " ،
وص 58 في ذكر فضائل مدينتي " المرية " و " مرسية " ؛ وينظر نفح الطيب : 459/1 - 462 .

(2) ديوان ابن زيدون : ص 133 .

(3) نفح الطيب : 155/1 .

إنّ المدن الأندلسية جميعها قد حظيت بالاهتمام والحب من الشعراء الأندلسيين، فتجسد هذا الحب بقصائد اتجهت لمدح المدينة نفسها ،فهذا ابن حزم الأندلسي يفضل بلاد الأندلس على كثير من البلدان كالصين مثلاً، والشاعر في أبياته الشعرية هذه إنما يجسد للحالة الوطنية في إطار الحالة القومية ،فيقول في قطعةٍ شعريةٍ وا مطلعها:

جـرى الحُبُّ مِنِّي مجرى النفس	وأعطيتُ عيني عِنانَ الفرسِ
ولي سيّدٌ لم يزل نافراً	وربما جادَ لي في الخلسِ
— —	
وكان فؤادي كنبتٍ هشيمٍ	يبسّ رميَ فيه رامٍ قبسِ
وياجوهر الصين سُحراً فقد	غنيثُ بياقوتةِ الأندلسِ ⁽¹⁾

إن هذه القصائد والمقطعات الشعرية التي تغنت بروعة الأندلس وجمال مدنها وطبيعتها الخلابة ، كانت خير دليل على حب الأندلسيين وتعلقهم بمدنهم . ولا بد من الإشارة إلى أنّ هناك بعض القصائد والمقطعات غير المنسوبة لأصحابها قد تغنت بحب الأندلس ومدحها ، فارتأيتُ أن أذكرها ضمن القصائد المدحية للمدينة الأندلسية لما تحمله من قيمةٍ جماليةٍ وفنيةٍ وتعبير صادق وإحساس عالٍ بالجمال ، فهذا أحد شعرا الأندلس يعبر عن حبه للأندلس ويمدحها بقوله :

⁽¹⁾ شعر ابن حزم الأندلسي : مجلة المورد ، م (27) ، ع (2) ، 1999 ، ص 95 .

حبذا أندلس من بلدٍ لم تزلْ تَتَّجُ لي كلَّ سرورٍ
طائرٌ شادٍ وظلٌّ وارفتُ ومياهٌ سائحات وقصُورٌ⁽¹⁾

ويعبر شاعرٌ آخرٌ عن حبه لجزيرة الاندلس ، وبكل معالم الفتنة والجمال فيها ،
فتشاركه الطبيعة في الإعراب عن حبه ومدحه للأندلس ، وذلك بقوله :

ياحسن أندلس وما جُمعت لنا فيها من الأوطار و الأوطانِ
تلك الجزيرة لست أنسى حُسنها بتعاقب الأحيان والأزمانِ
نسج الربيع نباتها من سُندسٍ موشية ببِدائع الألوانِ
وغدا النسيمُ بها عليلاً هائماً بربوعها وتلاطم البحرانِ
يا حُسنها والطل ينثر فوقها دُرراً خلال الورد والريحانِ
مازرتُها إلا وحياني بها حَذقُ البهارِ وأنمل السوسانِ
من بعدها ما أعجبتني بلدة مَعَ ما حَلَّتْ به من البلدانِ⁽²⁾

ويرى أحد الشعراء في مدينة " غرناطة " وكأنها العروس التي لا نظير لها ، فيقول :

غرناطة مالها نظيرٌ ما مَصُر ؟ ما الشام ؟ ما العراق ؟
ماهي إلا العروس تُجلى وتلك من جُملة الصداقِ⁽³⁾

وإذا كانت المدينة الأندلسية وبكل ما امتازت به من جمال وأصالة غرض الشعراء
الرئيس في المدح ، فإنها لم تكن تخلو من أذهانهم عندما كانوا يمدحون الأمراء والملوك

⁽¹⁾ نفح الطيب : 227/1 - 228 ، وكذلك في الشعر الأندلسي : ص 15 ، والأدب الأندلسي

موضوعاته وفنونه : ص 24 .

⁽²⁾ نفح الطيب : 228/1 .

⁽³⁾ المصدر نفسه : 148/1 .

الأندلسيين ، فتنجسد ملامح المدينة الأندلسية عند الشاعر ابن عمار بقصيدته التي مدح بها المعتضد بن عباد ملك " أشبيلية " والتي مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
ويستمر الشاعر إلى أن يقول :

نحتار إذ يهب الخريدة كاعباً والطرف أجرد والحسام مجوهر
أيقنْتُ أني من ذراه بجنة لما سقاني من نده الكوثر
وعلمْتُ حقاً أنَّ روضي مخصب لما سألت به الغمام الممطر
ياسائلي ما حمص إلا خاتم أبصرت إسماعيل فيه خنصراً (1)

وقد ذكر الشاعر مدينة " إشبيلية " في قصيدته المدحية هذه بصورة عرضية ، ذلك أن الشاعر كان يبغي مدح الخليفة المعتضد ، فمزج بين مدحه للمعتضد وبين مدحه لمدينة " إشبيلية " .

أمّا الشاعر أبْن الحداد فيجد الفرصة سانحة لمدح مدينة " المرية " من خلال مدحه للمعتصم بن صمادح، بقصيدة مطلعها :

دُوِّنَ الكَثِيبُ الفَرْدِ قُضِبَ وَكُتِبَانُ — — — — —
عَلَيْهَا لِوُورِقِ الْوَجْدِ سَجْعٌ وَإِرْنَانُ
تَسَحُّ بِأَهْوَاءِ الْوَرَى مِنْهُ رَاحَةٌ شَأْبِيُّهَا فِيهَا لُجَيْنٌ وَعَقْيَانُ
وَمَا كَيْمِينِيهِ الْفَرَاتُ وَدِجْلَةٌ وَإِنْ حَكُمُوا أَنَّ الْمَرِيَّةَ بَعْدَانُ
بِهِ أَعْتَدَلَتْ أَزْمَانُهَا وَهَوَاؤُهَا فَكَانُونُ أَيْلُولٌ وَتَمُورُ نَيْسَانُ (2)

إن ابن الحداد يبالغ في مدحه لهذه المدينة فيجعل اعتدال مناخها يعود لقدرة المعتصم بن صمادح صاحب حاضرة " المرية " ، فالشاعر من خلال أبياته الشعرية هذه، إنما ينظر للمدينة نظرة شعرية إبداعية عندما جعل من هذه المدينة تعادل في أزمانها بحيث

(1) محمد عمار الاندلسي ، دراسة أدبية تاريخية : ص 190 .

(2) ديوان ابن الحداد : ص 260-262 .

يصبح شهر كانون ،أيلول وشهر تموز ، نيسان والحقيقة أن التغيير في المناخ واعتداله يرجع إلى قدرة الله - سبحانه وتعالى - وإلى عوامل الطبيعة .

ويرى الشاعر الحصري القيرواني أنّ ممدوحيه القاضيين أبا المطرف الشعبي وأبا مروان بن حسون يمثلان مصباح مدينة " مالقة " ومهندين مجردين في مدينة " رية "، بقوله:

سهل الأباطح من عُلاك يَفَاغُ	والنَّجْمُ أَنْتَ وَكُفُّكَ المَرْبَاغُ
بل أَنْتَ شمسٌ لا تَزَالُ ولم يَزَلْ	في سائر الأفاق منك شُعَاغُ
من يختلف كل الوري في حُبهِ	فأبو المطرفِ حُبُّهُ إجماعُ
شهدتْ عَقُولُ العالمينَ بفضله	فسواءُ الأعداءِ والأشياءِ
مصباحُ مالقةٍ أراد خُمُوده	قومٌ ليرتفعُوا وهم أوضاغُ
. —	
كمهَنِّدين مُجَرِّدين بريَّةٍ	تتبو الظُّبى وكلاهما قطّاع ⁽¹⁾

وأهم دوافع الشعراء لنظم قصائد المديح جهود الممدوح في الدفاع عن المدينة وتحريرها وطردهم الغزاة ، فقد عد الشعراء ذلك أكثر الفضائل التي يمكن أن تليق بالممدوح ، وذلك نابع من حسهم الوطني العالي وغيرتهم الحامية على مدينتهم التي تمثل في نظرهم الوطن ، كما في قول الشاعر ابن حمديس يمدح علي بن يحيى الذي وقف بصلافة ضد النورمانيين ، فكانت هذه الوقفة الشجاعة مثار إعجاب الشاعر ، الذي مدح مدينة " سفاقس " من خلال قصيدته المدحية هذه ، بقوله :

خيالكِ للأجفانِ مَثْلُهُ الْفَكْرُ	فعيني ملأى بالهوى ويدي صِفْرُ
. —	
عسى بيننا يُبْقِي المودَّةَ بيننا	ولا ينتهي منّا إلى أَجَلٍ عمر
فقل لأناسٍ عَزَّسُوا بسفاقسٍ	لطائر قلبي في مُعَرَّسكم وَكُر
وفرخٍ صغيرٍ لانهوضَ لمثله	يراطنُ اشكالاً ملاقطها صُفْرُ
إذا ما رأى في الجوّ ظلَّ مُخَلِّقٍ	ترنّمَ واهتزّت قوادمه العشر
أحنّ إلى أوطانكم وكأنّما	ألاقي بها عَصَرَ الصبَا سَقِي العصر

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني : ص 122 - 123 .

ولم أر أرضاً مثل أرضكم التي يُقْبَلُ ذيلُ القصرِ في شطها البحر⁽¹⁾

أمّا الشاعر ابن اللبانة فيتجه من خلال بيتين شعريين إلى مدح ناصر الدولة صاحب جزيرة "ميورقة"، فتتضح صيغة المدح للمدينة وصاحبها عند الشاعر ابن اللبانة، بقوله :

وَعَمَرْتُ بِالْإِحْسَانِ أَفْقَ مَيُورْقَةٍ وَبَنَيْتُ فِيهَا مَا بَنَى الْإِسْكَندَرُ
فَكَأَنَّهَا بَغْدَادُ أَنْتَ رَشِيدُهَا وَوَزِيرُهَا - وَلَهُ السَّلَامَةُ - جَعْفَرُ⁽²⁾

وفي حُصْن " العُقَاب " وساكنيه يتقدم الشاعر ابو اسحاق الألبيري ذاكراً أيامه التي قضاها بين أكناف هذا الحصن ، وينظر له من خلال نظراته الزهدية ، فهو يتمنى المكوث فيه والابتعاد عن الناس لأنه لم يجد من بينهم من يصطفيه خليلاً ، فأتجه لمدح هذا الحصن وزائريه ، بقوله :

أَلَا حَيَّ الْعُقَابَ وَقَاطِنِيهِ وَقُلْ أَهْلًا بِهِ وَبِزَائِرِيهِ
حَلَلْتُ بِهِ فَنَفْسَ مَا بِنَفْسِي وَأَنْسَنِي فَمَا اسْتَوْحِشْتُ فِيهِ
وَكَمْ ذَيْبٍ نُجَاوِزُهُ وَلَكِنْ رَأَيْتُ الذُّيْبَ أَسْلَمَ مِنْ فَقِيهِ
وَلَمْ أَجْزَعْ لِفَقْدِ أَخٍ لِأَنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَوْتَى مِنْ أَخِيهِ
وَأَيَّاسَنِي مِنَ الْإِيَامِ إِنِّي رَأَيْتُ الْوَجْهَ يَزْهَدُ فِي الْوَجِيهِ
فَأَثَرْتُ الْبَعَادَ عَلَى التَّدَانِي لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ مِنْ أَصْطَفِيهِ⁽³⁾

لقد كانت المدينة الأندلسية في كل قصيدة من قصائد المديح تمثل رمزاً للوطن بكل ما يحمله من قيمة إنسانية وتاريخية وما أتسم به من جمال الطبيعة والملاذ الأمن الرغيد، وما قصائد الشعراء إلا تعبير عن ارتباطهم الشديد بالمدن ، التي تمثل مبدأ نشأتهم ومراتع صباهم وذكرياتهم ، ومن ثم فإنّ المدينة كانت تضع بصماتها في أشعارهم لأنها لا تغيب عن أذهانهم أبداً .

(1) ديوان ابن حمديس : ص 240 - 241 .

(2) شعر ابن اللبانة الداني : ص 47 .

(3) ديوان أبي اسحاق الألبيري : ص 83 - 84 .

وقد امتازت المدينة الأندلسية بسمات خاصة بها ، جعلتها مؤهلة لأن تكون دائمة الحضور عند شعراء الأندلس ، بما امتازت به من مكانة عريقة وأصالة عظيمة ، فلم يغفل الشعراء عن ذكر مدنهم في أشعارهم المدحية ، فاتجهوا لتخليد مدنهم بأن مدحوا طبيعتها الساحرة فكانت غرضهم المباشر والأساسي في قصيدة المديح .

وعندما كان الشاعر الأندلسي يتجه بقصائده لمدح الملوك والأمراء أو مدح أعيان المدينة وسكانها ، فكانت المدينة الأندلسية حاضرة بكل ملامحها في هذا الجانب أيضاً إلا أنها كانت تمثل غرضاً ثانوياً إذ إن غرض الشاعر الأساسي كان مدح الملوك والأمراء ، وهذا إبداع آخر يُذكر للشاعر الأندلسي مضافاً لإبداعاته السابقة .

خامساً : المدينة والغزل :

يعد الغزل أقدم الفنون الشعرية عند العرب لاتصالها بفطرة الإنسان وطبيعته الاجتماعية⁽¹⁾ ، وقد عرف الجاهليون الغزل واتجهوا فيه اتجاهين :
الاول يمثل الغزل العفيف الذي يحرص على كرامة وعفة المتغزل بها فلا ينالها بما يمس عفتها وطهارتها ، أما الاتجاه الآخر فيمثل الغزل الصريح أو المكشوف الذي يثير الغرائز ولايبالي بالاعتبارات الأخلاقية السائدة في المجتمع⁽²⁾ .
وقد دأب الشعراء منذ عصر ما قبل الإسلام على سلوك الاتجاه التقليدي في الغزل الذي تحفل به مقدمات القصائد العربية ، (وقد حظيت قصيدة الغزل بشيء من التطور والتجديد في المعاني والاختيلة الدقيقة التي كان الشاعر الأندلسية يخلق في آفاقها)⁽³⁾ .
وعند الحديث عن الغزل في البيئة الأندلسية نجد أنفسنا أمام هذا الجمال الساحر الذي تتمتع به الطبيعة الأندلسية ، مدفوعين إلى الربط التلقائي بين جمال الطبيعة والغزل ورقته وبهذا يكون الغزل ميداناً واسعاً وموضوعاً شائعاً في الشعر الأندلسي ، فهو يعد من (أكثر فنون الشعر التي طرقها الشعراء الأندلسيون فما من شاعر إلا وقد ادلى بدلوه فيه ، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يرسم حبه ولهوه بأبيات تحسب من أجمل الشعر الأندلسي ، استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس)⁽⁴⁾ .وقد عملت طبيعة البلاد الأندلسية في ازدهار هذا اللون من ألوان الشعر⁽⁵⁾ . ويرى أحد الباحثين أن شعر الغزل كان ينساب على شفاه الشعراء الأندلسيين أنسياً لأسباب كثيرة منها اختلاط الرجال بالنساء وإطلاق الحرية الفردية فضلاً عن جمال الطبيعة الأندلسية⁽⁶⁾ .وكانت المدينة الأندلسية تمثل في أشعار الأندلسيين المكان الذي يضم الحبيبة وذكرى الحب الذي جمع

(1) ينظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ص 500 .

(2) ينظر : تطور الغزل بين الجاهلية و الاسلام : د. شكري فيصل ، ط5، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1959 ، ص 192 .

(3) ابن بسام وكتابه الذخيرة : ص 138 .

(4) اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري : د. نافع محمود خلف ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990 ، ص 194 .

(5) ينظر : الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : ص 124 .

(6) ينظر : التجديد في الأدب الأندلسي : ص 41 .

الشاعر بحبيبته ، فيتذكر الشاعر ابن زيدون حبيبته ولادة وهو في مدينة " الزهراء " فيأخذه الحب والحنين لهذه المعاهد ، يجد الشاعر في مدينة " الزهراء " وكأنها حسناء يقف أمام جمالها ، فيتغزل بالمدينة لأنها المكان الذي جمعه مع الحبيبة وتشارك طبيعة المدينة الساحرة الشاعر في تغزله وهيامه ، ويحاول الشاعر ان يمزج بين حبه للحبيبة وبين حبه لهذه المعاهد والديار وطبيعتها الخلابة ، فيصوغ أعذب الألحان فقد (أحل الشاعر كل ما في نفسه وقلبه من مشاعر ، وكل ما في عقله من تفكير في الطبيعة ومزج كل أولئك في تصوير شائق وإيقاع متدفق يجيش بالحياة التي عبر عنها) (1) .

إن الشاعر ابن زيدون يحاول أن يشرك الطبيعة معه في غزله ومناجاته للحبيبة فعبّر عن هذا الحب ، بأن تغزل بمدينة " الزهراء " وطبيعتها الساحرة ، والشاعر قد صورَ نسيم هذه المدينة وقد رق له ويعتل لاعتلاله ، والدمع يترقرق في حدقات الزهور إشفاقاً عليه ، فيقول :

والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا	إنني ذكرْتُكِ بالزهراء مُشتاقاً
كأنه رق لي فأعتل اشفاقا	وللنسيم اعتلالٌ في أصائله
كما شققت -عن اللبات - أطواقا	والروضُ عن مائه الفضيّ مُبتسمُ
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهرٍ
بكت لما بي فجال الدمعُ راقا	كأن أعينه إذ عاينت أرقى
فازداد منه الضحى في العين إشراقا (2)	وردٌ تألق في ضاحي منابته

لقد أبدع الشاعر في تصوير هذه المدينة الفاتنة وطبيعتها الخلابة، فصور هذه الطبيعة الجميلة في حزن (كالحناء في لباس الحداد ،وبدت ولادة وكأنها تقمصت هذا الزهر ، فبدأ ورده في تألقها ونيلوفره كما يحاكي عيونها النواعس وقد نبهتها تبشير الصباح) (3) .

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : ص 171 .

(2) ديوان ابن زيدون : ص 139 .

(3) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : ص 184 .

وقد بلغ شدة إعجاب الشعراء الأندلسيين لمدنهم ، أن صارت هذه المدن أغاني عشق يرددوها الشعراء ، وهم يتغزلون بمدنهم ويتحدثون عنها كما لو أنها غوانٍ حسان . وهذا ما نجده في قول أحد الوشاحين الذي مدح المعتضد بن عباد في موشحةٍ قال فيها:

إشـــــــــــــــــبيليا عروســـــــــــــــــاً وبُعْـلُـها عـــــــــــــــــباد
وتأجــــــــــــــــها الشــــــــــــــــرق وســــــــــــــــاكُها الــــــــــــــــواد (1)

وإنَّ المستشرق بالنتيا وجد أنَّ شِعراء الأندلس يتحدثون عن مدنهم كما لو كانت زوجات من البشر ، فيقول : (كان من المألوف عند شعراء العرب في الأندلس الحديث عن المدن كما لو كانت زوجات من البشر)(2)

وكانت المدينة الأندلسية تمثل أيضاً المكان الذي خلا من الحبيبة ، فأصبح هذا المكان - المدينة - مثيراً للشفقة ، كقول الشاعر ابن حداد :

يا غائباً خطراتُ القلبِ مَحْضَرُهُ الصَّبْرُ بَعْدَكَ شَيْ لَسْتُ أَقْدَرُهُ
تَرَكْتَ قلبي وأشواقِي تُقَطِّرُهُ وَدَمْعَ عَيْنِي وأحداقِي تُخَدِّرُهُ
لو كُنْتُ تُبْصِرُ في تَدْمِيرِ حَالَتِنَا إِذْ لَأَشْفَقْتُ مِمَّا كُنْتُ تَبْصِرُهُ
فالعين دُونَكَ لا تحلى بِلَدَّتْهَا والدَّهْرُ بَعْدَكَ لا يَصْفُو تَكْدُرُهُ
اخفي اشتياقي وما أطوية من أَسْفٍ على المَرِيَّةِ والأنفاسُ تُظْهِرُهُ (3)

وتتجسد معاني الغزل الممزوج بالحنين للمدينة الأندلسية عند الشاعر ابن شهيد ، حيث عبر عن شعوره بالحنين لمدينة " قرطبة " بأن وصفها بصورة المرأة (الغانية) ، و (الزانية) ، و (الغنج) ، و (الغرام) وهذه العناصر كلها من عناصر الغزل ، وقد نظر الشاعر في هذه القطعة الشعرية إلى مدينة " قرطبة " نظرة جديدة ، فوصفها بالمرأة وأراد من ذلك أن يصف معنى حبه وحنينه " لقرطبة " بأنه لا يستطيع فراق هذه المدينة التي

(1) نفع الطيب : 212/3-213 .

(2) تأريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة: حسين مؤنس ، ط1، المكتبة المصرية ، القاهرة ، 1955 ، هامش ص 99 .

(3) ديوان ابن الحداد : ص 209-210 .

أصبحت جزءاً من حياته ، فيصفها بأسلوبٍ رمزي بانها كالعجوز المتعبه الفانيه لكنها تظل
في أعماقه رائعة وفاتنة ، فيقول :

عجوزٌ لَعْمُرُ الصَّبا فانيه	لها في الحشا صورةُ الغانيه
زَنَتْ بِالرَّجَالِ عَلَى سِنِّهَا	فيا حبَّذا هي من زانيه
تُرِيكَ الْعُقُولَ عَلَى ضَعْفِهَا	تُدارُ كما دارت السَّانيه
فقد عَنِيَتْ بِهَوَاهَا الخُلو	مُ فهي براحتَهَا عانيه
تَقَاصِرُ عَنْ طَوْلِهَا قُونَكَة	وَتَبْعُدُ عَنْ غُنْجِهَا دانيه
تَرْدِيَتْ مِنْ حُزْنٍ عِشِي بِهَا	غَرَاماً فَيَا طُولَ أَحْزَانِيه (1)

لقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يُجسِّد دور " المدينة الأندلسية " بوضوح ضمن هذا
الغرض الشعري - الغزل - ، حيث نجد ان شعراء الأندلس راحوا يتغزلون بمدنهم كما لو
انهم يتغزلون بفتاةٍ حسناء ، فكانوا يرون في مدنهم كلَّ معاني الفتته والجمال و الإثارة ،
فصوروا هذه المعاني بقطعٍ شعريةٍ غزلية اتسمت بالرقّة والعذوبة .

(1) ديوان ابن شهيد : ص 168 ، وقونكة ودانية من مدن الأندلس .

المبحث الأول

الصورة الشعرية

تعد الصورة الشعرية واحدة من أهم ادوات الشاعر التي يستخدمها في التعبير عن أحاسسه وشعوره ، وهي كذلك من أهم ملامح القصيدة العربية بصفة عامة وابرزها. ولم يغفل النقد الادبي - قديمه وحديثه - أهمية الصورة الشعرية في القصيدة العربية ، فهذا الجاحظ في القرن الثالث الهجري يرى في الشعر بأنه (صناعةٌ وضربٌ من النسج وجنسٌ من التصوير)⁽¹⁾.

وقد أخذت الكتب النقدية العربية القديمة بالحديث عن الصورة الأدبية، وعلى الرغم من أن البلاغيين لم يحددوا المصطلح صراحة و (قد لانجد المصطلح - بهذه الصياغة الحديثة - في الموروث البلاغي والنقدي عند العرب ، ولكن المشاكل التي يثيرها المصطلح الحديث موجودة في الموروث)⁽²⁾ ، الا ان الصورة ليست (شيئاً جديداً فان الشعر قائم على الصورة منذ ان وجد وحتى اليوم، ولكن استخدام الصورة يختلف بين شاعر وآخر ، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشعر القديم في طريقة استخدامه للصور)⁽³⁾ ، وتعد الصورة ايضاً إحدى الوسائل التي يتخذها الاديب لنقل افكاره وآرائه والتعبير عن عواطفه⁽⁴⁾.

وأجد أن كل واحدٍ من هذه التعريفات يُعبر عن جانبٍ من جوانب ماهية الصورة الشعرية وأهميتها في التعبير عن التجربة الشعرية التي تنبع من (طريقتها الخاصة في

(1) الحيوان : 132/3 .

(2) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : د. جابر احمد عصفور ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1973 ، ص7 .

(3) فن الشعر : د. احسان عباس ، دار بيروت ، 1955 ، ص 220 .

(4) ينظر : اصول النقد الادبي : احمد الشايب ، ط3، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1946 ، ص242 .

تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي⁽¹⁾ ، ويجد أحد النقاد الغربيين في الصورة الشعرية بانها (تلك التي تقدم عقدة فكرية وعاطفية في برهة من الزمن ، وهي توحيد لافكار متفاوتة)⁽²⁾ . ولابد من الأخذ بحقيقة مفادها أنّ الصورة لاينبغي دراستها بمعزل عن البناء الفني للقصيدة ، وأنما هي كلّ متكامل ذلك أنّ الصورة تعد ركيزة اساسية في بناء القصيدة ، وتتكون من عناصر عدة تقف اللغة على رأسها بما تتضمنه من الفاظ وتراكيب ، فالصورة الشعرية (تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة ، يقف العالم المحسوس في مقدمتها)⁽³⁾ . وبهذا فالشاعر لا يستطيع النجاح في بناء الصورة مالم يكن ممتلكاً للغة تمكنه في الوصول الى متلقيه .

وكذلك لاينبغي ان يفوتنا دور الموسيقى وايقاعاتها وموسيقاها الخارجية والداخلية ، فهي عنصر مهم من عناصر الصورة . ويعد الخيال من عناصر الصورة ايضاً وله اثر واضح في تشكيل الصورة الشعرية ، لذا عُدتّ الصورة أداة الخيال ووسيلته ومادته المهمة التي من خلالها يمارس فاعليته ونشاطه⁽⁴⁾ ، بمعنى أنّ الصورة الشعرية هي (نتاج فاعلية الخيال وتأثيراته الشعورية بالنسبة للشاعر نفسه فضلاً عن قوة التراسل بينه وبين المتلقي)⁽⁵⁾ .

وقد حفل الشعر الاندلسي بالصور الفنية المؤثرة بما تتضمنه من عناصر الجمال الفني، مما جعل شعراء الاندلس - وفي عصر الطوائف خاصة - يظهرون عناية فائقة بالصور الفنية ، ولاسيما الصور التشبيهية التي كان لها الأثر الكبير في ابراز السمات الفنية للمدينة الأندلسية من خلال رؤية الشعراء الفنية لمدنهم . ذلك لأن الفن الشعري له دوره الفاعل العميق في التأثير الفني عن طريق التصوير البياني لأنه يستخدم عناصر اللغة المجازية " التشبيه ، والاستعارة ، والكناية " التي لها الاثر العميق في توضيح المعنى وابرار الفكرة ثم تقريبها من واقع المتلقي ، وفي الوقت نفسه فان استخدامها يُعد معيار الجودة الفنية في الشعر .

(1) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ص 399 .

(2) نظرية الادب : رينيه ويلك واوستن وارين ، ترجمة : محيي الدين صبحي ، ط3، 1962، ص241.

(3) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - دراسة في اصولها وتطورها- : د.علي

البطل ، ط1 ، دار الاندلس ، 1980 ، ص 30 .

(4) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ص 19 .

(5) اتجاهات الشعر الاندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري : ص 252.

وبعد تأملنا في النصوص الشعرية الأندلسية ، وجدنا أن الصورة البيانية لأبعاد المدينة الأندلسية تمثلت بما يأتي :

أولاً : التصوير بالتشبيه :

يُعد التشبيه من الأساليب البلاغية التي استعان بها الشعراء الأندلسيون وذلك لتعميق المعنى وتقويته ، وهو من (أقدم صور البيان ووسائل الخيال ، وأقربها الى الفهم والأذهان ... وهو أيضاً من أهم وسائل البيان عند العرب بعد أن تأنقوا ودخل الترف حياتهم وصاروا يرون ما لم يروه في حياتهم الصحراوية)⁽¹⁾ .

وبهذا نجد أن شعراء الأندلس اعتمدوا على عنصر التشبيه اعتماداً كبيراً واكثروا منه ، ونلمس صدى ذلك في قول الشاعر ابن عمار ، وهو يصف قصر " الدمشق " بأجمل الاوصاف ، اذ يقول :

كل قصر بعد الدمشقِ يُدَمُّ فيه طاب الجنى وفاح المشمُّ

.....

بت فيه والليل والفجر عندي عنبرٌ أشهبٌ ومسكٌ أحْمُ⁽²⁾

إن الشاعر يتذكر الليلة التي قضاها بين احضان هذا القصر ، فكأنَّها العنبر الذي فاح طيبه الزكي، ويتذكر ايضاً عبق الفجر ونسيمه العليل وكأنه العنبر ، وقد أجاد الشاعر في توظيف التشبيه المركب حيث شبه الليل بالمسك والفجر بالعنبر .
ويُحسن الشاعر ابن شهيد في استخدام التشبيه وهو يتوقف أمام قصر " العامرية " فيبدع في وصفه ويلجأ إلى التصوير الذي قوامه التشبيه، وقد استخدم الشاعر أداة التشبيه (كأن) ليربط بين الثريا في السماء والجوهر المنثور ، وكذلك يربط بين المجرة ومساراتها بمنهج العامرية ، بقوله :

دارٌ عهدتُ بها الصبا لي دوحةً اتقياً الفرحات من أفنانها

وكأنما فيه الثريا جوهرٌ نثرت فرائده يداً دبراتها

(1) فنون بلاغية (البيان - البديع) : د. احمد مطلوب ، ط1، دار البحوث العلمية ، 1975 ، ص27.

(2) محمد بن عمار الأندلسي: ص 255 ؛ وله قطعة شعرية اخرى في وصف جمال الأندلس قائمة على التشبيه الرائع في: ص 189-190 .

وكأنما طرق المجره منهج⁽¹⁾ للعامرية ضاء من فينانها⁽¹⁾

وقد أجاد الشاعر في تشبيهه (ثريا القصر) وكأنها الجواهر المنثورة خرائزه .
وقد شكلت الطبيعة الجميلة التي اتصفت بها بلاد الأندلس لوحات فنية رائعة الجمال،
استمد منها الشعراء مادتهم الخصبه في رسم لوحاتٍ بدعيّةٍ ورائعةٍ للمدن الأندلسية، فوجد
الشاعر الأندلسي يوظف الأساليب البلاغية لأظهار براعته ،مستعيناً (بالتشبيه) ليكون أحد
هذه الاساليب .

فهذا الشاعر ابن اللبانه يعمد إلى التشبيه وهو يعبر عن جمال المدينة الأندلسية
بقوله :

فكأنّما ماء الضمام مدامّةً وكأنّ ساحات الديار كؤوسُ
بلدٌ أعارته الحمامة طوقها وكساه حلّة ريشه الطاووسُ⁽²⁾

ان هذه القطعة الشعرية قائمة على التشبيه ،وهو تشبيه واضحٌ وصريحٌ اذ يشبه ماء
الضمام بالمدام ،وساحات الديار بالكؤوس ،والصورة التشبيهية هنا لايقصد الشاعر من
ورائها صدق المنظر بقدر ما يقصد ان يعطينا صورة مستوحاة من الخيال تعبر عن
الجمال في تلك الأرض ،فنحنُ نستطيع ان نتصور مدى جمالية قوله: ان مياه الامطار
كأنها الخمر وسوح الديار كؤوس اذ تمتليء بالماء وتتناثر قطراته ،وننشغل بالتلذذ بالمنظر
الجميل (الخمر والكؤوس) ،فهذا التصوير التشبيهي هو الذي عكس لنا جمال المطر في
سوح الديار وليس العكس.

وينبغي ان لايفوتنا أنّ الصورة الشعرية هي مزيج بين المجاز والحقيقة ، وهذا ما
ذهب اليه الدكتور عناد غزوان في رؤيته للصورة بأنها تعبير(فني دقيق عن تجربة من
التجارب بأسلوب يرتفع عن الحقيقة إلى المجاز ولا يبالغ في الاتكاء المتطرف على
المجازي او الحقيقة .. أي أن الصورة مجاز وحقيقة تولد مصاحبة للحظة الالهام)⁽³⁾ .

(1) ديوان ابن شهيد :ص165-167 .

(2) شعر ابن اللبانه الداني: ص55 .

(3) الخلود في الادب هو تثبيت قيم جديدة ، مجلة آفاق عربية ، ع (5) ، 1984 ، ص 116-117 .

وإن الصور الشعرية القائمة على التشبيه تتمتع بميزات لها دور واضح في إثراء الكلام بمعانٍ بلاغية ، مما يزيد من قدرة الشاعر على التأثير في نفوس سامعيه، ذلك لأن التشبيه وكما يراه ابن الأثير قائم على (المبالغة ، والبيان ، والايجاز) ⁽¹⁾ .

ويكثر التشبيه لدى شعراء الاندلس نظراً لما أمتازت به طبيعة هذه البلاد من الجمال والوداعة ، وتتجسد الصور التشبيهية الرائعة عند الشاعر ابن عمار وهو يتجه نحو الطبيعة الساحرة ، بقوله :

والروض كالحسنا كساه زهره	وشياً وقلده نداه جواهره
أو كالغلام زها بورد رياضه	خجلاً وتاه بأسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صافٍ أطل على رداء أخضرا ⁽²⁾

إنه وصف جميل لروضة من رياض الاندلس الزاهية ، واستخدام الشاعر لادوات التشبيه (الكاف) و (كأن) يزيد من جمال الصورة الوصفية لطبيعة المدينة الاندلسية ، ويكشف الشاعر الصورة التشبيهية حيث يجعل المشبه به مركباً، فيمنح الروض صورة حسنة قد تزينت ، ويمنحها صورة أخرى هي صورة الغلام الذي تورده من الخجل. اما الشاعر محمد بن مسلم فانه يتجه الى وصف طبيعة مدينة " قرطبة " ، ولياليها الساحرة الجمال ، بقوله :

سقى جديداً من الايام قرطبةً	ماء الشباب وريق البارد الخصر
وقفاً يمد الندى في روضه شرقاً	من الغمام مع الأصال والبكر

ثم يمضي الشاعر واصفاً الطبيعة الاندلسية ، مستخدماً أداة التشبيه (كأن) وهو يكررها ثلاث مرات ، مما يدل على تأكيده لجمال طبيعة هذه المدينة ، فيقول :

كأنه فيه والأمساء يبسطه	رداء إلفين قد صار إلى وطر
ليل فيه سواد يستهام به	كأنه في سواد العين والشعر
وللهار سنأ يحكي تبلجته	نور البصيرة مقروناً مع البصر

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ابن الأثير ، تحقيق :د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ط1، مكتبة نهضة مصر ،الغزالة ،القاهرة، 1959، 123/2 .

(2) محمد بن عمار الاندلسي : ص 189 .

كأنما شمسها تحت الغمام سنا وجهٍ تنفس في مرآته نُضر⁽¹⁾

ويستفيد الشاعر ابن سارة من (التشبيه) في وصف حديقة من حدائق الاندلس ،
ويستعمل أداة التشبيه (كأن) التي كررها مرتين ، فالشاعر يصور من الواقع المحيط به
صوراً لموصوفه حيث يصور الحديقة وقد زهت بنرجسها بصورة انسان متهلل الوجه سروراً
، وورودها (بهارها) الحمراء يعكس فيها صورة الأصيل ، نحو قوله :

وحديقة من نرجس وبهار	رفعت لواء الحسن للنظار
فكأنما هذا ضحى متهلل	وكأنما هذا أصيل نهار
أخوان أمهما معاً شمس الضحى	وابوهما قمر السماء الساري
شرباً سلاف القطر حتى عريدا	وتراجما بكواكب الازهار ⁽²⁾

وبهذا نجد ان الشاعر الاندلسي استخدم التشبيه في صياغة عواطفه استخداماً عفويّاً
مما منح صوره الشعرية رقة وعذوبة وتأثيراً، فكانت هذه الصور التشبيهية وسيلة من
وسائل التصوير التي يكشف من خلالها الشاعر عن خيالات النفس وروائها، عاكساً
انطباعها عن الاشياء والعلاقات القائمة بينها، موظفاً ذلك كله في أغراضه الرئيسية حاملاً
المتلقي على التأثر به .

ولابد من الاقرار بان التشبيه يعد من علوم البلاغة (لما فيه من الدقة واللطافة ولما
يكتسب به اللفظ من الرونق والرشاقة ، ولأشتماله على إخراج الخفي إلى الجلي وإدناؤه
البعيد من القريب)⁽³⁾ .

(1) الذخيرة : م1، ق3، ص 444 .

(2) ابن سارة الأندلسي حياته وشعره : ص 50 ؛ وكذلك الذخيرة : م2، ق2، ص841 .

(3) الطراز : العلوي ، مطبعة المقتطف ، مصر، 1914، 266/1 .

ثانياً: التصوير بالاستعارة :

اما الاستعارة فهي من الاساليب البلاغية التي استعان بها الشاعر الاندلسي ، والتي من خلالها تتجلى قدرة الشاعر الذهنية ، ونعني بها (نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول اليه...) (1) ، وهي ايضاً (ان تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به، فتعيّره وتجريه عليه) (2) .

والاستعارة وإن كانت تشترك مع التشبيه في أمورٍ الا انها تختلف عنه في أمور اخرى، ومنها الامكانيات التعبيرية التي توفرها للشاعر، وهي على ضربين استعارة نصريحية ، واستعارة مكنية ، فالاستعارة النصريحية) وهي ما صُرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه (3). وتتجلى الاستعارة بوضوح عند الشاعر ابن حزم وهو يعبر عن اشيائه لوطنه ، بقوله :

مُسْهَدُ الْقَلْبِ فِي خَدَّيْهِ أَدْمَعُهُ	قَدْ طَالَمَا شَرَقْتَ بِالْوَجْدِ أَضْلَعُهُ
كَمْ فِكْرَةٍ دَاهَمَتْهُ فِي مَسَارِحِهَا	تَسْقِيهِ سَمًا نَقِيعًا بَاتَ يَجْرَعُهُ
ذَكَرَى أَفْرَاحَهُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ	تُوحِي إِلَى الْقَلْبِ أَسْرَارًا تَقْطَعُهُ (4)

فقد شخص الشاعر الفكرة - وهي ما يجول في الفكر والخاطر - بانها تقوم بأفعال إنسانية، حيث تداهمه وتسقيه سمًا نقيعًا بات يجرعه في غربته.

وكذلك يتجسد معنى الحنين للوطن وللايام الماضية عند الشاعر ابي عيسى بن ليون الذي يبدع في استخدام الاستعارة ، وهو يتسائل عن ذهاب ايام انسه وزوال ملكه ، فيقول :

يَالَيْتَ شَعْرِي وَهَلْ فِي لَيْتٍ مِنْ أَرْبٍ	هِيَاهُ لَا تُقْتَضَى مِنْ لَيْتٍ آرَابُ
أَيْنَ الشَّمْسُ الْكَانَتْ تَطَالَعْنَا	وَالْجَوُّ مِنْ فَوْقِهِ لِلَّيْلِ جَلَابُ
وَأَيْنَ تِلْكَ اللَّيَالِي إِذْ تَلَمُّ بَنَا	فِيهَا وَقَدْ نَامَ خُرَّاسٌ وَحْجَابُ (5)

(1) المثل السائر : 83/2 .

(2) دلائل الاعجاز في علم المعاني: الجرجاني، تعليق محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة ، 1961، ص 45.

(3) فنون بلاغية (البيان - البديع) : ص 132 .

(4) شعر ابن حزم الاندلسي : مجلة المورد ، م (27) ، ع (2) ، 1999 ، ص 98-99 .

(5) الذخيرة : م 1، ق 3، ص 107 .

حيث استعار الشاعر لفظة (الجلباب) وهو الثوب الطويل الذي يرتديه الإنسان وأضافه الى شيء لم يعرف به وهو (الجو) ، فوصف الشاعر جو مدينة "لورقة" بأنه كالجلباب يلبسه ليل المدينة، وإنَّ الشاعر يصور الجو بصورة انسان فيستعير له الجلباب. واستعان شعراء الاندلس ايضاً بالاستعارة المكنية (وهي التي اختفى فيها لفظ المشبه به واكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه)⁽¹⁾. كقول الشاعر ابن خفاجة وهو يكي المأ على ضياع مدينة "بلنسية" ، بقوله :

عاشت بساحتك العدى يادارُ	ومحا محاسنك البلى والنَّارُ
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها	وتمخضتْ بخرابها الأقدارُ
كتبْتُ يَدُ الحَدَثانِ في عرصاتها	لا أنبتُ أنبتِ ولا الديارِ ديارُ ⁽²⁾

هنا يمنح الشاعر للحدثان صفة من صفات الانسان وهي اليد ،فقد استعار الشاعر لفظة (اليد) من شيء عُرف به وأظفاه إلى شيء لم يعرف به ، جاعلاً للحدثات والخطوب الجسيمة يداً تكتب وتؤرخ ، والاستعارة هنا تشخيصية حيث يجعل من الخطوب كائناً حياً يمكن ان يلد او يتمخض .

اما الشاعر الحصري القيرواني فقد عبر عن ارتياحه في المكوث والاقامة بمدينة "ريّة" واصفاً حاله وهو في نشوة الراحة ،مشبهاً حال جسمه وقد اينع كعود الشجر عندما يورق ويزهر مُستعيراً لفظة (يورق عودي) ، بقوله :

بريَّة ريا روضةٍ ورياضٍ	بها علما علم وأعدل قاضٍ
سيورقُ عُودي إن سكنتُ بريَّة	ويسودُّ من فودي كلُّ بياضٍ
أريَّة مرعاي المريع وأينقي	وانتِ ابنة في عصمة ابن عياض ⁽³⁾

ونلاحظ الاستعارة المكنية عند الشاعر الجزار السرقسطي ، وهو يستعين بها ل اظهار قدرته في وصف قصرٍ متناهي في الحسن والجمال ، بقوله :

(1) فنون بلاغية (البيان - البديع) : ص 133 .

(2) ديوان ابن خفاجة : ص 354 .

(3) ابو الحسن الحصري القيرواني : ص 123 .

اليوم حُلِّي عا طُل العلياء اليوم جرّ الدهر ذيل بهاء
وكفأك تشريفاً وفخراً أن تُرى بـ "الجعفري" مؤهلاً لبناء
قصرٌ غدا فيه السرور مُعرساً يغشى العيون بساطع الألاء⁽¹⁾

وقد تجسدت الاستعارة في قوله : (جرّ الدهر ذيل بهاء) ، إذ يُجسم الشاعر الدهر جاعلاً له صفات إنسانية فهو يمشي متبختراً، وهذه الاستعارة تفيد تجسيم وتجسيد الأشياء وضمها أبعاداً إنسانية مؤثرة.

ويترجم الشاعر ابن اللبانة حبه الكبير (للأندلس) فمزج في قطعة شعرية بين الاستعارة والتشبيه ، بقوله :

نزل الحيا بنزوله في معهد لبس المسرة ربعه المأنوس
بلدٌ أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس⁽²⁾

إنها أبيات قائمة على الاستعارة إذ يستعير الشاعر للحياء صفات إنسانية بقوله: (نزل الحيا)، فشبه الحياء بالإنسان وحذف المشبه به وأبقى على لازمة من لوازمه وهي النزول فهذه استعارة مكنية ، وكذلك قوله : (لبس المسرة ربعه المأنوس) إذ جعل المسرة ثوباً يلبس وهو تشبيه حذف أداته ووجه الشبه، وجعل الربع انساناً يقوم بأفعال إنسانية ، يلبس ويرتدي ، وهنا استعارة مكنية ايضاً ، وتتسم الاستعارة المكنية بدرجة عالية من العمق إذ تخفي لفظ المستعار وتُحل بعض لوازمه محله .

وعندما يشعر المعتمد بن عباد بالاشتياق لآيامه الماضية ويبكي على ماضي زمانه، متذكراً أيام انسه في قصوره يتجه نحو الاستعارة المكنية لما تحويه من طاقات تعبيرية ، وأن استعارات الشاعر هذه القائمة على التشبيه هي من قبيل المبالغة لاجل التأثير في نفس المتلقي ، بقوله :

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على أثر غزلانٍ وآسادٍ
بكت ثرياه لأغمّت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

(1) روضة المحاسن وعمدة المحاسن : ص 85 .

(2) شعر ابن اللبانة الداني : ص 55 .

ثم يتجه الشاعر الى الطبيعة لتشاركه البكاء :

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج كل دُلّه بادي
ماء السماء على أبنائه دُرّر يالْجّة البحر دُومي ذات إزْبَاد⁽¹⁾

وإن الشاعر يرى في هذه القصور (المبارك، والوحيد ، والزاهي ، والزاهر) ، بأنّها كلّها تشاركه البكاء على الماضي السعيد ، فجميع هذه القصور والمنابر شهدت امجاد المعتمد وافراحه وهي ايضاً شهدت زواله وزوال ملكه ، فتركت في نفسه أثراً عميقاً ، فكأنه يجعل من الثريا والقصر انساناً يمكن ان يبكي ويتألم .

أمّا الشاعر ابن عمار فانه يتشوق لمدينة "شلب" وقد اتجه الشاعر إلى الاستعارة المكنية مستعيناً من خلال تجسيد معاني الحنين فيبث همومه واشجانه ، بقوله :

عليّ وإلا ما بكاء الغمائم وفي وإلا ما نياح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم
وهل شفقت هوج الرياح جيوبها لغيري او حنت حنين الروائم⁽²⁾

نلاحظ ان هذه القطعة الشعرية تقوم على الاستعارة (مالبست ... ولا قامت ، وهل شفقت ... او حنت..) وهي استعارة مكنية ، وهذا النوع من الاستعارة له تأثير في النص اذ يجسم الاشياء الجامدة ويمنحها ابعاداً وتأثيراً وتحكماً وإدراكاً ، وهو مبالغة في اظهار العواطف وتصويرها فضلاً عن الاستعارة فان الشاعر استعان بتكرار تركيب الاستثناء في قوله : (عليّ والا ما بكاء الغمائم ... وفي وإلا ما نياح الحمائم) وافاد هذا التكرار في تأكيد اهتمام الشاعر بمأساته وغربته والمه ، فضلاً عن تقديم المستثنى إذ ان اصل الكلام (ما بكاء الغمائم الا عليّ وما نياح الحمائم الا فيّ) ، وهذا التقديم وضّح مشاعر ابن عمار وهو يبث همومه.

(1) شعر ابن اللبانة الداني : ص55 .

(2) محمد بن عمار الأندلسي : ص209 .

ويرى البحث أن الشاعر الأندلسي نجح في الافادة من الاستعارة - بنوعها - ذلك لان الاستعارة (تفيد شرح المعنى وتعمل في النفس ما لاتفعل الحقيقة، وتفيد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والايجاز وتحسين المعنى وابرازه، ثم هي الى جانب ذلك كله طريق للتوليد والتجديد ، لانها تكشف عن صور جديدة ومعانٍ بديعة)⁽¹⁾ .

ثالثاً : التصوير عن طريق الكناية :

وهي ضربٌ آخر من ضروب البلاغة استعان بها شعراء الاندلس لخدمة التجربة الشعرية ، ولاظهار قدرتهم الابداعية في تجسيد الاساليب البلاغية في قصائدهم ، فالكناية هي (أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى تاليه وردفه في الوجود ، فيوميء اليه ويجعله دليلاً عليه)⁽²⁾ ، وقد (أجمع الجميع على إن الكناية ابلغ من الافصاح ،والتعريض اوقع من التصريح)⁽³⁾ .

وأفاد ابن حمديس من الكناية وهو يصف احد القصور ، وقد استهل الشاعر قصيدته بلفظ المدح (ياحبذا) ليزيد من جمال النص وروعته ، فيقول :

يا حبذا دارٌ يدُ الله مسحت	عليها بتجديد البقاء فما تبلى
إذا فتحت أبوابها خلت أنها	تقولُ بترحيبٍ لداخلها أهلاً
وقد نقلت صناعاتها من صفاته	إليها أفانيناً فأحسننت النقلا ⁽⁴⁾

تتضح الكناية عند الشاعر بلفظة (يدُ الله) للدلالة على قدرة الله تعالى ورعايته لهذه القصور والديار ،فضلاً عن انه كنى عن صفة الكرم والجود لتلك الدار وصاحبها بقوله: (تقولُ بترحيبٍ لداخلها أهلاً) ،فأضفى الشاعر صفة الكرم والجود على القصر وصاحبه.

ولم يبتعد ان حمديس من استخدام الكناية عندما رمز الشاعر الى شجاعة فرسان "صقلية" وتضحيتهم بالغالي والنفيس في سبيل ارضهم ، وكأنهم الاسود العوايس شراسة وضرواء ، بقوله :

لأمرٍ طويلٍ لهم نُرْجي العَرامِسا وتطوي بنا أخفافهنّ البسابِسا

(1) فنون بلاغية (البيان - البديع) : ص 160 .

(2) دلائل الاعجاز : ص 45 .

(3) المصدر نفسه : ص 48 .

(4) ديوان ابن حمديس : ص 378 .

أرى بَلَدِي قد سامه الرومُ ذلَّةً وكان بقومي عزُّهُ متقاعساً
مشوا في بلادٍ أهلها تحت أرضها وما مارسوا منهم أبيضاً مُمارساً
ولو شَقَّقَتْ تلك القبورُ لأنْهَضَتْ إليهم من الأجداثِ أسداً عابساً
لكن رأيتُ الغيل إن غاب ليثُهُ تبخترَ في أرجائه الذئبُ مائساً⁽¹⁾

لقد أجاد الشاعر في استخدام الكناية في هذه القطعة الشعرية والمتمثلة بقوله :

ولو شَقَّقَتْ تلك القبورُ لأنْهَضَتْ إليهم من الاجداثِ أسداً عابساً

فلفظة (أسداً عابساً) كناية عن شجاعة الفرسان، ونلاحظ أنَّ الشاعر استخدم التشبيه الضمني في البيت الأخير ، مما يؤكد على ابداع الشاعر في الاستعانة بأكثر من اسلوب بلاغي في النص الشعري الواحد ، وهذا يدل على سعة خيال الشاعر وقدرته الابداعية في قول الشعر .

اما الشاعر ابن وهبون فتتضح الكناية عنده عندما يمدح الامير المعتمد بن عباد، بقوله :

أرْيَعُ الندى نهمي به ونَصوب ومَغْنَى العُلا ناوي له ونُثوبُ
فيا أيها القصر (المبارك) لاتزل وانْتَ جديدُ الخُلتين قشيبُ
ويأيها الملك (المؤيد) دُم به ليُترَعَ كُوبٌ او يثارَ عُكُوبُ
إليك أشارتُ أعينٌ وأناملُ وفيك أُجِلت ألسنٌ وقُلُوبُ
كأنَّكَ من طبع الحِياةِ مرَّكبُ فأنت إلى كلِّ النفوسِ حبيبُ⁽²⁾

إن الشاعر في هذه الابيات استعمل الكناية (الرفعة وعظمة الشأن) عندما رمز الى حسن خلق وطباع المعتمد بن عباد وقربه من النفوس ، فقد صار الممدوح - المعتمد- حبيباً لكل النفوس ، فأتجه الشاعر إلى وصف قصر ابن عباد " قصر المبارك" داعياً له بالدوام ، وكان قصد الشاعر الحقيقي هو ان يمدح الامير المعتمد ويدعو له بدوام ملكه ليحقق السعادة لجميع ابناء " اشبيلية" .

⁽¹⁾ ديوان ابن حمديس : ص 276 .

⁽²⁾ شعر ابن وهبون المرسى : ص 111-113 .

وقد رمز الشاعر ابن سارة إلى أهمية مدينة " قرطبة " بكونها دار العلم ، والمُلك
والمعرفة في آن واحد ، بقوله :

الله اكبر قد وافيتُ قرطبة دار العلوم وكُرسى السلاطين
وقد تهلّل الى وجه النجاح بها طلق الأسرة من وجه ابن حمدين⁽¹⁾

إما ابو عيسى بن لبون فانه عندما شعر بالحنين لأيام ملكه الزائل استعان بالكناية ،
بقوله :

خيلي عوجا بي على مسقط الحمى لعلّ رسوم الدار لم تتغيرا
فأسأل عن ليلٍ تولى بأنسنا وأندب أياماً خلت ثم اعصرا
ليالي إذ كان الزمان مسالماً وإذ كان عُصْنُ العيش مياس أخضرا⁽²⁾

فقد كنى الشاعر عن العيش الرغيد ورقة الحياة وأمنها في مدينته ومكوته فيها بأنها
أيامٌ دائمة الخضرة والنعيم، وهذه الكناية تتضح في البيت الاخير من هذه القطعة الشعرية.
وإذا كان هذا حال ابن لبون عندما هاجت به الذكرى لأيامه الماضية فان الامير عبد
الله الجذامي لم يختلف عنه بحنيه لمدينة "سرقسطة" وانه غادرها مجبراً، فرمز لهذا الرحيل
الاجباري بلفظة (رغم انفي لا إختياري) ، فقال :

إن بنيتُ عن سَرَقْسَطةٍ فـرغم أنفي لا إختياري
ما جال طرفي في السما ء وقد نأت عنها ديار⁽³⁾

وتتضح الكناية عند الشاعر ابي عامر بن الاصيلي ، عندما أخذه الشوق والحنين
إلى مدينة " سرقسطة " وأهلها الكرام ، فقال :

على سرقسطة ابكي دماً وأمواها العذبة المُحيية
وقومٍ كرامٍ فواحسرةً على الجمع منهم أو التنشية

(1) ابن سارة الأندلسي حياته وشعره : ص 103 ؛ وكذلك النخيرة : م 2، ق 2، ص 850 .

(2) النخيرة : م 1، ق 3، ص 107 .

(3) المغرب : 435/2 .

وأصبحتُ في بلدةٍ أهلُها سباعٌ لأهلِ النهى مؤذية⁽¹⁾

فقد كنى الشاعر عن حنينه واشتياقه لمدينة " سرقسطة " بقوله : (انه كان يبكي دماً
من شدة الشوق والحنين) .

(1) الذخيرة : م2، ق3، ص 859 .

المبحث الثاني

اللغة والأسلوب

إنَّ الانسان عندما اراد أن يكتشف العالم من حوله وأن يعرف اسراره عرف اللغة، التي هي الوسيلة المشتركة للتفاهم والتفكير بين الناس منذ وجدوا .وهذه اللغة - وسيلة التخاطب - تختلف في الشعر الذي منحها الخصوصية بعد أن كانت مطلقة ، من خلال رؤيته وروحه ،ذلك لأن الشعر وكما عبّر عنه فاليري (فن اللغة)⁽¹⁾ .

ويؤكد اللغويون على أنَّ للشعر لغة خاصة به بقولهم : (ان للشعر لغته الخاصة التي يتطلب منها ان تكون مستوفية للشروط التي اشترطوها لتستقيم في مكانها جميلة نضيرة ، وهو بحكم قيوده محتاج إلى العمل والنظر وكد الذهن وإلى نوع من الاصطفاء والاختيار)⁽²⁾ .

وبهذا تكون اللغة التي يستعملها الشاعر استعمالاً خاصاً هي مادة الأدب التي من خلالها ينقل إلى الناس خبرة جديدة مفعمة بالحياة، وهذه اللغة (ليست مجرد مادة هامة كالحجر ، وإنما هي ذاتها من ابداع الإنسان ولذلك فهي مشحونة بالتراث الثقافي)⁽³⁾ ، وكلما تمكن الشاعر من لغته استطاع ان يضمن لقصيدته الابداع والنجاح، لذا عدت (اللغة في بعدها الشعري مقياساً نقدياً مهماً في الموازنة بين قدرات الشاعرية على التوصيل)⁽⁴⁾ . وقد لاحظ الدكتور مصطفى مندور العلاقة الترابطية الوثيقة بين طبيعة اللغة والشعر ،حيث قال:ان الاستخدام الشعري للغة هو اقرب الاستخدامات من طبيعتها. ولا نرى الشعر ضرباً من الايقاع الموسيقي فحسب ، إنَّه خلق لغوي⁽⁵⁾ .

(1) نظرية البنائية في النقد الادبي : د. صلاح فضل ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1978 ، ص 270.

(2) لغة الشعر بين جيلين : د. ابراهيم السامرائي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت) ، ص 22 .

(3) نظرية الأدب : ص 22 .

(4) مستقبل الشعر وقضايا نقدية : د. عناد غزوان ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1994، ص 43 .

(5) ينظر: اللغة والحضارة ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1974، ص 98 .

وبهذا فمن الممكن القول أنَّ مهمة الشعر هي (أنَّ يترك لدينا انطباعاً قوياً بالاتحاد العميق الذي لاتنفصم عراه بين الكلمة ومعناها)⁽¹⁾ .

فتتضح أهمية اللغة بكونها واحدة من أهم مكونات البناء الفني للقصيدة العربية ، وهي أداة الشاعر في خلق صوره الشعرية وإيصال افكاره وآرائه والتعبير عما يريد الإفصاح عنه إلى المتلقي .

وكانت لغة الشعر الأندلسي قد (تخلصت من الغموض والتعقيد وتغير احساس الشاعر بالالفاظ بتطور ذوق العصر)⁽²⁾، فكان الشعراء الأندلسيون يعمدون في قصائدهم إلى الالفاظ الواضحة المعاني ، والعذبة في النطق التي لاتحتاج إلى تأمل عميق . وما دامت اللغة الشعرية (عملاً فردياً يعتمد على الخلق والابداع ويرتكز على التقاليد الشعرية الراسخة من جهة، ولغة الحياة المعاصرة من جهة أخرى)⁽³⁾ ، فكان لابد ان تتأثر لغة الشعر الأندلسي بالبيئة الأندلسية الرقيقة، على نحو قول ابن زيدون :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والافق طلق ومراى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله	كأنه رق لي فأعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم	كما شققت عن اللبات أطواقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقى	بكت لما بي فجال الدمع رراقا
ورد تلق في ضاحي منابته	فازداد منه الضحى في العين اشراقا ⁽⁴⁾

لقد اتخذ الشاعر من الطبيعة الآسرة لمدينة " الزهراء " اداة فنية ، يفصح من خلالها عن تجربة الشوق والحب لمدينة " الزهراء " وأميرة حبه ولادة ، فرسم صورة شعرية اتسمت بالفاظ رقيقة عذبة استمد مفرداتها من معجم الطبيعة الزهراوية .

وهكذا نجد أنَّ عملية اختيار الالفاظ عنصر مهم من عناصر تكوين الأسلوب وهذا يرتبط بطبيعة الحال بموضوع النص ، ومعجم العصر ، وثقافة الشاعر ، ومستوى الجزالة

(1) نظرية البنائية في النقد الأدبي : ص 271 .

(2) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري : ص 224 .

(3) نظرية البنائية في النقد الادبي : ص 93 .

(4) ديوان ابن زيدون : ص 139 .

او الرقة إذن يختلف باختلاف البيئات والعصور⁽¹⁾ . وقد أدرك النقاد القدامى أهمية الاسلوب ومكانته في نظم القصائد ، فذكر حازم القرطاجني أنَّ (الالفاظ والمعاني كاللآليء، والوزن كالسلك ، والمنحنى الذي هو مناط الكلام وبه اعتلاقه كالجيد له ، فكما أنَّ الحليَّ يزداد حُسنه في الجيد الحسن، فكذلك النظم إنَّما يظهر حُسْنه في المنحنى الحسن)⁽²⁾ ، وهكذا نستطيع ان نتلمس أنَّ الالفاظ في الشعر الاندلسي أتسمت بكونها (عذبة في النطق ، خفيفة على السمع يدل اختيارها على احساس رقيق ، وطبع طيع ، حتى يخيل للقاريء أنَّ كلامهم فطري ، لا يحتاج إلى كد ذهن وإجهاد خاطر)⁽³⁾ .

فنلاحظ ذلك عند الشاعر الأندلسي وهو يحاول أن يمزج كثيراً في شعره بين حبه للمدينة الأندلسية وعناصر الطبيعة في هذه المدينة، وتمثلت هذه الظاهرة عند الشاعر ابي عامر بن مسلمة الذي هام بجمال الاندلس ، فترجم هذا الحب بقوله :

وروضـةٍ مُشـرقةٍ	بكلِّ نـورٍ مُجتـمى
فيها بهـارٌ باهرٌ	ونرجس يشكو الضنى
وياسمينٌ ارضـه	ونوره تلونـا ⁽⁴⁾

ويمضي الشعر الاندلسي مع هذه العذوبة والرقة التي بدت واضحة كل الوضوح في هذه الفترة - القرن الخامس الهجري - فكان الشعر وثيقة صادقة سجلت برؤية فنية احساسات الشاعر الاندلسي بلغة سهلة عذبة ، على نحو ما نلمسه في قول ابن حزم الذي عمد إلى وصف طبيعة الاندلس بأسلوب واضح ولغة رقيقة :

ولما تروحنا باكناف روضة	مهدلة الأفنان في تربها الندى
وقد ضحكت انوارها وتضوعت	اساورها في ظل فيء ممدد

(1) ينظر : القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري، د. عبد الحميد عبد الله الهرامه، ط1، كلية الدعوة الاسلامية ، 1996 ، 292/2 .

(2) منهاج البلغاء وسراج الادباء : القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس، 1966، ص342 .

(3) الادب والبلاغة : ابراهيم علي ابو الخشب ، ط2 ، مطبعة المعرفة ، 1959 ، ص36 .

(4) شعر ابي عامر بن مسلمة :مجلة المورد ،م(18)،ع(2) ، 1989، ص161؛ وكذلك البديع في وصف الربيع : ص38 .

وابدث لنا الاطيار حسن صريفها فمن بين شاك شجوه ومغرد
وللماء فيما بيننا متصرف وللعين مرتاد هناك ولليد⁽¹⁾

وبهذا نجد أنَّ الفاظ الشعر الاندلسي (في عصر امراء الطوائف) امتازت بالرقّة والسهولة والوضوح (وقلة الميل إلى الغريب ، كما امتازت بخفة الوقع في النفس والأذن، وجمال الرنين الموسيقي)⁽²⁾ .

اما فيما يتعلق بالأساليب التي اتبعها الشعراء الاندلسيون في اثناء هذه الفترة ، فقد تنوعت هذه الأساليب التي جسد من خلالها هؤلاء الشعراء قيم الولاء والارتباط الكبيرين للمدينة الاندلسية .وكما هو معروف (إنَّ أساليب الشعر تتنوع بحسب مسالك الشعراء في كل طريقة من طرق الشعر)⁽³⁾ ، وإنَّ (الاسلوب نفسه يختلف باختلاف معناه الوجداني ، فالبارة التي تصور الغضب أو السخط أقوى من تلك التي تعبر عن الحزن أو الخوف أو الوله او الخذلان)⁽⁴⁾ .

(1) شعر ابن حزم الاندلسي : مجلة المورد ، م(26) ، ع (4) ، 1998 ، ص 67-68 .

(2) قضايا أندلسية : ص 222 .

(3) منهاج البلغاء: ص 354 .

(4) الاسلوب : احمد الشايب ، ط5 ، مكتبة النهضة المصرية ، ص 75 .

ومن الاساليب اللغوية والنحوية التي شاعت في شعر المدينة عند الشاعر الاندلسي في عصر امراء الطوائف هي : الاستفهام ، حيث استعمل الشاعر الاندلسي اسلوب الاستفهام لجذب انتباه المتلقي ، وقد خرج الاستفهام إلى معاني مجازية عدة منها خروجه إلى التكثير والمبالغة، كقول ابن حمديس وهو يستفهم باداة الاستفهام (كم) :

صقلية كاد الزمانُ بلادها	وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهرأ	وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
فلم تر عيني مثلهم في كتيبة	مضارب ابطال الحروب مداعسا ⁽¹⁾

وتجسدت ملامح مدينة "سفاقس" عند ابن حمديس وهو يرثي عمته ، فاستخدم اسلوب الاستفهام بحرف الاستفهام (الهمزة) ، بقوله :

ألم تأت أهل الشرق صرخة نائح	يفيض غروب الدمع من بلد الغرب
سقى الله قبراً ثائراً بسفاقس	سواجم يرضى الترب فيها عن السحب
فقد عمه الإعظام من قبر عمه	أنوح عليها بالحنين إلى النخب ⁽²⁾

ويتجسد الاستفهام عند الشاعر بقوله : (ألم تأت أهل الشرق ...) والاستفهام هنا غرضه التقرير وهو التأكيد على ان ذلك الفعل قد حصل .ونلمح اسلوب الاستفهام ايضاً عند الشاعر المعتمد بن عباد ، وهو استفهام يفيد التعجب ، نحو قوله :

فمالي لا أبكي أم القلب صخرة ؟ وكم صخرة في الارض يجري بها نهر

ثم ينتقل الشاعر إلى استخدام المقابلة :

بكت واحداً لم يشجها غير فقده	وأبكي لألافٍ عديدهم كثر
ونجمان زين للزمان احتواهما	بقرطبة النكداء أو زنده القبر ⁽³⁾

(1) ديوان ابن حمديس : ص 275 .

(2) المصدر نفسه : ص 35 .

(3) ديوان المعتمد بن عباد : ص 164 - 165 .

وقد استخدم شعراء الاندلس اسلوب الاستفهام كثيراً في موضوع الحنين للمدن الاندلسية ، وعلان الحب والاعجاب لهذه المدن ، فهذا الشاعر ابو عيسى بن لبون يستفهم بأداة الاستفهام (اين) لاطهار حنينه إلى الايام الماضية ، فمزج بين اسلوب الاستفهام واسلوب التمني بأداة التمني (ليت) ، فيقول :

ياليت شعري وهل في ليت من أربٍ هيهات لأتقتضى من ليت آرابٍ
أين الشמושُ التي كانت تطالعنا والجوُّ من فوقه ليلِ جبابٍ
وأين تلك الليالي إذ تلمُّ بنا فيها وقد نام حُرَّاسٌ وحجابٍ⁽¹⁾

إن الاستفهام في هذه القطعة الشعرية غرضه التحسر على ذهاب تلك الأيام واليالي الجميلة التي قضاها مع الاحبة والذين كنى عنهم بالشموس . وقد كرر الشاعر أداة التمني (ليت) ثلاث مرات وذلك لأحاسسه العميق بالحنين لمدينة " لورقة " ، فأخذ يُمني النفس بلفظة (ليت) ، فوجد الشاعر انتقل من اسلوب التمني الى اسلوب الاستفهام . وكذلك يستخدم الشاعر الجزار السرقسطي حرف الاستفهام (هل) ، وهو يعبر عن اشتياقه وحنينه لذكرياته في احضان الوطن الجميل ، فيستهل قصيدته بإسلوب التمني ، وهو استفهام غرضه التمني بقوله :

إلا ليت شعري هل يُرى بُعدُ سامحاً بعهدٍ تصابٍ كُنْتُ في عقده وسطى
وهل يُسعفني فيك يوماً بأوبةٍ يُضيء بها أرجاء شيقَرٍ والشطَا
أتذكرُ كم من طيبةٍ اثرَ طيبةٍ سحبنا لها فنتنيط العلا مرطاً⁽²⁾

أما الشاعر ابن زيدون فيتجسد اسلوب الاستفهام لديه بوضوح وهو يستفهم بحرفي الاستفهام (هل) و (الهمزة) ، ويتسائل هل من عودة إلى مدينة "قرطبة" ؟ ، فيستهل قصيدته هذه بأسلوب النداء ثم يوظف اسلوب الاستفهام مفيداً من خلاله الاستبعاد، بقوله :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمَعُ ؟
وهل كبَدُّ حَزْرَى لبيّنك تُنفَعُ ؟

(1) الذخيرة : م 1 ، ق 3 ، ص 107 .

(2) روضة المحاسن وعمدة المحاسن : ص 166-168 .

وهل لليالـيـك الحميـدة مـرـجـع ؟

ويستمر الشاعر إلى أن يقول :

أنسى زماناً "بالعقاب" مُغفلاً ؟
وعيشاً بأكناف "الرُصافة" دغفلاً⁽¹⁾

وفي الهمزة (أنسى) استفهام غرضه النفي ، فالشاعر ينفي انه نسي ذلك الزمان الجميل الذي قضاه بالعقاب والرصافة .
وأفاد المعتمد بن عباد من اسلوب الاستفهام في اعلان حبه العميق لمدينة "شلب" ،
بقوله :

كم ليلةٍ قد بتُّ أنعمُ جُنَحَها بمخضبةِ الأردافِ مُجَدِّبةِ الخِصرِ
وليلٍ بسُدِّ النهرِ لهوًّا قطعتهُ بذاتِ سِوَارٍ مثلِ مُنَعَطِفِ البدرِ⁽²⁾

وهو استفهام للتكثير بكم العددية (كم ليلة ؟) .
ويستعين الشاعر ابو عامر بن الاصيلي بحرف الاستفهام (هل) ، ليعبر عن اشتياقه لمدينة "قلمرية" ونلاحظ أن الشاعر كرّر حرف الاستفهام (هل) مرتين لتأكيد هذا الاشتياق ،
بقوله :

أحبابنا هل لنا رجعةً وهل لي بكم أبداً مُلتقاً
تورككتُ بحرَ الأسى بَعْدَكُمْ واني لأحذرُ انَّ أغرقاً⁽³⁾

ومن الاساليب التي شاعت في الشعر الأندلسي الذي كان محوره الحديث عن المدن في هذه المدة اسلوب النداء ، حيث استعمله الشعراء في عدة مواضع لأظهار مقدرتهم الفنية في الشعر ، ولأثارة المتلقي وتشويقه .

(1) ديوان ابن زيدون : ص 133 - 134 .

(2) ديوان المعتمد بن عباد : ص 47-48 .

(3) الذخيرة : م 2 ، ق 3 ، ص 860 .

ومثلما طالعنا الشاعر ابن زيدون وهو يجمع بين اسلوب الاستفهام وأسلوب النداء في قصيدته السابقة ، نجد الشاعر محمد بن قاسم وقد جمع بين اسلوب النداء واسلوب الاستفهام ايضاً، بقوله :

أين أقصى الغرب من أرضِ حلب	أملٌ في الغرب موصلُ التعب
حنٌّ من شوقٍ إلى أوطانه	من جفاه صبره لما أغترب
يا أحبائي اسمعوا بعض الذي	يتلقاه الطريقُ المُغْتَرِب ⁽¹⁾

ان الشاعر أراد بالنداء (الألتماس) فهو يلتمس من أحبته ان يسمعوا له ولندائه، ويطلب مشاركته في ذلك الشعور (الشعور بالغيرة) .
وفي مدينة "شلب" يهيم الشاعر ابن عمار فيها حباً واشتياقاً، وينادي البرق ليكون رسوله إلى هذه المدينة، بأداة النداء (يا) ، بقوله :

يـابـرق أَدِّ رسـالتي	تقديك نفسي من رسول
عرج بشـلبٍ محيياً	ماشئت من تلك الطلولِ
واطلع على شرفات حمـ	ص قراره الشرف الأثيل ⁽²⁾

إنَّ أبيات ابن عمار هذه على ما فيها من متانة التعبير وقوة التركيب ، إلا أنَّ ألفاظها تُوحى بأشياء أخرى ، تخترق النفوس إنَّه الحنين الطاغي للمدينة الاندلسية فكان اسلوب النداء خير وسيلة للتعبير عن هذا الحنين .

أمَّا ابن خفاجة فيعبر من خلال هذا الاسلوب - النداء - عن جمال الاندلس وطبيعتها الجميلة، فيتجه مخاطباً أهل الاندلس بحرف النداء (يا) ، بقوله :

يا أهل اندلسٍ لله دُرُكُم	ماء وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ماجنةُ الخلدِ الا في دياركم	وهذه كنتُ لو خيرتُ أختارُ ⁽³⁾

(1) المغرب : 31/ 2 .

(2) محمد بن عمار الأندلسي : ص 224 .

(3) ديوان ابن خفاجة : ص 364 .

ويبقى جمال البلاد الاندلسية يسحر الشعراء ويفتنهم ،فهذا الشاعر ابو القاسم
المنيشي أفاد من اسلوب النداء ، إذ عبّر من خلاله عن جمال هذه الطبيعة ، فنجده ينادي
روضة من الرياض الزاهية، والنداء هنا غرضه التعجب واظهار الاعجاب بجمال الروضة
، بقوله :

ياروضة باتت الأنداء تخدمها أتى النسيم وهذا أول السّحرِ
إن كان قدك غُصناً فالثراء به مثل الكمائم قد زُرّت على الزّهرِ
يا قاتل الله لحظي كم شقيث به من حيث كان نعيمُ الناسِ بالنظرِ⁽¹⁾

ومثلاً توقف المنيشي امام روضة من الرياض ، نجد الشاعر عبد الواحد القبري قد
استوقفه جمال الأسر للطبيعة الاندلسية ايضاً ، فأستعان بأسلوب النداء للتعبير عن حبه
واعترازه بهذه الطبيعة ، فقال :

ياروضتي ورياضُ الناسِ مجدبة وكوكبي وظلامُ الليل قد ركدا
إن كان صرف الليالي عنك أبعدني فان شوقي وحُزني عنك مابعدا⁽²⁾

اما الشاعر ابن حجاج الاشبيلي فيستخدم النداء ثم يعقبه بالاستفهام والنص بجملته
يدل على التحسر على الماضي واستنكار الايام الخوالي ، بقوله :

ألا أيُّها الوادي الذي رفَّ ظِلُّهُ وفاحت خُزاماهُ وغرَّدَ طائِرُهُ
أتذكر أيامي بدوحك والحمى يباكرُنَا منه بجزعِك زائِرُهُ⁽³⁾

وعندما يبكي الاندلسي على ضياع مدينته، يستعين ايضاً بأسلوب النداء الذي وجد
فيه الشعراء ميداناً رحباً لأظهار حزنهم وتفعجهم ،فهذا الشاعر ابن العسال ، قال مخاطباً
أهل الأندلس :

يا أهلَ اندلسِ حُثُّوا مطيِّكُمْ فما المقام بها الامن الغلَطِ
الثوبُ ينسلُّ من اطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

(1) مطمح الأنفس : ص 354 .

(2) بغية الملتمس : 510/2 .

(3) المغرب : 1 / 261 .

ونحن بين عدوّ لايفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سَفَط⁽¹⁾

نلاحظ أنّ النداء الذي أستخدمه الشاعر بعبارة (يا أهل أندلس) له وقع الايقاظ والتنبيه والتحذير ، ثم نلاحظ أنّ البيت الثاني قائم على فنون البديع، إذ يشبه الجزيرة بالثوب ثم يجعله أي المشبه والمشبه به في تركيب إضافي (ثوب الجزيرة) وهو تشبيه بليغ ثم يعود ليشبه ثوب الجزيرة بالثوب المُنسل لكنه يزيده اسى فيجعله من الوسط، للدلالة على أنّ الغزاة وصلوا حتى وسط المدن وليس حدودها، اما البيت الثالث نجده مبني ايضاً على التشبيه وهو التشبيه الضمني إذ يشبه العدو بالحية ثم يرفض العيش معه في مكان واحد، فيأتي بدليل عقلي ، إذ كيف يحيا الانسان مع الحية في سَفَط واحد، وبهذا نجد أنّ الشاعر الأندلسي يستعين بأكثر من اسلوب للتعبير عن مشاعره وافكاره.

ويعبر ابن حزم عن حزنه على ضياع مدينة " قرطبة " ، فينادي الديار، بقوله :

فيا دار لم يقفرك منا إختيارنا ولو أننا نستطيعُ كنت لنا قبراً
ولكنّ اقداراً من الله أنفذت تُدَمِّرنا طوعاً لما حل او قهراً

ثم يطلب الشاعر لهذه الديار السقيا:

وياخير دار قد تُركت حميدةً سقتك الغوادي ما اجلّ وماأمرأ
ويادهزُ بلغ ساكنيها تحيتي ولو سكنوا المروين او جاوزوا النهر⁽²⁾

والنداء في (ياخير دار .. يادهر) ، غرضه بث اللوعة والاشتياق لزمن مضى في تلك الديار وفيه تحسر على ذهابه.

ولم يكتف شعراء الاندلس باستخدام اسلوب الاستفهام والنداء، إنما استعانوا أيضاً بأسلوب التعجب ، فهذا أحد شعراء الاندلس ممن بهرهم الجمال الأندلسي ،فتعجب بلفظة (لله اندلس) وهو يصف هذه البلاد الرائعة ،جاعلاً من التشبيه الوارد في هذه القطعة الشعرية مفسراً لتعجبه وانبهاره، فجمع الشاعر بين (التعجب) و(التشبيه) ، بقوله :

(1) الذخيرة : م1، ق2 ، ص250 .

(2) شعر ابن حزم الاندلسي : مجلة المورد ، م(26) ، ع (4) ، 1998، ص72.

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء
فكأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء⁽¹⁾

أما الشاعر ابو القاسم بن العطار فإنه يتعجب بلفظة (لله بهجة) معبراً عن جمال
البيئة الاندلسية، المليئة بالرياض والانهار ، فيقول :

لله بهجة منزه ضربت به فوق الغدير رواقها الأنشام
فمع الأصل النهر درع سابغ ومع الضحى يلتاح منه حسام⁽²⁾

ونجد الطبيعة الساحرة هذه تجذب أيضاً الشاعر ابن خفاجة، وهو يستخدم اسلوب
التعجب عندما توقف امام نهر متعطفٍ مثل السوار، فقال :

لله نهرٌ سال في بطحاء أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطفٌ مثل السوار كأنه والزهر يكفُّه مجرّ سماء⁽³⁾

وفيما يتعلق بالطباق فهو نوع آخر من أنواع الفنون البلاغية التي وجدت عناية من
قبل الشعراء الأندلسيين، فهو الجمع بين المعنى وضده في مقابلة بين جملتين او جملة
شعرية وهو المقابلة، الا ان المقابلة بين عدة اشياء، والطباق بين الشيء وضده او نقيضه
فالفارق شكلي او كمي او اصطلاحي ، وتقوم فلسفة الطباق على ذكر الكلمة وضدها
باللفظ والمعنى بالسلب أو الايجاب .

ولمعاني الطباق كبير الاثر على استجابة المتلقي فضلاً عن انه يثبت المعنى في
النفس ، لأن الجمع بين المعنى وضده يكون اقرب حصولاً في الذهن واسهل حفظاً
للمتلقي، ولعل هذا ما جعل الشعراء الاندلسيين وهم يسجلون مآثر مدنهم - حضارة وجهاداً
- يكثر من شعرهم فكان ظاهرة بارزة تلفت النظر ، كما نرى تراكم الطباق في كثير
من القصائد التي رسمت لنا صورة المدينة الاندلسية، فجاءت هذه الصور الشعرية في اطار
فني بديع وجميل ومقبول، على نحو ما نراه في قول المعتمد بن عباد :

بمنبتة الزيتون موروثة العلى يُغني حماماً او ترن طيور
تراه عسيراً او يسيراً مناله الا كل ما شاء الاله يسير

(1) نفح الطيب : 226/1-227 .

(2) نفح الطيب : 652/1 .

(3) ديوان ابن خفاجة : ص 356 .

قضى الله في حمص الحِمَامِ وبُعْثرت هنالِكَ منا للنشورِ قَبُورُ⁽¹⁾

فتمثل طباق الايجاب عند الشاعر بين لفظة (عسيراً ويسيراً) ،وقد وفق المعتمد في استعمال هذا النوع من الطباق وهو يعبر عن حنينه واشواقه لايام ملكه الماضية. ونلمح طباق الايجاب ايضاً عند الشاعر ابن الحناط الذي طابق بين لفظة (الظعن والاقامة) ، بقوله :

تفرغتُ من شُغلِ العداوةِ والظَّعنِ وصرْتُ إلى دارِ الاقامةِ والأمنِ
أَمَقْتولَةً الاجفانِ من دمعِ حُزْنِها أفيقي فإني قد أَفقتُ من الحزنِ⁽²⁾

ويطابق الشاعر ابن الحداد بين لفظة (يصفو وتكدر) وكذلك بين لفظة (أخفي وتظهر) ،في قصيدته التي قال فيها :

ياغائباً خطراتُ القلبَ محضُره الصبرُ بعدك شيءٌ لَسْتُ أَقدِره
تركْتَ قلبي وأشواقِي تُفطِره ودَمَعٌ عيني وأحداقي تُحَدِّره
لو كُنْتُ تُبْصِرُ في تَدْمِيرِ حالتنا أذنْ لأشْفقتُ مما كُنْتُ تُبْصِره
فالعينُ دُونَكَ لا تَخْلِي بِلَدِتها والدَّهرُ بَعْدَكَ لا يَصْفُو تَكْدِره
أخفي أَشتياقي وما أطويه مِنْ أَسْفٍ على المريَّةِ والأنفاسِ تُظْهَرُه⁽³⁾

أمَّا الشاعر أبو اسحاق الألبيري فيتجسد الطباق الايجابي لديه بين لفظة (أنسي واستوحشت) ، وهو يعلن عن طيب الإقامة بحصن العقاب، بقوله :

الاحيِ العُقَابَ وقاطنيهِ وقُلْ أهلاً به وبزائريهِ
حَلَلْتُ به فَانْقَسَ ما بِنَفْسِي وأنْسَنِي فما استوحشتُ فيه⁽⁴⁾

(1) ديوان المعتمد بن عباد : ص 171 - 172 .

(2) الذخيرة : م 1 ، ق 1 ، ص 450 .

(3) ديوان ابن الحداد : ص 209 - 210 .

(4) ديوان ابي اسحاق الألبيري : ص 83 ، وينظر كذلك الطباق بين لفظة (أنس ووحشة) في ديوانه :

أَمَّا الشاعر ابن زيدون - شاعر الحب والحنين - فعندما تشوق إلى " قرطبة " وتذكر مواطن لهوه ، عمد إلى الطباق الايجابي بين لفظة (أمسى واضحى) ليوضح ما كان يعانيه الشاعر من معاني الغربة وما كانت تثيره هذه المتضادات في نفسه من تأكيد الحنين والاشتياق ، فقال :

خَلِيلٌ لَافْطَرَّ يَسْرُ وَلَا أَضْحَى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقِنِي شَرْقُ الْعُقَابِ فَلَمْ أَزَلْ أَخْصُ بِمَحْوُضِ الْهَوَى ذَلِكَ السَّفْحَا
وَمَا أَنْفَكَ جُوفِي الرُّصَافَةَ مُشْعِرِي دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرْحَا⁽¹⁾

ولابد من التوقف أمام اسلوب آخر استعان به الشعراء الأندلسيون ، ومن خلاله تجسدت قدراتهم الابداعية والفنية ، وهو اسلوب الاقتباس والتضمين ، ويمثل هذا الاسلوب إحدى التقنيات الاسلوبية لدى الشاعر الأندلسي ، كما أسهم هذا الأسلوب في إثراء النص بدلالات موحية ومؤثرة في السياق الذي ترد فيه ، والاقتباس هو (أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه)⁽²⁾ ، أما التضمين فهو (أن يضمّن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبية عليه إن لم يكن مشهوراً)⁽³⁾ .

ويتضح اسلوب الاقتباس من القرآن الكريم ، عند الشاعر ابن حمديس عندما توقف واصفاً أحد القصور ، بقوله :

وَيَا حَبِّذَا دَارٌ يَدُ اللَّهِ مَسَّحَتْ عَلَيْهَا بِتَجْدِيدِ الْبَقَاءِ فَمَا تَبَلَى
مُقَدَّسَةً لَوْ أَنَّ مُوسَى كَلِمَهُ مَشَى قَدَمًا فِي أَرْضِهَا خَلَعَ النِّعْلَا⁽⁴⁾

(1) ديوان ابن زيدون : ص 158 ، وينظر كذلك الطباق بين لفظة (مساء وأصبح) في ديوانه : ص 129-130 .

(2) اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين: د. عبد المطلب مصطفى ، ط 1 ، دار الاندلس ، بيروت - لبنان ، 1984 ، ص 120 .

(3) المصدر نفسه : ص 120 .

(4) ديوان ابن حمديس : ص 378 .

نلاحظ أنَّ في البيت الثاني اقتباس من القرآن الكريم ، من قوله تعالى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (1) . حيث استنبط الشاعر من الآية الكريمة دلالة القدسية لهذا القصر ، فأستوحاها في شعره .

ومثلما اقتبس الشاعر ابن حمديس من آيات القرآن الكريم ، نجد الشاعر ابن الحداد يقتبس من الآية الكريمة من قوله تعالى ((إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (2) ، فيعرب عن حنينه بقوله :

لَعْلُكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ شَاطِيءُ فَكَالْعَنْبَرِ الْهِنْدِيِّ مَا أَنَا وَاطِيءُ
وَإِنِّي فِي رِيَاكَ وَاجِدُ رِيحَهُمْ فَرَوْحُ الْهَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ نَاشِيءُ
لِذَلِكَ مَا حَحَّتْ رِكَابِي وَحَمَحَمْتُ عَرَابِي وَأَوْحَى سِيرَهَا الْمُتَبَاطِيءُ (3)

ويعود الشاعر ابن حمديس إلى الأستعانة بأسلوب الاقتباس، ليعرب عن حنينه لمدينة " صقلية " ، بقوله :

ذَكَرْتُ صِقْلِيَّةً وَالْأَسَى يُهَيِّجُ لِلنَّفْسِ تَذَكَارَهَا
وَمَنْزِلَةً لِلتَّصَابِي خَلَّتْ وَكَانَ بَنُو الظَّرْفِ عُمَارَهَا
فَإِنْ كُنْتُ أُخْرِجَتْ مِنْ جَنَّةٍ فَإِنِّي أَحَدْتُ أَخْبَارَهَا (4)

نلاحظ أنَّ البيت الأخير فيه اقتباس من القرآن الكريم، وذلك من قوله تعالى(وقال الانسانُ مآلها * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) (5) .

ونلمح في شعر ابن حزم عندما بكى مدينة " قرطبة " بعدما حل بها من دمار وخراب ، بقوله :

تَرَاهَا كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ بَلْقَعَا وَلَا عَمَرْتَ مِنْ أَهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرَا (6)

(1) سورة طه/ آية 11-12 .

(2) سورة طه /آية 12 .

(3) ديوان ابن الحداد : ص 140 - 141 .

(4) ديوان ابن حمديس : ص 183 .

(5) سورة الزلزلة/ آية 3-4 .

(6) شعر ابن حزم الأندلسي : مجلة المورد ، م(26) ، ع (4) ، 1998 ، ص 72 .

حيث استمد الشاعر الشطر الاول من الآية الكريمة من قوله تعالى (فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ)⁽¹⁾ .

⁽¹⁾ سورة يونس / الآية 24 .

وبعد سقوط مدينة "بربشتر" بكاها الشاعر ابن العسال ، بقوله :

جَاسُوا خِلَالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شِعْوَاءُ⁽¹⁾

فأستمد الشاعر معنى الشطر الاول من الآية الكريمة من قوله تعالى (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ) ⁽²⁾ .

ويجد الشاعر الحصري القيرواني في مدينة " سرقسطة " بانها دار الملك والقوة،وقد مزج الشاعر بين مدحه لمدينة " سرقسطة" وبين مدح المقتدر بن هود ، بقوله:

وفي سرقسطة لك دار ملك زريت بها على ذات العماد⁽³⁾

ونلمح ان الشطر الثاني قد استمد الشاعر معناه من الآية الكريمة من قوله تعالى (إِزِمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) ⁽⁴⁾ .

أما اسلوب التضمين فيتجسد عند الشاعر ابن العسال عندما أثاره موقف سقوط مدينة " بربشتر " فقال :

ولقد رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ لَمْ تُخْطِ لَكِنْ شَأْنُهَا الْأَصْمَاءُ
ولكم رَضِيعٍ فَرَقُوا مِنْ أُمِّهِ فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبَغَاءُ⁽⁵⁾

ف نجد ما يشبه معنى البيت الثاني عند الشاعر ابن الرومي (ت 283 هـ) بقوله :

كم رَضِيعٍ هُنَاكَ قَدْ فَطَمُوهُ بِشِيبَا السَّيْفِ قَبْلَ حَيْنِ الْفَطَامِ⁽⁶⁾

(1) الروض المعطار : ص 90 .

(2) سورة الاسراء / الآية 5 .

(3) ابو الحسن الحصري القيرواني : ص 117 .

(4) سورة الفجر / الآية 7 .

(5) الروض المعطار : ص 90-91 .

(6) ديوان ابن الرومي : 423/3 .

وهو تضمين غير مباشر حيث ضمن الشاعر ابن العسال ما يشبه معنى الشاعر ابن الرومي وعندما توقف ابو عبد الله البلنسي في رثاء مدينة " بلنسية " ، اتجه نحو اسلوب التضمين ، نحو قوله :

وروضة زُرْتُهَا لِلْأَنْسِ مُبْتَغِيَاً فَأَوْحَشْتَنِي لِذِكْرِ سَادَةٍ هَلَكُوا
لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ قَالَتْ لَفَقَدَهُمْ بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأُورُوا لِمَنْ تَرَكَوْا⁽¹⁾

ف نجد أنَّ الشطر الثاني من البيت الثاني تضمين مباشر لبیت زهير ابن ابي سلمى
(ت 627 م) بقوله :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأُورُوا لِمَنْ تَرَكَوْا وَزُوْدُوكَ اشْتِياْقاً أَيْةً سَالَكُوا⁽²⁾

وقد كان للتضمين خاصية متميزة في اسلوب الشاعر الاعمى التطيلي ، فمن تضمينه للشعر ، قوله :

وماذا بجمصٍ من المضحكاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحْكٌ كَالْبُكَأِ⁽³⁾

إنما أخذه من بيت المتنبي (ت 356 هـ) :

وماذا بمصرَ من المضحكاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحْكٌ كَالْبُكَأِ⁽⁴⁾

اما الشاعر ابن خفاجة فنجد في قصيدته التي بكى من خلالها على ضياع مدينة "بلنسية" ، يستعين بأسلوب التضمين نحو قوله :

(1) الروض المعطار : ص 97 .

(2) شرح ديوان زهير ابن ابي سلمى : ص 164 .

(3) ديوان الاعمى التطيلي : ص 1 .

(4) ديوان المتنبي (ت 356 هـ) ، وضعه : عبد الرحمن البرقوقي ، مطبعة السعادة ، القاهرة - مصر

، (د.ت) ، 167/1 .

عاشت بساخرتك العدى يادارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
واذا تردد في جنابك ناظرُ طال اعتبارُ فيك واستعارُ
كتبت يدُ الحداث في عرصاتها "لا أنت أنت ولا الديار ديار" (1)

فلاحظ ان الشطر الثاني من البيت الاخير تضمنين مباشر لبيت ابي تمام (ت 231 هـ) بقوله :

لا أنت أنت ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتولت الاوطار (2)

وبهذا يرى البحث ان الشاعر الاندلسي وفق في اختيار الالفاظ المناسبة وغير المعقدة فضلاً عن اختيار الاسلوب الواضح، فالشاعر المبدع هو الذي يختار للغة ما يناسبها من الاساليب، ولمعانيه ما يناسبها من الالفاظ وبهذا يحقق لعمله الفني التكامل والنجاح .

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 354 .

(2) ديوان ابي تمام : 166/2 .

المبحث الثالث

موسيقى الشعر

تعد الموسيقى من الركائز المهمة والمقومات الرئيسة التي يقوم عليها الشعر ، ذلك لأن الشعر (كلام تتفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر بها القلوب)⁽¹⁾ ، وغالباً ما تكون الموسيقى مقياساً لتمييز الشعر عن بقية الفنون النثرية، (فالكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجبياً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تتسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تتنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى، والتي تنتهي بعد عدد معين من المقاطع بأصوات بعينها نسميها القافية)⁽²⁾ .

وان كل عمل ادبي فني هو (سلسلة من الاصوات ينبعث عنها المعنى .. ففي العديد من الاعمال الفنية - بما فيها الشعر طبعاً - تلفت طبقة الصوت الانتباه وتؤلف بذلك جزءاً لا يتجزأ من التأثير الجمالي ، يصدق هذا على كل الشعر الذي هو بالتعريف تنظيم لنسق من اصوات اللغة)⁽³⁾ .

وقد حظيت موسيقى الشعر واوزانه باهتمام النقاد فميزوا بين نوعين من الموسيقى ،الاول خارجية وهي الوزن والقافية ، والآخر داخلية تتمثل في التكرار والجناس وغيرهما وما تتمتع به هذه الموسيقى (من تناغم الحروف وائتلافها وتقديم بعض الكلمات على بعض، واستعمال أدوات اللغة الثانوية بوسيلة فنية خاصة وغير ذلك مما يهيء جرساً نفسياً خاصاً يكاد يعلو على الوزن العروض ويفوقه)⁽⁴⁾ .

أولاً: الموسيقى الخارجية : وتتمثل في الأوزان والقوافي ، فالوزن مما لاشك فيه انه يشكل الركن الاساس للموسيقى الشعرية، لأنه (اعظم اركان حد الشعر واولاها خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة)⁽⁵⁾ ، كما انه (النهر النغمي الذي يحد بضفافه

(1) موسيقى الشعر : د. ابراهيم انيس ، ط4، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1972 ، ص 17.

(2) المصدر نفسه : ص 13 .

(3) نظرية الادب : ص 205 .

(4) الشعر والنغم : د. رجاء عيد، منشورات دار الثقافة ، القاهرة ، 1975 ، ص 21.

(5) العمدة : 134/1 .

تجربة الشاعر ويعطيها ذاتها الفنية⁽¹⁾، ومن مظاهر شعر المدينة بنيته الصوتية اذ انها متمسكة بالموسيقى الخارجية التي قوامها الوزن والقافية إلى جانب الاهتمام بالموسيقى الداخلية التي قوامها الايقاع الصوتي الذي يقوم عليه الرنين والتغيم الذي يحدثه استخدام المحسنات اللغوية في وحدات الوزن، والايقاع، والقافية، وفي رأينا ان هذا الاهتمام جاء مقصوداً نتيجة لادراك الشاعر الأندلسي ووعيه بأهمية البنية الصوتية في لوحاته الشعرية التي رسمت صورة المدينة الاندلسية التي ارتبط بها وعشقها لان المدينة شكلت اساساً جذرياً في حياة الشاعر الاندلسي .

من جانب آخر فقد وجدنا الشعراء الاندلسيين نظموا في معظم بحور الشعر العربي، الا اننا نلاحظ أنّ البحر الذي احتل مركز الصدارة في شعر المدينة هو البحر الطويل الذي يمتاز بالرصانة والجلال في نغماته وذبذباته المناسبة الهادئة، لذلك كان أصلح البحور لمعالجة الموضوعات الجدية التي اكثر منها العرب كالمدح، والرثاء، والفخر، والعتاب والاعتذار⁽²⁾، كما انه (البحر المعتدل حقاً، ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لاتكاد تشعر به، وتجد دندنته مع الكلام المصوغ فيها بمنزلة الإطار الجميل من الصورة، يزينها ولايشغل الناظر عن حسننها شيئاً. والطويل في هذه الناحية يخالف سائر بحور الشعر)⁽³⁾.

وقد أحس الشعراء بقيمة هذا الوزن فقد جاء بالمرتبة الاولى في أشعارهم، اذ نظم على هذا البحر ما يقرب من ثلث الشعر العربي⁽⁴⁾، وربما كانت تلك الأمكانية هي التي جعلت الشعراء يستخدمونه في الفخر والحماسة والوصف⁽⁵⁾.

حيث أفاد ابن حمديس من تفعيلات هذا البحر في وصف احد القصور :

وقد تَوَجَّ البهو البهي بقبّةٍ فقلّ في عروسٍ في جلابيبها تُجلى

(1) الشعر والنغم : ص 15 .

(2) ينظر: شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي : عبد الحميد الراضي ، ط2، مؤسسة الرسالة ، بغداد ، 1975، ص 104 .

(3) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : عبد الله الطيب، ط2، دار الفكر ، بيروت ، 1970 ، 362/1 .

(4) ينظر: موسيقى الشعر: ص 191 .

(5) ينظر :أصول النقد الادبي : ص 322 .

تجمعت الأضدادُ فيها مصانِعاً ولم أرَ خَلْقاً قبلها جَمَعَ الشمالا
وأُغْرِبُ ما أبصرتُ بعدَ مليكها بها مُتَرَعٌ يعدي الشجاعة والبذلا⁽¹⁾

وأفاد ابن حزم من هذا البحر في البكاء على المدن التي سقطت بيد الاعداء
والحنين اليها، ذلك لما يمتلكه البحر الطويل من ايقاعات وصفات جعلته يتسع لموضوع
الرتاء والحنين معاً، فيقول :

سلامٌ على دارِ رَحَلنا وُعُودرت خلاءٌ من الأهلين موحشةٌ قفرا
تراها كأن لم تغنِ بالأمس بلقعاً ولا عمرت من اهلها قبلنا دَهرا
فيادار لم يفرك منا اختيارنا ولو انَّنا نستطيعُ كُنْتَ لنا قبرا
فياربِّ يومٍ في ذراها وليلةٍ وصلنا هناك الشمس باللهو والبдра⁽²⁾

اما الكامل فانه يلي الطويل في شعر المدينة الاندلسية ، وقد جعله الدكتور ابراهيم
انيس في المرتبة الثانية بعد الطويل⁽³⁾ ، والكامل يتمتع بمرونة الاستخدام فهو بحر الجلالة
والفخامة من ناحية ، وهو بحر الرقة واللين من ناحية اخرى. وتمتزج فخامته بجرس
ظاهر، أما رفته فانها تمتزج بحلاوة الجرس وطلاوته ، فضلاً عن كثرة الحركات في
تفصيلات هذا البحر التي جعلته من أكثر البحور جلجلة⁽⁴⁾ .

وقد افاد ابن العسال من تفصيلات البحر الكامل في رثاء مدينة " بريشتر " ،
والتحسر على ضياعها ، بقوله :

ولَقَدْ رَمَنا المُشْرِكُونَ بأَسْهمٍ لم تُحْطِ لَكن شَأْنُها الإِصْماءُ
هتَكُوا بَخَيلِهِمْ قِصَورَ حَرِيمِها لم يَبِقَ لاجيلٍ ولا بطحَاء⁽⁵⁾

(1) ديوان ابن حمديس : ص 379 .

(2) شعر ابن حزم الأندلسي: مجلة المورد ، م(26) ، ع (4) ، 1998، ص 72 .

(3) ينظر: موسيقى الشعر : ص 191 .

(4) ينظر: المرشد : 246/1 .

(5) الروض المعطار : ص 90.

اما ابن عمار فانه اتجه لوصف طبيعة بلاده وكذلك الاشادة بالمعتضد ، فوجد من تفعيلات هذا البحر ما يناسب ما أراده من الوصف والمدح معاً ، كقوله :

والروض كالحسنا كساه زهره	وشياً وقلده نـداه جـوهر
روضٌ كأن النهر فيه معصم	صاف أطل على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدد عسكرا ⁽¹⁾

فيما احتل البسيط المرتبة الثالثة ضمن تصنيف البحور في شعر المدينة الاندلسية لأنه بحرٌ (شديد الصلاحية للتعبير عن معاني العنف والتعبير عن معاني الرقة)⁽²⁾، وهو من البحور المهمة في الشعر العربي، وحسب البسيط جزالته وفخامته ليكثر الشاعر من استخدامه في اغراض الشعر المختلفة .

وقد احسن الشاعر الاندلسي من استخدام هذا البحر، وفي قراءتنا للنصوص الشعرية التي كان البسيط اطاراً لموسيقاها، وجدنا بعضها في المديح، كقول ابن حمديس:

هذا ابتداءً له عند العلى خَبَرُ	يُحكى فيصغي إليه الشَّهْبُ والبشرُ
يُخشى حُسَامُكَ مغموداً فكيف إذا	ما سُلَّ للضرب وانهَدَّتْ به القَصْرُ
وما سفاقسُ إلا بلدةٌ بعثتُ	إليك عنها لسانَ الصدق تعتذرُ ⁽³⁾

والبعض الآخر في وصف الطبيعة الاندلسية الجميلة، على نحو قول محمد بن مسلم :

سقى جديداً من الأيام قُرْطبةً	ماءُ الشباب وريقُ الباردِ الخصرِ
كأنما شمسها تحت الغمام سنا	وجهٍ تنفّس في مرآته نَصْرُ ⁽⁴⁾

وقد افاد ابن زيدون من تفعيلات البحر البسيط في التغزل بمدينة " الزهراء " وإعلان اشتياقه لمدينته الفاتنة ، بقوله :

(1) محمد بن عمار الأندلسي : ص 189.

(2) المرشد : 423/1 .

(3) ديوان ابن حمديس: ص 249- 250 .

(4) الذخيرة : م 1 ، ق 3 ، ص 444.

إنني ذكرْتُك بالزَّهراءِ مُشتاقاً والأفُقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنه رق لي فأعتل اشفاقا
والروضُ عن مائه الفضى مُبتسمٌ كما شققت عن البات أطواقا⁽¹⁾

اما المكان الرابع في ترتيب البحور فقد كان من نصيب البحر المتقارب في شعر المدينة الاندلسية، ولعل سبب ذلك يعود ما للبحر المتقارب من ايقاعٍ (سهل يسير ذو نغمة واحدة متكررة)⁽²⁾ ، وافاد الاعمى التطيلي من تفعيلات هذا البحر فنظم عليه في الشكوى من مدينة " اشبيلية " والتذمر منها بقوله :

إلى الله اشكو الذي نحن فيه أسى لا يُنْهَئُهُ منه الأسى
على مثلهما فلتشقَّ القلوبُ مكانَ الجيوبِ والا فلا
فشا الظلم واغترَّ أشياعهُ ولا مُسْتَغاثٌ ولا مشـتـكى
وماذا بحمصٍ من المضحكات ولكِنَّه ضحكٌ كالبكـا⁽³⁾

لقد وفق الشاعر في استخدام هذا البحر لأن المتقارب (يصلح للتعبير عن العاطفة الجياشة)⁽⁴⁾ .

ويتجسد الفخر بمدينة " اشبيلية " عند المعتمد بن عباد، وللتعبير عن هذا الفخر للمدينة العريقة والاصيلة - اشبيلية - نجد الشاعر يعمد إلى تفعيلات هذا البحر ، بقوله:

شُعرتَ فجئتَ بعين المُحال وما زلتَ ذا خطِلٍ في المقالِ
متى غرَّ في حمص غيرُ العزيز أو ذل الـدِّمِيمِ الفَعـالِ⁽⁵⁾

إن هذه البحور تعد من اهم البحور التي نظم شعراء المدينة الاندلسية قصائدهم عليها واكثرها شيوعاً، وذلك لما تمتاز به من ايقاع يتناسب مع هذا الموضوع -المدينة- الا

(1) ديوان ابن زيدون : ص 139 .

(2) المرشد : 312/1 .

(3) ديوان الاعمى التطيلي : ص 1.

(4) شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي: ص 293 .

(5) ديوان المعتمد بن عباد : ص 134 .

ان هذا لايعني اغفال الشعراء الأندلسيين بقية بحور الشعر العربي ، بل استخدموها ولكن بنسب متفاوتة .

ومن النماذج الشعرية التي تقدم تناولها في هذه الدراسة تبين لنا أن معظم شعر المدينة التزم بالقواعد الشكلية الضابطة للاوزان والقوافي التي تداولها الشعر العمودي والتزم بها على امتداد عصوره .

ولابد لنا من التوقف عند مسألة اخرى مادمننا نتحدث عن البحور والاوزان ، وهي - ربط البحر بالعاطفة - أي علاقة الوزن الشعري بالحالة النفسية للشاعر . فابن طباطبا (ت 322هـ) مثلاً يذهب إلى أن الشاعر اذا أراد (بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، واعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه)⁽¹⁾

الا ان الدكتور ابراهيم انيس يرد على هذا الرأي بقوله : (ان استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرا بمثل هذا التخير، او الربط بين موضوع الشعر ووزنه .. وقد يكون من المغالاة أن نتصور اشتراك الشعراء في العاطفة لمجرد اشتراكهم في موضوع الشعر)⁽²⁾، ولكنه يستدرك على هذا الكلام السابق بما يأتي : إنَّ الشاعر في حالة اليأس والجزع يكون الوزن عنده طويلاً ، ويكون قصيراً في حالة المصيبة والهلع تأثراً بالانفعال النفسي⁽³⁾، الا ان تلك الآراء قد لاتسغفها النماذج الشعرية، فهناك من الشعراء من يرثي من البسيط وآخر من الطويل وثالث من الكامل.. وقس على هذا بقية البحور فكل قصيدة (نغمتها التي تتفق وحالة الشاعر النفسية)⁽⁴⁾ .

وبهذا يمكن القول أن الشاعر غير مرتبط بوزن معين في موضوع ما ، فقد توافق العاطفة هذا الوزن او لاتوافق .

(1) عيار الشهر : ابن طباطبا العلوي، تحقيق :د. طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام ، منشورات المكتبة التجارية، القاهرة ، 1956، ص 5 .

(2) موسيقى الشعر : ص 177 .

(3) ينظر: المصدر نفسه : ص 177.

(4) التفسير النفسي للادب : د. عز الدين اسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963، ص 79 .

القافية :

إنَّ للقافية أهمية في بناء البيت الشعري ولا بد من توفرها في قوافي الشاعر فهي (كالقوالب لمعانيه وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها ، فيكون ما قبلها مسوقاً إليها ، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق في مواضعها ولا توافق ما يتصل بها ، وتكون الالفاظ منقادة لما تراد له ، غير مستكرهة ولا متعبة، لطيفة الموارج سهلة المخارج)⁽¹⁾ .

فالقافية (شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية)⁽²⁾، فضلاً عن انها تعد (بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردها، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من المقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن)⁽³⁾ .

إن شعر المدينة قد التزم بالقافية الموحدة بوصفها عنصراً وثيق الصلة بالوزن والتوافق الصوتي في مقاطع البيت، من جانب آخر فقد استخدم الشعراء الأندلسيون القوافي المتنوعة في لوحاتهم الشعرية التي رسموها لمعالم مدنهم وهذا ما يؤكد لنا اهتمام الشعراء الأندلسيين بالتجويد الفني والتأليف الموسيقي تلقائياً أحياناً وترتيبها بقصد منهم أحياناً أخرى .

والقافية على نوعين :

القافية المقيدة : وهي ما كان آخرها ساكناً⁽⁴⁾، ومن خلال تتبع دقيق لشعر المدينة الأندلسية، نجد ان هذا النوع من القوافي لا يشكل نسبة كبيرة في شعر المدينة الأندلسية، وقد يكون السبب في ذلك هو أن (هذا النوع من القافية قليل الشيوع في الشعر العربي)⁽⁵⁾ ومن أمثلة ذلك قول ابن شهيد في مدينة قرطبة:

عجوزٌ لعمرُ الصِّبا فانيه لها في الحشا صورة الغانية
ثريك العقول على ضعفها تُدارُ كما دارت السانية⁽⁶⁾

(1) عيار الشعر : ص 5 .

(2) العمدة : 99 / 1 .

(3) موسيقى الشعر : ص 246 .

(4) ينظر : موسيقى الشعر : ص 260؛ وكذلك الشعر والنغم : ص 285 .

(5) موسيقى الشعر : ص 260 .

(6) ديوان ابن شهيد : 168 .

ولجأ ابن شرف الى استخدام هذه القافية بقطعة شعرية موحية عن جمال المدن الأندلسية ، بقوله :

رياضٌ تعشقها سندسٌ توشَّتْ معاطفُها بالزَّهرِ
مدامعُها فوق خدي رُبى لها نظرةٌ فتتت من نظَر⁽¹⁾

اما القافية المطلقة : فهي ما كان آخرها متحركاً بأحدى الحركات المعروفة⁽²⁾، وهي من اكثر القوافي شيوعاً في الشعر العربي عامة ، وفي شعر المدينة الأندلسية خاصة. وقد تمثلت في العديد من النصوص الأندلسية، منها قول ابن زيدون في الحنين إلى مراتع لهوه، فاستخدم القافية المضمومة، بقوله :

على الثَّغْبِ الشَّهْدِيّ مني تحيةٌ زكّتْ وعلى وادي العقيق سلامٌ
ولازال نورٌ في الرصافة ضاحكٌ بأرجائها ييكى عليه غمامٌ
تذكرتُ ايامي بها فتبادرتُ دموعٌ كما خان الفريدَ نظام⁽³⁾

وقول ابن رزين في وصف الطبيعة الساحرة للأندلس ، مستعيناً بالقافية المفتوحة:

وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدداً فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقعداً
إذا صافحته الريحُ ظلت غصونهُ رواقصَ في خُضرٍ من العُصبِ مُيداً⁽⁴⁾

أما القافية المكسورة فتمثلت في قول المعتمد بن عباد عندما هاجت به الذكرى إلى منازل وقصوره :

بكى المُبارك في إثر ابن عباد بكى على أثر غزلانٍ وآسادٍ
بكت ثرياه لاغمت كواكبُها بمثل نوءِ الثريا الرائح الغادي⁽⁵⁾

(1) نفح الطيب : 150/1 - 151 .

(2) ينظر : موسيقى الشعر ، ص 260 ؛ وكذلك الشعر والنغم : ص 285 .

(3) ديوان ابن زيدون : ص 152-153 .

(4) الحلة السبراء : 111/2 .

(5) ديوان المعتمد بن عباد : ص 161 .

وفي سياق الحديث عن القافية ، لابد من الخوض في الحديث عن حرف الروي وبيان مدى اهميته للقصيدة ، فالروي هو (الحرف الذي تبني عليه القصيدة ، فتنسب اليه)⁽¹⁾، وهو (النبرة أو النغمة التي ينتهي بها البيت ، ويلتزم الشاعر تكراره في ابيات القصيدة ليكون الرباط بين هذه الابيات يساعد على حبكة القصيدة وتكوين وحدتها)⁽²⁾ ، وقسم على ثلاثة اقسام (الذلل⁽³⁾، والنفر⁽⁴⁾، والحوش⁽⁵⁾) .

وان ابرز الحروف المستخدمة رويًا في شعر المدينة الاندلسية، حرف الراء، والباء، والنون، والميم ، والذال ، واللام. الا ان شعراء الاندلس لم يتوقفوا عند هذه الحروف فقط، بل استعانوا بحروف اللغة العربية الاخرى ولكن بنسب متفاوتة. وبلغت نظر الباحثة في قصائد المدينة الأندلسية في هذه الحقبة، ان كثيراً منها قد نظم على حرف الراء لما يمتاز به من رنين موسيقي قوي فهو من الحروف المجهورة⁽⁶⁾، ومن أمثلة القصائد التي نظمت على حرف الراء قصيدة لابي عامر بن الاصيلي عندما اعلن عن تدمره من بعض المدن الاندلسية التي لم يجد فيها الراحة المنشودة ، بقوله :

إلى أين الفرار ولا فرارُ	ومن لي بالقرار ولا قرارُ
أشأب لأجـزأك الله خيراً	فلا خيرٌ لديك ولا خيارُ
بلادٌ عرّيت من كل خيرٍ	فلمبس أهلها مَقَّتْ وعارُ ⁽⁷⁾

(1) ميزان الذهب في صناعة شعر العرب: احمد الهاشمي ، ط11 ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1951 ، ص114 .

(2) شرح تحفة الخليل في العروض والقافية : ص 307 .

(3) القوافي الذلل هي : الباء، والتاء، والذال، والراء والعين، والميم، والياء المتبوعة بألف الاطلاق. ينظر : المرشد : 44/1 .

(4) القوافي النفر : هي الصاد ، والزاي ، والضاد ، والطاء ، والهاء الاصلية ، والواو. ينظر : المصدر نفسه : 59/1 .

(5) القوافي الحوش: هي التاء ، والخاء ، والذال ، والشين ، والظاء ، والغين . ينظر : المصدر نفسه: 62/1 .

(6) ينظر : جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : الدكتور ماهر مهدي هلال، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980 ، ص136 .

(7) الذخيرة : 2م ، 3ق ، ص 861 .

اما ابن حمديس فانه افاد من ايقاع حرف الراء وما يمتاز به من رنين موسيقي قوي
في التعبير عن الاشتياق لمدينة صقلية ، بقوله :

ذَكَرْتُ صَقْلِيَّةً وَالْأَسَى	يُهَيِّجُ لِلنَّفْسِ تَذْكَارَهَا
وَمَنْزِلَةً لِلتَّصَابِي خَلَّتْ	وَكَانَ بَنُو الظَّرْفِ عُمَّارَهَا
وَلَوْلَا مَلُوحَةٌ مَاءِ الْبُكَاءِ	حَسَبْتُ دَمْعِي أَنْهَارَهَا ⁽¹⁾

ويأتي بعد ذلك حرف الباء في قصائد المدينة الاندلسية وهو من الحروف المجهورة
ايضاً ومن شواهد قول ابي اسحاق الالبيري وهو يتحسر على ضياع مدينة "البيرة" :

يُضَيِّعُ مَفْرُوضٌ وَيَغْفُلُ وَاجِبٌ	وَإِنِّي عَلَى أَهْلِ الزَّمَانِ لِعَاتِبٌ
أَتَدْبُ أَطْلَالَ الْبِلَادِ وَلَا يُرَى	لِلْبِيرَةِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ نَادِبٌ
عَلَى أَنَّهَا شَمْسُ الْبِلَادِ وَأُنْسُهَا	وَكُلَّ سِوَاهَا وَحْشَةٌ وَغِيَاهُ ⁽²⁾

ومن حروف الروي الشائعة ايضاً حرف النون وما امتاز به من قوة ، وقد افاد منه
شعراء المدينة الأندلسية في كثير من الموضوعات الشعرية وهي الحنين، والوصف،
والمدح، على نحو قول ابن خفاجة في الحنين للاندلس .

فِي الشَّجَا صَدْرٍ مِنَ الصَّبْرِ فَارِغٍ	وَيَا لِقَذَى طَرْفٍ مِنَ الدَّمْعِ مَلَانٍ
وَنَفْسٍ إِلَى جِو الْكَنِيسَةِ صَبَّةٍ	وَقَلْبٍ إِلَى أَفْقِ الْجَزِيرَةِ حَنَانٍ
فِي أَلْيَتِ شَعْرِي لَدَهْرِي عَطْفَةٌ	فَتَجْمَعُ أَوْطَارِي عَلَى وَأُوطَانِي ⁽³⁾

اما الاعمى التطيلي فانه افاد من ايقاع حرف النون في وصف احد الحمامات ،
بقوله :

⁽¹⁾ديوان ابن حمديس : ص 183 .

⁽²⁾ديوان ابي اسحاق الالبيري : ص 85 - 88 .

⁽³⁾ديوان ابن خفاجة : ص 345 .

يَاخُسْنَ حَمَامِنَا وَبَهَجَتَهُ مَرَأًى مِنْ السَّحْرِ كُلِّهِ حَسَنُ
مَاءٍ وَنَارٍ حَمَاهُمَا كَنَفٌ كَالْقَلْبِ فِيهِ السَّرُورُ وَالْحَزَنُ⁽¹⁾

ويتجه ابن زيدون إلى التغني بالجمال الاندلسي ومدح المدن الاندلسية ، بقوله:

نَهَارُكَ وَضَاخٌ وَلَيْلُكَ ضَحِيانُ
وَتُرْبُوكِ مَصْبُوحٌ وَغُصْنُكَ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكَ تُكْسِي حِينَ جَوْكَ عُيَانُ
وَرِيَّاكَ رَوْحٌ لِلنَّفْسِ وَرِيحَانُ وحسب الأمانى ظَلُّكَ الْمُتَقِيَانُ⁽²⁾

هذه هي أهم الحروف التي شاع ذكرها في شعر المدينة الأندلسية وهي على العموم من الحروف التي شاع استخدامها من قبل أكثر الشعراء العرب ، وهذا لايعني ان شعراء الاندلس لم يستخدموا الحروف الأخرى، وإنما جاء استخدامهم لحروف اللغة العربية بنسب متفاوتة.

ثانياً : الموسيقى الداخلية :

تسهم الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية في تكوين وحدة النص الموسيقية والصوتية، من خلال التنغيم الاليقاعي الذي تحدثه داخل ذلك النص. وللموسيقى الداخلية أهمية نابعة من أئتلاف الالفاظ وانسجامها ،كما عبر عن ذلك حازم القرطاجني بقوله: (وبقوة التهدي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات ان تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة . فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والأئتلاف والاستعمال المتوسط)⁽³⁾. ومن ابرز صور الموسيقى الداخلية التكرار والجناس . حيث يشكل التكرار قيمة صوتية عالية ونغمة موسيقية صاخبة في فضاء النص الشعري ، فهو (تتأوب الالفاظ واعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصده الناظم في شعره او نثره)⁽⁴⁾ ، فضلاً عن انه

⁽¹⁾ ديوان الاعمى التطيلي : ص 245 .

⁽²⁾ ديوان ابن زيدون : 133 .

⁽³⁾ منهاج البلغاء وسراج الادباء : ص 225 .

⁽⁴⁾ جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : ص 239 .

(ضربٌ من ضروب النغم يترنم به الشاعر ليقوي به جرس الألفاظ واثراً)⁽¹⁾ . وتختلف المساحة الصوتية للتكرار فقد تكون صغيرة في تكرار حرف دون الآخر داخل البيت الواحد، بما يشيع نغماً موحياً أراد الشاعر به ان يشيع موسيقى معينة ،وقد تكبر هذه المساحة فتكون كلمة او عبارة ،تداخل جو النص مكونة تردداً نغمياً حلواً ذا رونقاً موسيقياً عذباً.فمن تكرار الحرف،قول ابن شهيد وهو يتحسر على فقدان مدينة"قرطبة" :

دارٌ أقالَ الله عثرةَ أهلها	فتبربرُوا وتغربُوا وتمصروا
في كُلِّ ناحيةٍ فريقٌ منهمُ	متقطِرٌ لفراقِها متحيرٌ
والزاهريَّةُ بالمراكبِ تزهرُ	والعامريَّةُ بالكواكبِ تُعمُرُ ⁽²⁾

فقد كرر الشاعر حرف (الراء) وهذا التكرار اضفى على النص الشعري جرساً موسيقياً ذات ايقاع يتلائم مع ما اراد الشاعر الافصاح عنه من مشاعر الألم والتحسر على ضياع مدينة أندلسية عريقة "كقرطبة" .

واستثمر ابن حزم تلك النغمة الجمالية القوية في حرف (الراء) ،وما ينسجم من تردد هذا الحرف من إيقاعات مجببة للنفس ، لأظهار شوقه "لقرطبة" وتحسره على ضياعها، بقوله :

سلامٌ على دارِ رحلنا وغُودرث	خلاءٌ من الأهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا	ولا عمرت من اهلها قبلنا دهرا
فيا دارُ لم يقفرك منا أختيارنا	ولو أننا نستطيعُ كُنْتَ لنا قبرا
ويامجتلَى تلك البساتين حفها	رياض قوارير غَدَت بعدنا غبرا ⁽³⁾

فقد كرر الشاعر حرف (الراء) خمس عشرة مرة، وقد افاد هذا التكرار على تأكيد الارتباط العميق بين الشاعر ووطنه .

⁽¹⁾ جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : ص259 .

⁽²⁾ ديوان ابن شهيد : ص109 - 111 .

⁽³⁾ شعر ابن حزم الأندلسي : مجلة المورد ، م(26) ، ع(4) ، 1998 ، ص 72 .

وفي قطعةٍ شعريّةٍ أخرى لابن حزم تضج بالحنين إلى الأهل والديار، نجد الشاعر
يعتمد الى التكرار اللطيف والمعبر عن حالة الحنين وذلك من خلال تكراره حرف (الدال)
ست عشرة مرة، بقوله :

مُسَهْدُ القلب في خَدَيْهِ أَدْمَعُهُ	قد طالما شَرِقت بالوجد أضلعه
داني الهموم بعيدُ الدارِ نازحها	رجعُ الأنين سَكيبُ الدمع مُفَزَعُهُ
ياؤوي الى زفَرَاتٍ لو يباشِرَها	قاسي الحديد فواقاً ذابَ أجمعه
يا راحلاً عند حي عنده رمقي	أقر السلام على من لم أودعه
وسلهُ بالله عن عهدي أَيْحَظُهُ	فعهدُهُ بمكانٍ لا أَضِيعُهُ ⁽¹⁾

ويمتد التكرار إلى مساحة صوتية اوسع من الحروف بتكرار الكلمات، وقد أفاد ابن
حمديس من هذا النوع من التكرار، وذلك عندما كرر اسلوب المدح (حبذا) ست مراتٍ في
سياق النص الشعري، فكانت هذه اللفظة تحمل بين دفتيها معاني الحب والاشتياق للوطن
والأهل، بقوله :

أَلَا حَبَّذا تلك الديارُ أوهالاً	ويا حَبَّذا منها رسومٌ وأطلالُ
وياحَبَّذا منها تتسمُ نفحةً	تؤديه اسحارُ إلينا وأصالُ
ويا حَبَّذا الأحياءُ منهم وحَبَّذا	مفاصلُ منهم في القبورِ وأوصالُ
ويا حَبَّذا ما بينهم طولُ نَوْمَةٍ	تُبَهِّئني منها إلى الحشرِ أهوالُ ⁽²⁾

ويتمثل تكرار تركيب الاستثناء عند الشاعر ابن عمار الذي عبّر من خلال هذا
التكرار على تأكيد اشتياقه وحنينه لمدينة "شلب"، فيقول :

عليّ وإلّا ما بكاء الغمائم	وفي وإلّا ما نياح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب	لثأر وهز البرق صفحة صارم
أشلبُ ولا تتساب عبرة مشفق	وحمص ولا تعتاد زفرة نادم ⁽³⁾

(1) شعر ابن حزم الأندلسي : مجلة المورد ، م(27) ، ع(2)، 1999، ص 98-99 .

(2) ديوان ابن حمديس : ص 359 .

(3) محمد بن عمار الأندلسي : ص 209-210 .

وعلى ما يبدو ان الشاعر الأندلسي قد افاد من اسلوب التكرار ولاسيما في قصائد الحب والشوق والحنين للأندلس ، وذلك لما يحمله هذا الاسلوب - التكرار - من معاني التأكيد على حب الأندلسي لبلاده. وترى الباحثة ان للتكرار قدرة على الايحاء والتأثير وتجديد حقل الانتباه وانه ينزع إلى زيادة الحيوية في التطريب وتحريك مشاعر المتلقي.

أمّا الشاعر ابن خفاجة عندما راودته مشاعر الحنين لأيامه الماضية في جزيرة "شقر" ، كرر لفظة (آه من) أربع مرات ، بقوله :

آه من غُرْبَةٍ تُرْقِرُ بَثًّا آه من رَحْلَةٍ تَطُولُ نَوَاهَا
آه من فُرْقَةٍ لَغِيرٍ تَلَاقٍ آه من دَارٍ لَا يُجِيبُ صَدَاهَا⁽¹⁾

أما ابن زيدون فنلمح التكرار لديه ، عندما كرر لفظة (سقام) ، بقوله :

على الثغب الشهدي مني تحيةً زكّتْ وعلى وادي العقيق سلامٌ
تذكرت ايامي بها فتبادرتُ دموعٌ كما خان الفريدَ نظامٌ
واحور ساجي الطرف حشو جفونه سقامٌ برى الاجسام منه سقامٌ⁽²⁾

ويتجسد تكرار العبارة عند الشاعر ابي عمر الباجي عندما أخذه الشوق الى مدينته "سرقسطة" ، فقال متشوقاً :

فلا أنسَ لا أنسَ ذاك الحيا وتلك المعالي وتلك الشيم
وَدُنْيَا بكم طَلْقَةُ الْمُجْتَلَى ودهراً بكم واضحَ المُبْتَسِمِ⁽³⁾

فقد كرر الشاعر عبارة (لا أنسَ) مرتين وذلك ليعرب عن حنينه لوطنه فيحاول ان يؤكد هذا الاشتياق ويثبتته في نفس السامع من خلال تكراره لعبارة (لا أنسَ) .

(1) ديوان ابن خفاجة : ص 364 - 365 .

(2) ديوان ابن زيدون : ص 152-153 .

(3) المغرب : 405/1 .

أما الجناس فهو يعد من الفنون المهمة التي تبني عليها الموسيقى الداخلية، ويقوم عليه التنغيم الصوتي بشكل بارز ومؤثر ، وهو (تشابه الكلمتين في النطق واختلافهما في المعنى)⁽¹⁾، ويعد الجناس ايضاً (ضرباً من ضروب التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه الكلي او الجزئي في تركيب الألفاظ ، فهذا التشابه في الجرس يدفع الذهن إلى التماس معنى تنصرف اليه اللفظتان بما يثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلوله على المعنى في سياق البيت)⁽²⁾، وهو على نوعين ، جناس تام وجناس غير تام .حيث نلمح الناس التام في قول الشاعر ابن شهيد :

هَاتِيكَ دَارُهُمْ فَقِفْ بِمَعَانِهَا تَجِدِ الدُّمُوعَ تَجِدُ فِي هَمَلَانِهَا
عُجْنَا الرِّكَابَ بِهَا فَهَيَّجْ وَجَدَنَا دِمْنٌ دَعَرَ السَّرْبَ مِنْ إِدْمَانِهَا⁽³⁾

فجانس الشاعر بين (تَجِدِ وَتَجِدُ) فالكلمة الاولى من الفعل (وجد - يجد) والثانية من الفعل (جَدَّ - يَجِدُ) ، وكذلك الجناس بين (دِمْنٌ وإدْمَانِهَا).
ونلمح الجناس التام في قول الوقشي :

لثُكِّلِكَ كَيْفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ سُورُوراً بَعْدَمَا يَبْسُتُ ثَغُورُ
طَلِيْطَلَةٌ أَبَاحَ الْكُفْرِ مِنْهَا حِمَاهَا إِنَّ ذَا نَبَأٍ كَبِيرُ
مُحْصَنَةٌ مُحَسَّنَةٌ بَعِيدُ تَتَاوَلُهَا وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ⁽⁴⁾

نلاحظ في البيت الاول جناس تام بين لفظتي (ثَغُورُ وَثَغُورُ) ، (فالثغور) الاولى بمعنى (الفم)، والثانية بمعنى (المدن الحدودية) أي البلد الذي على تخوم العدو⁽⁵⁾ فاللفظ اذاً واحد والمعنى مختلف . وانظر كيف يتجاوب النغم في الجناس التام والجناس غير التام

(1) مفتاح العلوم : السكاكي ، تحقيق : اكرم عثمان ، ط 1 ، مطبعة دار الرسالة ، بغداد ، 1982 ، ص 668 .

(2) جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : ص 284.

(3) ديوان ابن شهيد : ص 165.

(4) نفح الطيب : 483/4 .

(5) ينظر: المثل السائر : 344/1 .

والمتمثل في البيت الأخير من هذه القطعة الشعرية ، بين لفظة (محصنة ومحسنة) وهو جناس مضارعة لاتحاد الصاد والسين في المخرج .
وعندما يختل شرط من شروط الجناس التام السابقة ، فهو جناس غير تام وقد تمثل في العديد من النصوص الشعرية ، على نحو قول ابن شهيد وهو يتحسر على ضياع مدينة " قرطبة " .

جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتغيّرت وتغيّروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتهم	نوراً تكاد له القلوب تُتَوَّرُ
فلمثل قرطبة يقلُّ بكاء من	يبكي بعين دمعها متفجّر
والزاهريّة بالمراكب تزهر	والعامريّة بالكواكب تعمّر ⁽¹⁾

فقد اشتملت هذه القطعة الشعرية على الجناس غير التام المتمثل بالالفاظ (فتغيّرت وتغيّروا، نوراً وتتنور ، بكاء ويبكي). اما البيت الأخير

والزاهريّة بالمراكب تزهر	والعامريّة بالمراكب تعمّر
--------------------------	---------------------------

فانه قائم على المقابلة فالشطر الاول يقابل الشطر الثاني، ثم هناك جناس بين اللفظتين (الزاهريّة وتزهر ،والعامريّة وتعمّر) .

وقد استعان الشاعر ابو جعفر بن جرج بالجناس وهو يبكي مدينة "الزهراء"، بقوله:

على قدر ما أعطى العيون من الحسن	سناها غدت تعطي النفوس من الحزن
وكم قد حنت تلك المنى أهلها المنى	فأضحت وما غير الأسى رائد اللحن
عفا حسنّها إلا أزهار دمنة وعزفاً	كأن المسك فيها من الدمن
تذكرنا تلك المباني بعرفها	وبالزهر تلك الأوجه الزهر في الحسن
إذا الملك فيها والملوك أعزّة	وفيهما الغنى لو كان ذاك الغنى يُعني ⁽²⁾

لقد وفق الشاعر في هذه القطعة الشعرية من استخدام الجناس غير التام ،حيث جانس بين(الحسن والحزن) وان اجتماعهما في سياق واحد يوضح ما كانت عليه المدينة

(1) ديوان ابن شهيد : ص 109-111 .

(2) الذخيرة :م1،ق3،ص454-455 .

ثم ما آلت اليه، فوظف الشاعر الكلمة نفسها حسبها تغيير في حرف من حروفها يولد الدهشة لدى المتلقي والاحساس بجمال اللغة وتمكن الشاعر من ناصيتها . ونجد أنّ هذه المقطوعة قائمة على تداعيات الفاظ اللغة وما يتولد من اللفظة الواحدة ، فوظف الشاعر هذا الجناس اروع توظيف، إذ وفر جواً احيائياً موسيقياً مؤثراً بين الألفاظ (دمنة والدمن، الزَّهر والاوجه الزَّهر، الملك والملوك، الغنى والغنى يغني).

وعندما وصف الشاعر ابو عامر بن مسلمة جمال البيئة الأندلسية ، استعان بالجناس لما يحمله من معاني التكرار الجميل، فيقول :

وروضـة مشـرقـة	بكل نور مجتـى
فيها بهارٌ باهرٌ	ونرجسٌ يشكو الضنى
وياسمينٌ أرضـه	ونورةٌ تلونـا
فـاجتنـ ورداً وارداً	وسوسـن ملثـا
وحولـه نيلـ وفـر	فتتـه رانٍ إن رنا ⁽¹⁾

فجانس الشاعر بين لفظة (بهارٌ وباهرٌ، وورداً ووارداً، ورانٍ إن رنا) ونجد في الموسيقى الداخلية لشعر المدينة الأندلسية ان الجناس يشترك مع التكرار في (تأكيد النغم ورنته ، ويزيد عليه بأنه يوجد نوعاً من الانسجام بين المعاني العامة، ورنّة الالفاظ العامة) ⁽²⁾ .فهو يحدث ضرباً من ضروب النغم الداخلي وتكمن سر قوته في كونه (يقرب بين مدلول اللفظ وصورته من جهة ، وبين الوزن الموضوع فيه اللفظ من جهة أخرى) ⁽³⁾ .

وعلى وفق ما تقدم يمكن ان نعد الموسيقى الداخلية وتوفرها في شعر المدينة الأندلسية معياراً لجودته إلى جانب انها تكشف عن مدى تمرس الشاعر الأندلسي بالكلمة المفردة وحسن اختيارها .

(1) شعر ابي عامر بن مسلمة: ص 161 ؛ وكذلك البديع في وصف الربيع : ص 38 .

(2) المرشد : 662/2 .

(3) المصدر نفسه : 663/2 .

الخلاصة

بعد هذه الرحلة الطويلة في رحاب عالم (المدينة الاندلسية) نضع رحالنا الان لنستجلي نتائج هذه الرحلة ونستعرض ما فرزنا به .

فمن اهم ما توصل اليه البحث من نتائج هي :

1. ظهر لنا في التمهيد المكانة التي احتلتها (المدينة) في الفكر الفلسفي ، فكانت هناك رؤى مختلفة للمدينة ، منها المدينة النقية الخالية من العيوب والاثام وهذه هي المدينة الحلم ، ومنها المدينة الواقعية التي لاتخلو من الخير والشر معاً ،وهي المدينة الحقيقية التي قال عنها ابن خلدون ، والتي هي موضوع البحث والدراسة .
2. لقد كشف الفصل الاول عن حقيقة مفادها ان المدينة الاندلسية كانت تتمتع بملامح خاصة عند الشاعر الاندلسي ، تجسدت هذه الملامح عنده بما تحويه من مظاهر حضارية وعمرانية تمثلت بالقصور ودور العبادة (المساجد والكنائس) والحمّامات وغيرها ، فظهر اهتمام الشعراء بالهيكل الداخلي للمدينة ، وهذا ان دل على شي فانه دليل على شدة تعلق الشعراء الاندلسيين بمدنهم ، فلم يكن اهتمامهم ينصب على هيكل المدينة الخارجي فحسب بل على ما تحويه هذه المدن من معالم حضارية أيضاً .
3. وقد شخّصت الدراسة حقيقة اخرى هي اختلاف موقف الشعراء بالنسبة للمدينة ، فمن الشعراء من وجد في مدينته بأنها المدينة الطاهرة، النقية (المعشوقة) التي تخلو . او تكاد تكون مبرأة . من العيوب ، ومنهم من وجد في المدينة بانها المدينة المشوهة والقاسية التي يمل منها ولا يطيق العيش فيها ، ونجد هنا ان المدينة تقف على طرفي نقيض فهي احيانا جميلة ، منعمة ، نقية شجاعة يحبها الشاعر ويتغزل فيها ، وهي احيانا على النقيض من ذلك نموذج للقبح والقسوة والضياع .
4. وخلص الفصل الثاني إلى أنّ الشاعر الاندلسي قد أولى عناية خاصة بوصف المدينة الاندلسية وطبيعة هذه المدينة الجميلة ، فلم يكن الشاعر في وصفه لهذه المدن منعزلاً عن وصف الطبيعة الخلابة ، بل كانت الطبيعة الساحرة للمدينة الأندلسية جزءاً لايتجزأ من المدينة نفسها .
5. وقد كشف البحث أيضاً أن المدينة الاندلسية التي سقطت بأيدي الأعداء اصبحت فيما بعد رمزاً للجهاد والفضيلة والمقاومة النبيلة ورمزاً للحب والحنين لأيام مضت، وان

الشعر الذي بكى المدن الاندلسية كان شعراً صادقاً معبراً عن حقيقة عاشها الشاعر ، فكان بكاء المدينة الاندلسية وثيقة فنية صادقة عبرت عن حالة الفقد والضياع والحسرة .

6. وقد كشف البحث عن حقيقة اخرى لا بد من التوقف عندها وهي الشعور بالغربة والحنين للأندلس ، فكان حنين الشعراء لمدينهم حنيناً صادقاً يحمل آهات التمني والعودة لتلك المدن فسجل شعر الحنين للأندلس أروع صوره واصدقها . وبهذا يعد الشعر الذي قيل في رثاء المدن الاندلسية وكذلك شعر الحنين لهذه المدن من اروع واصدق ما قيل في الشعر العربي لانه جاء تعبيراً عن شعور حقيقي واحساس صادق .

7. وقد كشفت فصول الرسالة فضلاً عن هذه النتائج الموضوعية ، نتائج اخرى فنية ، تمثلت في ان الشاعر الاندلسي اجاد في صياغة صورة المدينة صياغة فنية رائعة وقد اكثر من استخدام التشبيهات في صياغته هذه ، نظرا لما تتمتع فيه المدينة الاندلسية من جمال الأخاذ الذي يتناغم وجمال الطبيعة التي كانت تحتضن تلك المدن الاندلسية .

8. اما فيما يخص لغة الشعر الاندلسي واسلوبه فكانت الشواهد الشعرية في اغلبها سهلة وواضحة وتتسم بجمال العبارة وسلاستها ، وحسن موسيقاها ، فضلاً عن كونها عامرة بالعواطف الصادقة والاحاسيس الوطنية النبيلة .

واخيراً فقد كشف البحث ان المدينة الأندلسية شكلت في ذهن الشاعر رمزاً حضارياً وشاخصاً تاريخياً للوجود العربي في تلك البقعة الاوربية .

وبعد فهذه هي اهم نتائج ما اثارته هذه الدراسة ، ولا ادعي انها حقائق نهائية مسلم بها، لكنني في الوقت نفسه أحسب أنني بذلتُ كلَّ ما أستطيعُ في سبيل الوصول إليها ، فالحمد لله دائماً وابدأً وبه نستعين .

أولاً : المصادر والمراجع :

- ❖ القرآن الكريم
- ❖ ابن بسام وكتابه الذخيرة : حسين يوسف خريوش ،دار الفكر ،عمان - الاردن،1984 .
- ❖ ابن سارة الأندلسي -حياته وشعره- : الدكتور مصطفى عوض الكريم،مصر،1958.
- ❖ ابو الحسن الحصري القيرواني : تحقيق محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى،مكتبة المنار،تونس،1963 م.
- ❖ اتجاهات الشعر الأندلسي الى نهاية القرن الثالث الهجري: الدكتور نافع محمود خلف، ط1،دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد،1990م .
- ❖ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري :الدكتور محمد مصطفى هدارة،دار المعارف،القاهرة ، 1963 .
- ❖ اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين : الدكتور عبد المطلب مصطفى ،ط1،دار الأندلس ،بيروت-لبنان،1404 هـ -1984م .
- ❖ آثار البلاد واخبار العباد : تصنيف الامام زكرياء بن محمد بن محمود القزويني،دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت،1960 م .
- ❖ أثر البيئة في المدينة العراقية في القرن التاسع عشر : الدكتور محمد حسن علي مجيد،المكتبة العصرية،بغداد،1988 م.
- ❖ اخبار وتراجم اندلسية (مستخرجة من معجم السفر للسلفي) : تحقيق الدكتور احسان عباس ، ط1،دار الثقافة ، بيروت-لبنان،1963 م .
- ❖ الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة : الدكتور منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب ، الموصل،1987 م.
- ❖ الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : الدكتور مصطفى الشكعة ،ط3 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1975 م .
- ❖ الأدب العربي في الأندلس : الدكتور عبد العزيز عتيق ، ط2 ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1976 م.

- ❖ الأدب والبلاغة : ابراهيم علي ابو الخشب ، ط2 ، مطبعة المعرفة ، 1378 هـ - 1959 م.
- ❖ آراء اهل المدينة الفاضلة : ابو نصر الفارابي ، تقديم: البير نصري نادر، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت - لبنان، 1959 .
- ❖ أزمة المدينة العربية : عبد الأله ابو عياش ، ط1، مطابع دار القلم ، بيروت - لبنان، 1980 .
- ❖ الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لاصول الأساليب الأدبية) : أحمد الشايب ، ط5، مكتبة النهضة المصرية .
- ❖ اصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ، ط3، مكتبة النهضة المصرية ، 1365-1946 م.
- ❖ الاعلام : خير الدين الزركلي، ط14، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، 1999 .
- ❖ اعمال مهرجان ابن خلدون (المنعقد في القاهرة عام 1962) : عبد الرحمن بدوي، منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1962 م.
- ❖ البديع في وصف الربيع: لابي الوليد اسماعيل بن عامر الحميري (توفي قريباً سنة 440 هـ) نشر وتصحيح : الاستاذ هنري بريس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1359 هـ 1940 م.
- ❖ بغية الملتبس في تاريخ رجال اهل الأندلس : احمد بن يحيى الضبي (ت 599 هـ)، تحقيق ابراهيم الابياري ، ط1، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، 1410 هـ- 1989 م .
- ❖ البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف :الدكتور سعد اسماعيل شلبي، منشورات النهضة المصرية، القاهرة ، 1976 م.
- ❖ البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب : لابن عذارى المراكشي (ت 712 هـ) ، تحقيق : إ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت . لبنان ، (د. ت).
- ❖ تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : الدكتور احسان عباس ، ط2، دار الشروق ، عمان ، 1997م.

- ❖ تاريخ الاندلس السياسي والعمراني والاجتماعي : الدكتور علي محمد حمودة ، ط1 ، دار الكتاب العربي ، مصر ، 1957 م.
- ❖ تاريخ الفكر الاندلسي : انخل جنثالث بالنتيا ، ترجمة حسين مؤنس ، ط1 المكتبة المصرية ، القاهرة ، 1955.
- ❖ تاريخ الفلسفة العربية : جميل صليبا ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1973 م.
- ❖ تاريخ قضاة الأندلس : لابي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الاندلسي (ت 793هـ) وسماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشر : أ. ليفي بروفنسال ، ط1 ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 1948 .
- ❖ التجديد في الادب الأندلسي : الدكتور باقر سماكة ، بغداد ، 1971 م.
- ❖ التشبيهات من اشعار اهل الاندلس : لابي عبد الله علي بن محمد بن الكتاني (ت430هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت . لبنان ، 1966م.
- ❖ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام : الدكتور شكري فيصل ، ط5، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1959 م .
- ❖ التفسير النفسي للادب : الدكتور عز الدين اسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة ، 1963 م.
- ❖ الجامع (جامع شمل اعلام المهاجرين المنتسبين الى اليمن وقبائلهم) : محمد عبد القادر بامطرف، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، 1977 .
- ❖ جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس : لابي عبد الله محمد بن ابي نصر الحميدي (ت 488 هـ) ، تحقيق : ابراهيم الابياري ، ط2 ، دار الكتاب المصري . القاهرة ، دار الكتاب اللبناني . بيروت ، 1989 .
- ❖ جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : الدكتور ماهر مهدي هلال ، دار الحرية ، بغداد ، 1980 م.
- ❖ جغرافية الحضار (دراسة في تطور الحضار ومناهج البحث فيها) : محمد السيد غلاب ويسري عبد الرزاق الجوهري ، ط1 ، دار الكتب الجامعية ، 1972 م.
- ❖ جمهورية افلاطون : ترجمة حنا خباز ، ط3 ، المطبعة العصرية ، 1929م.
- ❖ الحلة السيرة : لابي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي المعروف بابن الابار (ت 658هـ) ، تحقيق :حسين مؤنس ، ط1 ، 1963 .

- ❖ الحياة العلمية في مدينة بلنسية : كريم عجيل حسين ، ط1 ، بيروت ، 1976م.
- ❖ الحيوان : لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255 هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، 1356هـ - 1938 .
- ❖ خريدة القصر وجريدة العصر : لابي عبد الله محمد بن حامد المعروف بالعماد الكاتب الاصفهاني (ت 597هـ) ، تحقيق : عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر ، 1964 ، القسم الرابع ، الجزء الثاني .
- ❖ الخيال الحركي في الادب النقدي : عبد الفتاح الديدي ، ط1 ، دار المعرفة ، القاهرة ، 1965 .
- ❖ دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة : الدكتور الطاهر احمد مكي ، ط1، دائرة المعارف ، القاهرة ، 1980 م.
- ❖ دلائل الاعجاز في علم المعاني : لعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) ، صحح اصله محمد عبده ، وعلق حواشيه : السيد محمد رشيد رضا ، منشورات مكتبة القاهرة ، 1381هـ - 1961م.
- ❖ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (وهو العصر الثاني من كتاب دولة الاسلام في الاندلس) :محمد عبد الله عنان ، ط1 ، القاهرة ، 1380 هـ -1960 م.
- ❖ ديوان الاعمى التطيلي : تحقيق الدكتور احسان ، دار الثقافة ، بيروت .لبنان، 1963 م.
- ❖ ديوان ابن بقي الأندلسي : تحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد ، ط1 ، داركوثا ، دمشق ، 1997 م.
- ❖ ديوان ابن الحداد الاندلسي : تحقيق الدكتور يوسف علي طويل ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت .لبنان ، 1990 م.
- ❖ ديوان ابن حمديس : تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ،بيروت ، 1960م.
- ❖ ديوان ابن خفاجة : تحقيق الدكتور سيد غازي ، ط2 ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1979 م .
- ❖ ديوان ابن رشيقي القيرواني : تحقيق الدكتور عبد الرحمن باغي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت).

- ❖ ديوان ابن الرومي : تحقيق كامل كيلاني ، مطبعة التوفيقية ، القاهرة ، (د. ت) ،
ثلاثة اجزاء في مجلد واحد .
- ❖ ديوان ابن زيدون : تحقيق كامل كيلاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ،
1351 هـ - 1932 م .
- ❖ ديوان ابن زيدون ورسائله : تحقيق علي عبد العظيم ، مطبعة الرسالة ، مكتبة
نهضة مصر ، الفجالة ، 1957 م .
- ❖ ديوان ابن شهيد الاندلسي : تحقيق يعقوب زكي ، راجعه الدكتور محمود علي مكي
، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د. ت) .
- ❖ ديوان ابي اسحاق الالبيري : حققه وشرحه واستدرك فائته : الدكتور محمد رضوان
الداية ، ط 1 ، دار الفكر المعاصر ، بيروت . لبنان ، دار الفكر ، دمشق - سورية ،
1991 م .
- ❖ ديوان ابي تمام : شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط 2 ، دار
المعارف ، مصر . القاهرة ، (د. ت) .
- ❖ ديوان امرئ القيس : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط 3 ، دار المعارف ، مصر
، 1969 م .
- ❖ ديوان الحكيم ابي الصلت امية بن عبد العزيز : تحقيق محمد المرزوقي ، دار
الكتب الشرقية ، تونس ، 1974 م .
- ❖ ديوان عبد المجيد بن عبدون اليابري : تحقيق سليم التتير ، ط 1 ، دار الكتاب
العربي ، دمشق . سورية ، 1988 م .
- ❖ ديوان المتنبي : وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، مطبعة السعادة ، القاهرة . مصر ، (د. ت) .
- ❖ ديوان المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية : تحقيق الدكتور رضا الحبيب السويسي
منشورات الدار التونسية للنشر ، 1975 م .
- ❖ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : لابي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542 هـ)
، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت . لبنان ، 1399 هـ . 1979 م .
- ❖ رايات المبرزين وغايات المميزين : لعبد الملك ابن سعيد الاندلسي (ت 685 هـ) ،
تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ،
1393 هـ . 1973 م .

- ❖ الرثاء : الدكتور شوقي ضيف ، ط2 ، دار المعارف ، مصر ، 1955 م.
- ❖ الرثاء في الشعر العربي : الدكتور محمود حسن ابو ناجي ، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان - 1402 هـ .
- ❖ الروض المعطار في خبر الاقطار: لابي عبد الله محمد بن عبد الله الحميري (ت727هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، لبنان . بيروت ، 1975 .
- ❖ روضة المحاسن وعمدة المحاسن : لابي بكر يحيى بن محمد ، تحقيق الدكتور منجد مصطفى بهجت ، المجمع العلمي العراقي ، 1988 م .
- ❖ شذرات الذهب في اخبار من ذهب : لابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089) ، دار المسيرة ، بيروت ، (د.ت) .
- ❖ شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي: عبد الحميد الراضي، ط2، مؤسسة الرسالة ، بغداد ، 1975 .
- ❖ شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري :تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس ، بيروت، 1978 م.
- ❖ شرح ديوان زهير بن ابي سلمى : صنعة الامام ابو العباس احمد بن يحيى بن زيد الشيباني (ت 291 هـ) ، تحقيق : احمد زكي العدوي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1944 م.
- ❖ شعر ابن اللبانة الداني: تحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد، دار الكتب، الموصل، 1976 م .
- ❖ الشعر في ظل بني عبّاد : الدكتور محمد مجيد السعيد ، ط1، مطبعة النعمان، النجف ، 1972 م.

- ❖ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : الدكتور محمد مجيد السعيد، ط2، الدار العربية للموسوعات ،بيروت - لبنان ، 1985 م.
- ❖ الشعر والنغم : الدكتور رجاء عيد ، منشورات دار الثقافة ، القاهرة ، 1975 .
- ❖ الصحاح في اللغة والعلوم : عبد الله العلايلي ، ط1، دار الحضارة العربية ، بيروت، 1974 .
- ❖ صفة جزيرة الأندلس : لأبي عبد الله محمد الحميري (ت727 هـ) : تحقيق : إ. ليفي بروفنسال ، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1937 م .
- ❖ الصلة: لأبي القاسم خلف بن بشكوال (ت578 هـ) : تحقيق ابراهيم الأبياري، ط1 ، دار الكتاب المصري - القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، 1410 هـ -1989م .
- ❖ الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، ط2، عيسى البابي الحلبي ، 1971 م .
- ❖ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : الدكتور جابر أحمد عصفور ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1974 م .
- ❖ الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري (دراسة في اصولها وتطورها) : الدكتور علي البطل ، ط1، دار الأندلس ، 1980 م .
- ❖ الطبيعة في الشعر الجاهلي : الدكتور نوري حمودي القيسي ، ط1، دار الارشاد ، بيروت ، 1970 م .
- ❖ الطراز (المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز) : ليحيى بن حمزة بن علي ابراهيم العلوي ، منشورات المقتطف بمصر، 1332 هـ -1914 م .
- ❖ ظهر الاسلام : احمد امين ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1959م.
- ❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : لابن رشيق القيرواني (ت456 هـ) ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط4، دار الجيل للنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، 1972 م.
- ❖ عيار الشعر : لأبي الحسن محمد بن احمد بن طباطبا العلوي (ت322هـ)، تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ، منشورات المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1956 م .

- ❖ عيون الأنبياء في طبقات الأطباء : لموفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة (ت 688 هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1965 م .
- ❖ الفخر والحماسة : حنا فاخوري ، ط2، دار المعارف ، مصر - القاهرة، (د.ت).
- ❖ فصول في الشعر ونقده : الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971 م .
- ❖ فضائل الأندلس وأهلها : لأبن حزم وابن سعيد والشقندي ، تقديم الدكتور صلاح الدين المنجد / ط1، الكتاب الجديد، 1968 م.
- ❖ الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية عند مفكري الاسلام : ناجي التكريتي ، ط1 ، دار الاندلس ، بيروت ، 1979 م .
- ❖ فن الشعر : الدكتور إحسان عباس ، دار بيروت ، 1955 م .
- ❖ فن المديح وتطوره في الشعر العربي : احمد ابو حاقه ، ط1 ، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت ، 1962 م .
- ❖ فنون بلاغية (البيان - البديع) : الدكتور أحمد مطلوب ، ط1، دار البحوث العلمية ، 1395 هـ - 1975 م .
- ❖ في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس : الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة ، 1985 م .
- ❖ في الشعر الأندلسي : الدكتور عدنان صالح مصطفى ، ط1 ، دار الثقافة ، قطر - الدوحة ، 1987 م .
- ❖ قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي - الخامس الهجري - : الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف ، الدار التونسية للنشر ، 1984 م .
- ❖ القصص القرآني في الشعر الأندلسي : الدكتور احمد حاجم الربيعي ، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2001 م.
- ❖ القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري : الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامه، ط1 ، كلية الدعوة الاسلامية، 1996 م .
- ❖ قضايا أندلسية : بدير متولي حميد ، دار المعرفة ، 1964 م .

- ❖ قلائد العقيان في محاسن الاعيان : ابو نصر الفتح بن محمد عبد الله القيسي (ت529 هـ) . تقديم : محمد العنابي ، منشورات المكتبة العتيقة ، تونس ، 1386هـ - 1966 م .
- ❖ لسان العرب : للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت711 هـ) ، دار صادر ، دار بيروت ، 1956 م .
- ❖ لغة الشعر بين جيلين : الدكتور ابراهيم السامرائي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت).
- ❖ اللغة والحضارة : الدكتور مصطفى مندور ، منشورات منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1974 م .
- ❖ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الاثير ، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة، ط1 ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة، القاهرة ، 1379-1959 م .
- ❖ محمد بن عمار الأندلسي (دراسة ادبية تاريخية لألمع شخصية سياسية في تاريخ دولة بني عبّاد في اشبيلية) : الدكتور صلاح خالص ، مطبعة الهدى ، بغداد ، 1957 م .
- ❖ مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع : لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت739 هـ) : تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي ، ط1 ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، 1954 م .
- ❖ المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها : عبد الله الطيب ، ط2 ، دار الفكر ، بيروت ، 1970 م .
- ❖ مستقبل الشعر وقضايا نقدية : الدكتور عناد غزوان ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1994 م .
- ❖ المسجد في الاسلام (رسالته ، نظام بنائه، احكامه): خير الدين وانلي ، ط1، منشورات مطبعة الانشاء ،دمشق ، 1971 م .
- ❖ مطالع البدور في منازل السرور : علاء الدين الغزولي ، ط1، ادرة الوطن ، القاهرة 1299 هـ .
- ❖ المطرب من اشعار أهل المغرب : لابن دحية الكلبي (ت 632 هـ) : تحقيق الاستاذ مصطفى عوض الكريم ، ط1 ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، 1957 م .

- ❖ مطمح الانفس ومسرح التآنس في ملح أهل الأندلس : لأبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان (ت529 هـ) : دراسة وتحقيق : محمد علي شوابكة ، ط1، دار عمار ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1403 هـ - 1983 .
- ❖ المعتمد بن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية تاريخية : الدكتور صلاح خالص ، دار الاخبار ، بغداد ، 1958 م .
- ❖ معجم الادباء : الشيخ الامام شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(ت626 هـ) ، دار المستشرق ، بيروت -لبنان ، (د.ت) .
- ❖ معجم البلدان : ياقوت الحموي ، دار صادر - بيروت ، 1397 هـ-1977 م .
- ❖ المغرب في حلى المغرب : لعبد الملك بن سعيد (ت 685 هـ) ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1953 و 1955 .
- ❖ مفتاح العلوم : لأبي يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي (ت 626 هـ) ، تحقيق : أكرم عثمان ، ط1 ، دار الرسالة ، بغداد 1981 م .
- ❖ مقدمة العلامة ابن خلدون : تحقيق الاستاذ حجر عاصي ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1986 م .
- ❖ ملامح الشعر الأندلسي : الدكتور عمر الدقاق ، منشورات دار الشرق ، بيروت ، 1974 م .
- ❖ ملحمة السيد (اول ملحمة كتبت باللغة القشتالية) : الدكتور الطاهر احمد مكي ، ط1 ، دار المعارف ، مصر، 1970 م .
- ❖ منهاج البلغاء وسراج الأدباء : لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت684 هـ) ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس ، 1966 م .
- ❖ موسيقى الشعر : الدكتور ابراهيم أنيس ، ط4 ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1972 م .
- ❖ ميزان الذهب غي صناعة شعر العرب : احمد الهاشمي ، ط11 ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، 1951 م .
- ❖ نظرية الأدب : رينيه ويلك واوستن وارين ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة : د. حسام الخطيب ، ط3 ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، 1962.

- ❖ نظرية البنائية في النقد الأدبي : الدكتور صلاح فضل ،مكتبة الانجلو المصرية ، 1978 م .
- ❖ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : للشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني (ت1041 هـ) ،تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1968 م .
- ❖ الوطن في الأدب العربي : ابراهيم الأبياري ، دار القلم ، 1962 م .
- ❖ وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين بن احمد بن خلكان (ت681 هـ) ، تحقيق: د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 1968م.

ثانياً : الرسائل الجامعية :

- ❖ شعر ابن وهبون المرسى (جمع وتحقيق ودراسة) : سمر صبحي احمد ،رسالة ماجستير ، كلية الاداب – جامعة الموصل ، 1989 م.
- ❖ الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري : جواد رشيد مجيد ،رسالة ماجستير ، كلية الاداب – الجامعة المستنصرية ،1988 م.
- ❖ لغة الشعر في القصيدة العربية الأندلسية في عصر الطوائف (399 هـ – 502 هـ) : بشرى محمد طه البشير ، رسالة دكتوراه، كلية الاداب – جامعة بغداد ،1990 م .
- ❖ الوطن ودلالاته في الشعر الأندلسي عصري الخلافة والطوائف(دراسة أدبية نقدية) : نافع محمود خلف ، رسالة دكتوراه ، كلية الاداب – جامعة بغداد ،1994 م .

ثالثاً : الدوريات :

- ❖ ابن خلدون ريادة عربية اصيلة في التخطيط المدني والاقليمي : الدكتور خاص الاشعب،مجلة كلية الاداب ،العدد السادس والعشرون، حزيران ،1979 م .
- ❖ تقويم جديد لظاهرة الهجاء في الشعر العربي قبل الاسلام : الدكتور نوري حمودي القيسي ،مجلة كلية الاداب ،العدد الثلاثون ،1981 م .
- ❖ الخلود في الادب هو تثبيت قيم جديدة : الدكتور عناد غزوان ،مجلة آفاق عربية ،العدد الخامس،1984 م .
- ❖ ديوان المعتضد بن عباد : تحقيق الدكتور محمد مجيد السعيد ،مجلة المورد، المجلد الخامس ، العد الثاني، 1976 م .
- ❖ السميصر حياته وشعره : الدكتور حلمي ابراهيم الكيلاني ، مجلة مؤته ،المجلد السابع، العدد الاول ، 1992 م .
- ❖ الشاعر الاندلسي السميصر الالبيري حياته وشعره : الدكتور محمد شهاب العاني ، مجلة آداب المستنصرية ، العدد السادس والعشرون ، 1995 م .
- ❖ شعر ابن حزم الأندلسي : تحقيق عبد العزيز ابراهيم ن مجلة المورد المجلد السادس والعشرون ، العدد الثاني والرابع ، 1998، وكذلك المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني والرابع ، 1999 ؛ والمجلد الثامن والعشرون ، العدد الاول ، 200،2 م .
- ❖ شعر ابي عامر بن مسلمة : تحقيق الدكتورة هدى شوكت بهنام ، مجلة المورد المجلد الثامن عشر ، العدد الثاني ، 1989 م .
- ❖ العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها : الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، العدد الاول ، 1981 م .
- ❖ المسجد في الاسلام : الدكتور محمد توفيق بلبع ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ، 1979 م .